القسم الثانى

ويتناول :

مرحلة تأسيس الدولة

ينقسم العهد المدنى إلى مرحلتين كبيرتين متميزتين :

المرحلة الأولى : مرحلة تأسيس الدولة وتنتهى بغزوة الخندق .

المرحلة الثانية : مرحلة الجهاد السياسى وانتصار الرسالة ، وتمتد من صلح الحديبية إلى الوفاة .

مُواصفَات المرحَلة الأولى

ويتم تناولها فى دراسة المواقف المشتركة والمتشابهة فى هذه المرحلة ، مع مراعاة التسلسل الزمنى ما أمكن ضمن عناصر السمة الواحدة .

السمة الأولى
إعلان إسلامية الدولة

أ ـ بناء المسجد :

يقول المباركفورى : (وأول خطوة خطاها رسول الله ﷺ بعد ذلك : هو إقامة المسجد النبوى ، ففى المكان الذى بركت فيه ناقته أمر ببناء المسجد ، واشتراه من غلامين يتيمين كانا يملكانه ، وساهم فى بنائه بنفسه ، فكان ينقل اللبن والحجارة ويقول :

هذا الحمال لا حمال خيبر هـذا أبـر ربـنـا وأطـهر

وكان ذلك مما يزيد نشاط الصحابة فى البناء حتى إن أحدهم ليقول :

لـئـن قـعـدنا والنبى يعمل لذاك منا العمل المضلل

وكان فى ذلك المكان قبور المشركين ، وكان فيه خرب ونخل وشجرة من غرقد فأمر رسول الله ﷺ بقبور المشركين فنبشت ، وبالخُرب فسوِّيت ، وبالنخل والشجرة فقطعت، وصُفَّت فى قبلة المسجد ، وكانت القبلة إلى بيت المقدس ،

وجعلت عضادتاه من الحجارة ، وأقيمت حيطانه من اللبن والطين ، وجعل سقفه من جريد النخل ، وعمده الجذوع ، وفرشت أرضه من الرمال والحصباء ، وجعلت له ثلاثة أبواب ، وطوله مما يلى القبلة إلى مؤخره مائة ذراع ، والجانب مثل ذلك أو دونه . وكان أساسه قريباً من ثلاثة أذرع .

ولم يكن المسجد موضعاً لأداء الصلوات فحسب ، بل كان جامعة يتلقى فيها المسلمون تعاليم الإسلام وتوجيهاته ، ومنتدى تلتقى وتتآلف فيه العناصر القبلية المختلفة التى طالما نافرت بينها النزعات الجاهلية وحروبها ، وقاعدة لإدارة جميع الشؤون وبث الانطلاقات ، وبرلماناً لعقد المجالس الاستشارية والتنفيذية . وكان مع هذا كله داراً يسكن فيها عدد كبير من فقراء المهاجرين اللاجئين الذين لم يكن لهم دار ولا مال ولا أهل ولا بنون) (١) .

ب ـ إعلان الأذان :

(. . . فبينا هم على ذلك إذ رأى عبد اللّه بن زيد . . . النداء ، فأتى رسول اللّه ﷺ فقال له : يا رسول الله، إنه طاف فىَّ هذه الليلة طائف. مرَّ بى رجلٌ عليه ثوبان أخضران، يحمل ناقوساً فى يده . فقلت له : يا عبد اللّه ، أتبيع هذا الناقوس ؟ قال: وما تصنع به ؟ قلت : ندعو به إلى الصلاة . قال : أفلا أدلك على خير من ذلك ؟ قلت : وما هو ؟ قال: تقول : اللّه أكبر اللّه أكبر . . . فلما أخبر بها رسول اللّه ﷺ قال : « إنها لرؤيا حق إن شاء اللّه فقم مع بلال فألقها عليه فليؤذِّن بها فإنه أندى صوتاً منك » . فلما أذَّن بها بلال سمعها عمر بن الخطاب وهو فى بيته ، فخرج إلى رسول اللّه ﷺ يجر رداءه ، وهو يقول : يا نبى الله ، والذى بعثك بالحق لقد رأيت مثل الذى رأى ، فقال رسول اللّه ﷺ: « فلله الحمد على ذلك » (٢) .

جـ ـ الحكم الإسلامى :

ونلاحظ ميزات هذا الحكم وإعلانه من بعض مقتطفات من ميثاق المدينة :

١ ـ بسم اللّه الرحمن الرحيم ، هذا كتاب من محمد النبى بين المؤمنين والمسلمين من قريش ويثرب ومن تبعهم فلحق بهم ،وجاهد معهم إنهم أمة من دون

(١) الرحيق المختوم ص ٢٠٥، ٢٠٦ ، وانظر : فتح البارى شرح صحيح البخارى ٧/ ٢٦٥ ، ٢٦٦ .
(٢) السيرة النبوية لابن هشام ١/ ٥٠٨ ، ٥٠٩ .

الناس.

٢ ـ وإنكم مهما اختلفتم فيه من شيء فإن مرده إلى اللّه عز وجل وإلى محمد ﷺ.

٣ ـ وإن اليهود ينفقون مع المؤمنين ما داموا محاربين ، وإن يهود بنى عوف أمة مع المؤمنين لليهود دينهم وللمسلمين دينهم ، مواليهم وأنفسهم إلا من ظلم وأثم فإنه لا يوتغ [1] إلا نفسه وأهل بيته.

٤ ـ وإن على اليهود نفقتهم ، وعلى المسلمين نفقتهم ، وإن بينهم النصر على من حارب أهل هذه الصحيفة .

٥ ـ وإنه ما كان بين أهل هذه الصحيفة من حدث أو اشتجار يخاف فساده ، فإن مرده إلى اللّه عز وجل وإلى محمد رسول اللّه ﷺ .

ولا تحتاج هذه الفقرات إلى تعليق ، فهى واضحة تماماً من حيث تحديدها لقيام دولة الإسلام وإعلان هوية هذه الدولة ، بعد التمكين الذى هيأه اللّه تعالى لرسوله وللمؤمنين .

السمة الثانية
إعلان دستور الدولة

أ ـ ميثاق المدينة والعلاقة مع اليهود :

إذا كان اليهود قوة ذات شوكة ومنعة وليس من صالح الرسول ﷺ والمسلمين معه فتح حربٍ مع اليهود ، خاصة وأنهم أهل كتاب منزل ، فالطمع فى إسلامهم قائم. ولقد تناول الميثاق تنظيم العلاقة بين المهاجرين والأنصار ، كما تناول تنظيم العلاقة بين المسلمين عامة وبين اليهود فى بابين :

الباب الأول : اليهود الذين يعيشون ضمن تجمعات المسلمين .

الباب الثانى : اليهود المتميزون فى دورهم وتجمعاتهم بعيداً عن المسلمين .

أما بالنسبة للباب الأول فقد ذكرت الوثيقة ما يلى :

---

(١) يوتغ : يهلك .

(. . . وإن اليهود ينفقون مع المؤمنين ما داموا محاربين ، وإن يهود بنى عوف أمة مع المؤمنين ، لليهود دينهم وللمسلمين دينهم ، مواليهم وأنفسهم ، إلا من ظلم وأثم فإنه لا يوتغ ـ يهلك ـ إلا نفسه وأهل بيته .

وإن ليهود بنى النجار مثل ما ليهود بنى عوف .

وإن ليهود بنى الحارث مثل ما ليهود بنى عوف .

وإن ليهود بنى ساعدة مثل ما ليهود بنى عوف .

وإن ليهود بنى الأوس مثل ما ليهود بنى عوف .

وإن ليهود بنى ثعلبة مثل ما ليهود بنى عوف، إلا من ظلم وأثم فإنه لا يوتغ إلا نفسه وأهل بيته ، وإن جفنة بطن من ثعلبة كأنفسهم .

وإن لبنى الشطيبة مثل ما ليهود بنى عوف ، وإن البر دون الإثم .

وإن موالى ثعلبة كأنفسهم ، وإن بطانة يهود كأنفسهم .

وإنه لا يخرج منهم أحد إلا بإذن محمد ﷺ ،وإنه لا ينحجز على ثأر جرح ، وإنه من فتك فبنفسه فتك وأهل بيته ، إلا من ظلم وإن الله على أبر هذا) [1] .

وذكرت الوثيقة بالنسبة للباب الثانى ما يلى :

(**وإن على اليهود نفقتهم وعلى المسلمين نفقتهم ، وإن بينهم النصر على من حارب أهل هذه الصحيفة ، وإن بينهم النصح والنصيحة والبر دون الإثم ، وإنه لم يأثم امرؤ بحليفه، وإن النصر للمظلوم** . وإن اليهود ينفقون مع المؤمنين ما دامو محاربين ، وإن يثرب حرام جوفها لأهل هذه الصحيفة ، **وإن الجار كالنفس غير مضار ولا آثم ، وإنه لا تجار حرمة إلا بإذن أهلها** . وإنه ما كان بين أهل هذه الصحيفة من حدث أو شجار يخاف فساده فإن مرده إلى الله عز وجل وإلى محمد رسول الله ﷺ ، وإن الله على أتقى ما فى هذه **الصحيفة وأبره وأنه لا تُجارُ قريش ولا من نصرها ، وإن بينهم النصر على من دهم يثرب ، وإذا دعوا إلى صلح يصالحونه ويلبسونه فإنهم يصالحونه ويلبسونه** ، وأنهم إذا دعوا إلى مثل ذلك فإن لهم على المؤمنين إلا من حارب فى الدين،على كل أناسٍ حصتهم من جانبهم

(١) السيرة النبوية لابن هشام ١/ ٥٠٣ .

الذى قبلهم، وإن يهود الأوس ، مواليهم وأنفسهم على مثل ما لأهل هذه الصحيفة ، مع البر المحض من أهل هذه الصحيفة ، وإن البر دون الإثم ، لا يكسب كاسب إلا على نفسه ، وإن الله على أصدق ما فى هذه الصحيفة وأبره ، **وإنه لا يحول هذا الكتاب دون ظالم أو آثم ، وإنه من خرج آمن ، ومن قعد آمن بالمدينة إلا من ظلم وأثم ، وإن الله جارٌ لمن برّ واتقى ومحمد رسول الله ﷺ**) (١) .

ب ـ العلاقة مع المشركين :

حيث لم يسمح لتجمع المشركين من خلال الفكرة، إنما من خلال التجمع القبلى، ووضع فى الميثاق مادة تحكم علاقة الأفراد المشركين فى التجمع الإسلامى: (وإنه لا يجير مشرك مالاً لقريش ولا نفساً ، ولا يحول دونه على مؤمن ، وإنه من اعتبط مؤمناً قتلاً عن بنيه فإنه قود به إلا أن يرضى ولى المقتول . . .) . وبذلك تم تنظيم العلاقات بين أبناء هذا المجتمع على اختلاف دياناتهم فى دولة الإسلام الأولى دولة النبوة، وحقق هذا الميثاق العدل التام للجميع والارتياح والرضا من قبلهم. فحقوقهم محفوظة ، وواجباتهم محددة ، والعدو الوحيد لأبناء هذا الوطن الإسلامى بكل فئاته هم قريش فقط ، وعليهم واجب التناصر ضدها ، ويحرم التحالف معها .

جـ ـ ميثاق الأمان مع بنى ضمرة :

وذلك فى غزوة الأبواء أو ودان فى صفر من السنة الثانية للهجرة حيث عقد معاهدة حلف مع عـمرو بن مخشى الضمرى ، وكان سيد بنى ضمرة فى زمانه ، (فكانت الموادعة ـ أى المصالحة ـ على أن بنى ضمرة لا يغزونه ولا يكثرون عليه جمعاً ولا يعينون عليه عدواً . وأنه إذا دعاهم لنصر أجابوه)(٢) .

د ـ ميثاق عدم اعتداء مع بنى مدلج :

وكان ذلك فى غزوة العشيرة فى جمادى الأولى من السنة الثانية حيث عقد هذه المعاهدة مع بنى مدلج وحلفائهم من بنى ضمرة .

فلقد كانت هذه الأحلاف والمعاهدات مع القبائل البعيدة والقبائل المجاورة

---

(١) السيرة النبوية لابن هشام ١/ ٥٠٤ .

(٢) المواهب اللدنية للزرقانى وشرحها ١/ ٤٥٥ .

بهدف تخذيل العدو وفتح جبهة واحدة مع قريش فقط ، بينما يطمئن إلى بقية الجبهات أنها لن تغزوه ، وبهدف التخذيل عن العدو ، فلا يبقى مع قريش مناصر فى المدينة وما حولها ، وعلى ضوء هذه السمة فلا حرج على الحركة الإسلامية فى أن تحالف من شاءت وتحارب من شاءت ، إلى أن تصبح قادرة على المواجهة الكاملة ، وعليها أن تفى بعهودها مع هذا الحليف .

السمة الثالثة

توحيد القاعدة الصلبة

وقد أخذت عملية بناء المجتمع الإسلامى الأول ثلاثة خطوط :

الخط الأول : العهد بين تجمع المهاجرين وتجمع الأنصار .

الخط الثانى : المؤاخاة بين المهاجرين وحدهم .

الخط الثالث : المؤاخاة بين المهاجرين والأنصار .

أما نص الوثيقة التى أقامت هذا البناء بين المهاجرين والأنصار فتقول : (بسم اللّه الرحمن الرحيم هذا كتاب من محمد النبى بين المؤمنين والمسلمين من قريش ويثرب ، ومن تبعهم فلحق بهم، وجاهد معهم، إنهم أمة واحدة من دون الناس ، المهاجرون من قريش على ربعتهم يتعاقلون[1] بينهم، وهم يفدون عانيهم[2] بالمعروف والقسط بين المؤمنين . وبنو عوف على ربعتهم[3] يتعاقلون معاقلهم الأولى، وكل طائفة منهم تفدى عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين . وبنو النجار . . وبنو الحارث . . وبنو ساعدة . .وبنو الجشم . . وبنو عمرو بن عوف . . وبنو النبيت . . وبنو الأوس على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى، وكل طائفة منهم تفدى عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين . وإن المؤمنين لا يتركون مفرحاً [4] بينهم أن يعطوه بالمعروف فى فداء أو عقل. وألا يحالف مؤمن مولى مؤمن دونه، وإن المؤمنين المتقين على من بغى منهم أو ابتغى دسيعة[5] ظلم أو إثم أو عدوان أو فساد بين

(١) يتعاقلون : أى يعقل بعضهم عن بعض ، والعقل : الدية .

(٢) العانى : الأسير .

(٣) الربعة : الحال التى وجدهم عليها الإسلام .

(٤) مفرحاً : مثقلاً بالدين كثير العيال .

(٥) الدسيعة : العظيمة .

المؤمنين ، وإن أيديهم عليه جميعاً ، ولو كان ولد أحدهم ، ولا يقتل مؤمن مؤمناً في كافر ، ولا ينصر كافراً على مؤمن ، وإن ذمة اللّه واحدة يجير عليهم أدناهم، وإن المؤمنين بعضهم موالى بعض دون الناس ، وإنه من تبعنا من يهود فإن له النصر والأسوة، غير مظلومين ولا متناصر عليهم . وإن سلم المؤمنين واحدة ، لا يسالم مؤمن في قتال في سبيل اللّه إلا على سواء وعدل بينهم ، وإن كل غازية غزت معنا يعقب بعضها بعضاً، وإن المؤمنين يبيء بعضهم على بعض بما نال دماءهم في سبيل اللّه،وإن المؤمنين المتقين على أحسن هدى وأقومه ،وإنه لا يجير مشرك مالاً لقريش ولا نفساً ، ولا يحول دونه على مؤمن ، وإنه من اعتبط مؤمناً قتلاً عن بينة فإنه قود به إلا أن يرضى وليّ المقتول،وإن المؤمنين عليه كافة ، ولا يحل لهم إلا قيام عليه ، وإنه لا يحل لمؤمن أقر بما في هذه الصحيفة وآمن باللّه واليوم الآخر أن ينصر محدثاً ولا يؤويه ، وإنه من نصره آو آواه فإن عليه لعنة اللّه وغضبه يوم القيامة ، ولا يؤخذ منه صرف ولا عدل ، وإنكم مهما اختلفتم فيه من شيء فإن مرده إلى اللّه عز وجل وإلى محمد ﷺ) (١) .

فلقد أصبح المهاجرون والأنصار أمة واحدة من دون الناس ، أما كتلة المهاجرين فكلها تجمع واحد ، وأما كتلة الأنصار فموزعة على تجمعات قبائلها وعشائرها ، ولقد تحددت مسؤولية كل فريق على حدة أمام اللّه تعالى وأمام رسوله وأمام إخوانه المؤمنين .

وحيث إن المهاجرين جميعاً كتلة واحدة ليس تجمعهم على أساس الانتماء القبلي ، فكان لا بد من الخط الثاني ، خط المؤاخاة بين المهاجرين أنفسهم ليحمل قويهم ضعيفهم ، وآخى رسول اللّه ﷺ بين ذاته الشريفة، وبين علي بن أبي طالب ابن عمه الذي جاءه حافي القدمين بعد تأدية أماناته إلى الكفار في مكة ، كما آخى عليه الصلاة والسلام بين حمزة بن عبد المطلب عمه، وبين زيد بن حارثة مولاه ، دون تمييز لنسبهما بل كان الدافع هو التقوى.

وكان الخط الثالث هو المؤاخاة بين أفراد المهاجرين والأنصار على حد التعبير النبوي : « تآخوا في اللّه أخوين أخوين » .

وذلك ليتم التكافل المباشر بينهما، فالأنصار أهل ضرع وزرع، والمهاجرون

(١) السيرة النبوية لابن هشام ١/٥٠١ ، ٥٠٢ .

أهل تجارة.

فكان الأنصارى يعرض على أخيه المهاجر أن يقاسمه ماله وبيته وزرعه . فقد روى البخارى أنهم لما قدموا المدينة آخى رسول اللّه ﷺ بين عبد الرحمن بن عوف وسعد بن الربيع ، فقال لعبد الرحمن : إنى أكثر الأنصار مالاً ، فاقسم مالى نصفين ، ولى امرأتان، فانظر أعجبهما إليك فسمها لى ، أطلقها ، فإذا انقضت عدتها فتزوجها ، قال : بارك اللّه لك فى أهلك ومالك ، وأين سوقكم ؟ فدلوه على سوق بنى قينقاع .

ويقول ابن القيم : (ثم آخى رسول اللّه ﷺ بين المهاجرين والأنصار فى دار أنس بن مالك وكانوا تسعين رجلاً نصفهم من المهاجرين ، ونصفهم من الأنصار ، آخى بينهم على المواساة ويتوارثون بعد الموت دون ذوى الأرحام ، إلى حين وقعة بدر ، فلما أنزل اللّه عز وجل : ﴿ **وَأُولُوا الأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ** ﴾ [الأحزاب : ٦] رد التوارث دون عقد الأخوة) (١) .

(وروى البخارى عن أبى هريرة قال : قالت الأنصار للنبى ﷺ : اقسم بيننا وبين إخواننا النخيل . قال : « لا » ، فقالوا : تكفونا المؤونة ونشرككم فى الثمرة قالوا : سمعنا وأطعنا) (٢) .

السمة الرابعة
لا خيار من المعركة

الصورة الواضحة فى أذهان معظم شباب المسلمين من خلال قراءتهم لكتب السيرة هى: أن رسول اللّه ﷺ هو الذى افتتح المعركة مع قريش حين راح يهاجم قوافلها المارة بالمدينة ، وبخاصة قافلة أبى سفيان ، ويضطر كتّاب السيرة للاعتذار عن هذا الهجوم ، أن قريشاً قد سلبت أموال المسلمين وأخرجتهم من أرضهم وديارهم . فلذلك هم يطلبون مالهم وهم أصحاب الحق فيه . ومرد الخطأ فى هذه الصورة هو اعتماد سيرة ابن هشام وحدها مصدراً للسيرة ، بينما يمكن

---

(١) زاد المعاد ١/ ٢/ ٦٣ .

(٢) فتح البارى شرح صحيح البخارى ٧/ ١١٣ ح ٣٧٨٢ .

للصورة أن تتكامل لو ربطت هذه السيرة مع ما ورد عن سيرة رسول الله ﷺ فى كتب الحديث المعتمدة من الصحاح الستة وغيرها التى تعتبر من حيث التوثيق أقوى من سيرة ابن إسحاق .

والذى دفع إلى كتابة هذه الخاطرة هو ما رواه أبو داود فى سننه عن قريش أنهم كتبوا إلى عبد الله بن أبى ابن سلول - بصفته زعيم المدينة - يهددونه ويتوعدونه بقولهم :(إنكم آويتم صاحبنا ، وإنا نقسم بالله لتقاتلنه أو لتخرجنه ، أو لنسيرنّ إليكم بأجمعنا حتى نقتل مقاتلتكم ونستبيح نساءكم) .

كان هذا بالنسبة لأهل يثرب وزعيمها ، أما بالنسبة للمهاجرين فقد كتبت إليهم تقول: (لا يغرنكم أنكم أفلتمونا إلى يثرب ، سنأتيكم فنستأصلكم ونبيد خضراءكم فى عقر داركم) (١) .

ولم يكن هذا غريباً على منهج قريش ، فهى التى قررت اغتيال رسول الله ﷺ على ملأ منها ، وخفتت الأصوات التى كانت تدعو لحمايته ، ولم يكن لديها الجرأة لمواجهة التيار العنيف ضده وضد أصحابه ، كما أن قريشاً منعت بالقوة هجرة من استطاعت منعهم عندما رأت تسرب المسلمين إلى يثرب ، ولم تكتف بذلك ، بل بعثت وراء بعض المهاجرين فاستعادتهم مثل عياش بن ربيعة والوليد ابن الوليد وغيرهم . فمنطق الحرب لدى قريش يعطينا تصوراً عن منطق الجاهلية فى حربها ضد الإسلام والمسلمين . إنها لن تدع المسلمين يستقرون فى الأرض، ولن تترك لهم أماناً فى أى موقع ، أو تدع لهم أن يحتلوا أى موقع؛ لأنها تعرف أن قوة الإسلام لابد أن تكتسحهم .

والحركة الإسلامية بحاجة أن يستقر فى ذهنها هذا المعنى ، فلا تركن إلى الدعة إن ابتعدت عن موطن الصراع ، أو تحسب أن المعركة قد انتهت مع الجاهلية إن أفلتت من أيديها . وواقع الحركة الإسلامية اليوم يؤكد هذا المعنى ، فعندما تجمع الدعاة فى قطر مجاور للطاغوت لم يتورع أن يتجاوز الحدود، ويغتال من يستطيع اغتيالهم أو يحاول ذلك ، بل لجأ فى بعض الظروف إلى حشد فرق كاملة على حدود هذا القطر ليحاربه ، والعالم كله يحارب الأقطار التى تؤوى شباب الحركة الإسلامية أو تهيئ لهم التدريب والتحرك .

(١) أبو داود ، باب خبر بنى النضير ٢/٣/١٥٦ .

إنه لا خيار لنا فى المعركة ، وهذا ما أكدته قريش لابن أبىّ أولاً ثم للمسلمين المهاجرين ثانياً ، تطالب فيه قيادة المدينة أن تطرد المؤمنين منها ، أو تقتلهم فيها ، كما تؤكد أن الاستئصال التام هو الحل الوحيد لديها فى مواجهة المسلمين .

وتؤكد هذه الصورة فى عصرنا الحديث يوم أصرت السلطة الطاغية فى بعض الأقطار على تسليم بعض قيادات الحركة الإسلامية لها مقابل حضورها مؤتمراً معقوداً فى الدولة المضيفة . إننا مع الجاهلية فى معركة لا خيار فيها ، وفى هذه المعركة لا نلتقى معها فى منتصف الطريق بل تحدد هدفها فى اجتثاث جذور الدعاة واستئصالهم ، وحين نفهم عدونا على ضوء هذا المعنى نتعامل معه على بصيرة منه ومن مخططاته .

السمة الخامسة

التجمع الوثنى فى المدينة

(. . . فلما بلغ ذلك عبد اللّه بن أبى ومن كان معه من عبدة الأوثان اجتمعوا لقتال رسول اللّه ﷺ . . .) .

لاحظنا أن الميثاق لم يعط التجمع الوثنى بصفته كتلة فى المجتمع حق الوجود، إنما سمح بوجوده بصفته أفراداً لا يجبرون على دخول الإسلام . وكان على رأس هذا التجمع عبد اللّه بن أبى الذى أقسم الأيمان المغلظة لقريش فى موسم الحج أن قومه لم يعاهدوا محمداً ولم يعاقدوه ، ولا يمكن أن يتم هذا دون علمه وأمره ، فعندما بلغه أن الخبر صحيح امتلأ قلبه حقداً على رسول اللّه ﷺ، ومما زاد الحقد فى قلبه اشتعالاً هو : أن الخزرج والأوس بعد أن هدأت بينهم الثارات اجتمعوا على أن يعقدوا الملك لعبد اللّه بن أبى، وكانوا ينسجون له الخرز ليتوجوه ، فأحس عبد اللّه بن أبى أن عدوه الأول والأكبر هو محمد رسول اللّه . وتذكر كتب السيرة موقفاً له فى هذه المرحلة قبل دخوله الإسلام يوم مرَّ عليه رسول اللّه ﷺ مع ركبٍ من قومه فنزل عن حماره وسلم عليه ، (ثم جلس فتلا القرآن ، ودعا إلى اللّه، وذكر باللّه . . . حتى إذا فرغ رسول اللّه ﷺ من مقالته قال: يا هذا إنه لا أحسن من حديثك هذا إن كان حقا ، فاجلس فى بيتك فمن جاءك فحدثه إياه ، ومن لم يأتك فلا تغشه به ، ولا تأته فى مجلسه بما يكره ، فقال عبد اللّه

ابن رواحة فى رجال كانوا عنده من المسلمين : بلى فاغشنا وائتنا فى مجالسنا ودورنا ، فهو واللّه مما نحب ، ومما أكرمنا اللّه به وهدانا له ، فقال عبد الله بن أبى حين رأى من خلاف قومه ما قد رأى :

متى ما يكن مولاك خصمك لا تزل تُذَلُّ ويصرعك الذى لا يصارعُ

وهل ينهض البازى بغير جناحه وإن جُذَّ يوماً ريشه فهو واقع[1]

وفى رواية أنه قال له [2] : أبعد عنا نتن حمارك .

فشخصية عبد اللّه بن أبى ـ إذن ـ هى المؤهلة للمواجهة والحرب فى المدينة . أما اليهود فقد كانوا أذكى من ابن أبى وهم يرون الكثرة من أهل يثرب مع رسول اللّه ﷺ . وكان من تخطيطهم أن يتم إنهاء محمد رسول اللّه على يد هذا التجمع الوثنى دون أن يفقدوا مالاً أو نفساً .

ووجد ابن أبى الفرصة سانحة ليهيج العواطف ضد رسول اللّه ﷺ وصحبه من جماعته المتواطئين معه على وثنيته . ولا يتم له ذلك إلا بتجسيم الخطر المحيق بهم من جراء تهديدات قريش ، وأكد لهم أن القضية قضية فناء أو بقاء ، ولا قرار ولا استقرار لهم إلا بطرد المسلمين وقتالهم ، ومن أجل ذلك أعادوا تنظيمهم ، وشكلوا القوة المكافئة ، ومضوا لقتال رسول اللّه ﷺ والمسلمين .

وهذه هى العناصر الثلاثة التى حدت بهذا التجمع لحرب المسلمين :

١ ـ الحقد والضغينة على فوات المنصب والمركز لقيادة يثرب .

٢ ـ خلاف العقيدة والإصرار على الوثنية .

٣ ـ الدفع الخارجى والتهديد بالخطر من قريش ، والتآمر الداخلى من اليهود .

وهذه العناصر موجودة فى كل وقت ، ويحتمل أن تواجه بها الحركة الإسلامية وتعد لهذا الموقف عدته .

وفى مثل هذه الظروف تكون الريح مع أعداء المسلمين ، تماماً كما يفعل اليوم الطواغيت حين يهددون الشعب الآمن بذبحه إن آوى الدعاة ، بل يحرصون على أن يبثوا عملاءهم فى الصفوف ليؤكدوا أن عدم الاستقرار والخوف قد نشأ من

---

(١) السيرة النبوية لابن هشام ١/ ٥٨٧ .

(٢) لرسول اللّه ﷺ .

وجود الدعاة بينهم ، وحرص عوام الناس على أمنهم ومصالحهم القريبة يدفعهم إلى التصديق لمثل هذه الدعايات ، وأن يقفوا فى صف السلطة الباغية ضد إخوتهم المجاهدين ، وبهذا المنطق استطاع عبد اللّه بن أبى أن يجمع هؤلاء الناس ويحرضهم على حرب رسول الله ﷺ وأصحابه .

السمة السادسة

تفتيت التجمع بالنزعة الوطنية والعشائرية

(. . . فلما بلغ ذلك النبى ﷺ لقيهم فقال :«لقد بلغ وعيد قريشٍ منكم المبالغ ، وما كانت تكيدكم بأكثر مما تريدون أن تكيدوا به أنفسكم تريدون أن تقاتلوا أبناءكم وإخوانكم»، فلما سمعوا ذلك من النبى تفرقوا)[1]. وكم نحن بحاجة إلى الوقوف أمام هذا المعنى، وهو المعنى الذى يمكن أن نسميه فقه سياسة النبوّة، لقد كان لهذا الموقف صورة مشابهة نقلها لنا البخارى ـ رحمه اللّه ـ حول الصورة السابقة من لقاء رسول اللّه ﷺ مع عبد اللّه بن أبى.

وفى الرواية (. . . وأردف أسامة بن زيد وراءه وفيه : وذلك قبل وقعة بدر وقبل أن يسلم عبد اللّه ، وفيه : فلما غشيت القوم عجاجة الدابة خمر عبد اللّه ابن أبى أنفه بردائه وقال : لا تغبروا علينا. وفيه : فاستب المسلمون والمشركون واليهود حتى كادوا يتثاورون ، فلم يزل النبى ﷺ يخفضهم حتى سكنوا . وفيه : قال سعد بن عبادة : اعف عنه واصفح ، فوالذى أنزل عليك الكتاب لقد جاء اللّه بالحق الذى أنزل عليك ، ولقد اصطلح أهل هذه البحيرة أن يتوجوه فيعصبونه بالعصابة ، فلماء أبى اللّه ذلك بالحق الذى أعطاك شرق بذلك ، فذلك الذى فعل به ما رأيت فعفا عنه رسول اللّه ﷺ) [2] .

لقد كانت المواجهة الأولى بين المسلمين والمشركين فى المدينة فى الحادثة المذكورة ، ولو أن رسول اللّه ﷺ ترك الأمر لعواطف المسلمين ـ وهم ما ثاروا إلا غضباً للّه ورسوله ـ لوقعت الحرب الضروس ، وتزعزع إيمان بعض المؤمنين ، وانضموا إلى معسكر عبد اللّه بن أبى ، وأعيدت حرب بعاث من جديد ،

(١) أبو داود ، خبر بنى النضير ٢/٣/١٥٦ . (٢) مختصر السيرة ص ١٧٠ .

وضاعت فيها معالم الحق وسط نتن العصبية وتزلزلت دولة الإسلام فى مراحلها الأولى .

فلقد استل رسول الله ﷺ غضب المسلمين ، ولو كان غضبهم لله ورسوله ، وكان يهدئ العواطف الثائرة ، دون أن ينحاز لأحد الطرفين ، واستجاب المسلمون لأمر قائدهم واستبعدت المعركة .

أما الصورة الجديدة التى بين أيدينا فهى فى ظاهرها غير ممكنة التلافى ؛ إذ قد عمد الوثنيون إلى سلاحهم لمواجهة المسلمين ، وتبدوا صعوبتها أكثر حين نتصور أن الأيدى الخفية التى تحركها من الخارج ، واستطاعت الدعاية الخارجية أن تجعل الأمر فى أذهان المشركين أمر مصير محتوم لا خيار فيه ، فإما قتل محمد وأصحابه وطردهم ، وإما احتلال المدينة واستباحتها من أهل مكة .

ونقف هنيهة لنرى كيف استلَّ رسول الله ﷺ فتيل الانفجار من المشركين ، وكيف أنه اعتمد ﷺ التركيز على الوتر الذى ركزت عليه قريش ، فأعاد السحر على الساحر ، واستعمل الأسلوب نفسه الذى استعملته قريش ؛ لأن هذا هو المنطق الذى يمكن أن يفهم الوثنيون فيه ، طالما أن الإسلام لا يجمع الفريقين .

إن الذى يتبادر لذهن الشباب المسلم فى هذه العجالة هو الجهاد فى سبيل الله، والابتداء مباشرة بحرب هؤلاء فهم العدو الداخلى ، قبل الابتداء بقريش ، وحتى لا يكون لدينا هوادة فى دين الله ، وحتى لا نخاف فى الله لومة لائم . فلابد من حرب هؤلاء الوثنيين،وكسر شوكتهم والقضاء على هذا الجيب الداخلى، إلى آخر هذا النغم الذى يعتبر التخلى عن المعركة جبناً وهوادة فى دين الله ، ومداهنة على حساب العقيدة .

كم نتمنى أن يتروى الشباب المسلم هذا الموقف ، ويتعلموا من سيد الخلق رسول الله ﷺ فنَّ التعامل مع العدو ، وتحديد المعركة ، وطبيعة مصلحة الجماعة فى المعركة ، وأن يتركوا لقيادتهم حرية الحركة فى هذه الأمور ، وهى التى تضطلع بعبء المواجهة ، وتعرف من تصالح ، ومن تحارب ، ومن تهادن ، ومن تحالف ، ومتى تقاتل ، ومتى تسالم ؛ لأنها هى مناط الحركة والمسؤولية .

لقد استعمل رسول الله ﷺ الأسلوب الوطنى ، الأسلوب العشائرى ، فى

فضّه هذا التجمع ، وإنهاء المعركة دون قتال ، وتفتيت التجمع دون دماء بكلمات بسيطة معبرة ، عميقة، خالدة على مدى الزمن، وممَّن ؟ من رسول البشرية، ومن نبى الإسلام، قال: « لقد بلغ وعيد قريش منكم المبالغ . . . » .

ولقد حرك بهذه الفقرة جانباً نفسياً عندهم يأبونه ، وهو الخوف من قريش ، ومهما كان العربى فحين تستفز كوامن قوته ،وكوامن بطولته يأبى أن يعير بالجبن ، أو الخوف ، أو الخور .

« . . . ما كانت تكيدكم بأكثر مما تريدون أن تكيدوا به أنفسكم . . . » .

وبعد الضرب على الوتر الحساس الأول ، وتر البطولة والشجاعة ، عاد رسول اللّه ﷺ ليحرك وتراً نفسيا آخر ، هو الترهيب من تآمر العدو الخارجى على أهل المدينة أصحاب المصير المشترك الواحد ، فليس هذا الموقف جبناً فقط ، ولكنه غفلة وسذاجة وجهالة ، ولا يرضى العربى مهما كان أن يتهم بهذا الاتهام ، أن يتهم بأنه لا يدرك كيد عدوه ، ولا يعرف مخططاته ، ولا يفقه ألاعيبه . فلقد هيج هذا المعنى فى أنفسهم شعورا جديداً من النفرة لاستجابة دعوة قريش البعيدة المعادية ، ولو أن رسول اللّه ﷺ راح يدعوهم لإلقاء السلاح باسم الإسلام لأحس الوثنيون اليثربيون أنهم أقرب إلى قريش من رسول اللّه ﷺ، ولتهيج فى نفسهم شعور الاعتزاز بالوثنية ضد هذا الدين الجديد ، ولهم مع قريش قاسم مشترك ، إذ عندها البيت الحرام ومقام إبراهيم والحج لبيت اللّه ، فلا غرو أن يتساقطوا جميعاً صرعى ضد محمد ودينه ومع قريش .

إن عظمة القيادة النبوية وهى تركز على هذه المعانى لتقذف بالكيد فى صدر أصحابه ، وتجعل الإحباط سمة لهذا الكيد « . . . تريدون أن تقاتلوا أبناءكم وإخوانكم . . . » . يا شباب الدعوة، هذا قول رسول اللّه ﷺ، وليس قول متهم فى دينه يريد أن يبرر مسالمته لعدو كافر .

إن رسول الله ﷺ يخاطب هؤلاء الوثنيين بالأسلوب الذى يفهمونه ويركز على أخوة النسب. وهو الذى جاء إلى البشرية جميعها بأخوة العقيدة، ويركز على رابطة الماء والطين، وهو الذى جاء رحمة للعالمين ، ويركز على شعور القوم والأهل والوطن بين من ؟! بين المسلمين والمشركين ، لماذا ؟ ليحبط كيداً أكبر من عدو أعظم ، ليضيق هوة المعركة، ليخذل بين الأعداء جميعهم ، فيجعلهم حلفاءه

ضد عدوٍ مشترك واحد .

لقد ذكّر رسول الله ﷺ الوثنيين الذين حملوا السلاح ضد المسلمين أن المسلمين أبناؤهم وإخوانهم ، ولا ضير فى ذلك إن كان فيه تأجيل لمعركة ضارية داخلية بينهما ، تقتضى المصلحة فى وقت متقدم التركيز على البراءة من عاطفة الأخوة والقرابة والأبوة ، وذلك فى معركة بدر .

وباء تخطيط قريش بالخذلان والخسران ، وحيث توقعوا أن ينتهى رسول الله ﷺ على يدى المشركين فى المدينة ، إذ بهم يلقون السلاح جميعاً ، وينقلبون نادمين على حمله فى وجه إخوانهم وأبنائهم .

ونود لشباب الدعوة الإسلامية أن يدركوا هذا المعنى النبوى ويفقهوه ، حين يرون قيادة الدعوة فى مرحلة من المراحل ، تبحث عن قاسم مشترك بينها وبين بعض أعدائها لتجعلهم يقفون فى صفها ضد عدوٍ أخطر وأكبر ، وحين يرون قيادتهم تقبل الحديث عن عاطفة الوطن وعاطفة الأمّة ، أو يتحدثون عن الضعفاء من الفئات المظلومة ، بحيث يمثل القاسم المشترك نقاط لقاء مرحلى مع هذا العدو ضد عدوٍ آخر .

السمة السابعة

محاولة تفتيت الصف الإسلامى

وحين فشلت محاولات تفتيت الصف المدنى ـ على وهن هذا الصف ـ امتدت المحاولات لتفتيت الصف الإسلامى المدنى ، كما روى ابن إسحاق : (. . . ومرّ شاس بن قيس ـ وكان شيخاً قد عتا ، عظيم الكفر ، شديد الطعن على المسلمين ، شديد الحسد لهم ـ على نفرٍ من أصحاب رسول الله ﷺ من الأوس والخزرج ، فى مجلس قد جمعهم يتحدثون فيه ، فغاظه ما رأى من ألفتهم وجماعتهم وصلاح ذات بينهم على الإسلام ، بعد الذى كان بينهم من العداوة فى الجاهلية ، فقال : قد اجتمع ملأ بنى قيلة فى هذه البلاد ، لا والله ما لنا معهم إذا اجتمع ملأهم بها من قرار ، فأمر فتى شاباً من يهود كان معه فقال : اعمد إليهم واجلس معهم ثم ذكرهم يوم بعاث وما كان قبله ، وأنشدهم بعض ما كانوا تقاولوا به من

الأشعار ، وكان يوم بعاث يوماً اقتتلت فيه الأوس والخزرج فكان الظفر فيه للأوس على الخزرج، وكان على الأوس يومئذ حضير بن سماك أبو أسيد بن حضير، وعلى الخزرج عمرو بن النعمان البياضى فقتلا جميعاً) (١) .

(وفى الصحيح عن عائشة قالت : وكان يوم بعاث يوماً قدمه الله لرسوله ، فقدم رسول الله ﷺ المدينة وقد افترق ملأهم ، وقتلت سراتهم فى دخولهم فى الإسلام) (٢) . قال ابن إسحاق : (ففعل الفتى ، فتكلم القوم عند ذلك وتفاخروا حتى توائب رجلان من الحيين على الركب ـ أوس بن قيظى . . وجابر ابن صخر . . فتقاولا ، ثم قال أحدهما لصاحبه : إن شئتم رددناها جذعة ، فغضب الفريقان جميعاً وقالوا : قد فعلنا ، موعدكم الظاهرة ـ والظاهرة الحرة ـ السلاح السلاح ، فخرجوا إليها ، فبلغ ذلك رسول الله ﷺ ، فخرج إليهم فيمن معه من المهاجرين من أصحابه حتى جاءهم فقال :« يا معشر المسلمين، الله الله ، أبدعوى الجاهلية وأنا بين أظهركم بعد أن هداكم الله للإسلام وأكرمكم به وقطع عنكم الجاهلية ، واستنقذكم بها من الكفر وألف بين قلوبكم ؟ » فعرف القوم أنها نزغة من الشيطان وكيد من عدوهم ، فبكوا وعانق الرجال من الأوس والخزرج بعضهم بعضاً ، ثم انصرفوا مع رسول الله ﷺ سامعين مطيعين ، وقد أطفأ الله عنهم كيد عدو الله) (٣) .

(فأنزل الله فى شاس بن قيس وما صنع : ﴿ **قُلْ يا أَهْلَ الْكتاب لم تَكْفُرُون بآيَات اللّه واللّهُ شَهيدٌ علَىٰ ما تَعْملُون . قُلْ يا أَهْلَ الْكتاب لمَ تَصُدُّون عن سبيل اللّه منْ آمن تَبْغُونها عوجًا** ﴾ الآية [آل عمران : ٩٨ ، ٩٩] ، وأنزل الله تعالى فى أوس بن قيظى وجابر بن صخر ومن كان معهما من قومهما ﴿ **يا أَيُّها الَّذين آمنُوا إن تُطيعُوا فريقًا منَ الَّذين أُوتُوا الْكتَاب** ﴾ الآيات إلى قوله: ﴿ **ومَن يَعْتَصم باللّه فَقَدْ هُديَ إلَىٰ صراط مُسْتَقيم . يا أَيُّها الَّذين آمَنُوا اتَّقُوا اللّهَ حَقَّ تُقَاته ولا تَمُوتُنَّ إلاَّ وأَنْتُم مُسْلمُونَ** ﴾ إلى قوله تعالى : ﴿ **وأُولَٰئكَ لَهُمْ عَذابٌ عَظيمٌ** ﴾ [آل عمران : ١٠١ ـ ١٠٥])(٤) ، ولئن كان موقد نار الفتنة فى الحالة الأولى هم المشركون ، فموقدها الآن اليهود ، ولئن كانت من قبل على خطرها بين المسلمين والمشركين . فهى الآن أشد خطراً وأفدح خسارة،

---

(١) السيرة النبوية لابن هشام ١/ ٥٥٥ .

(٢) صحيح البخارى ٢/ ٥/ ٨٦ .

(٣) السيرة النبوية لابن هشام ١/ ٥٥٦ .

(٤) السيرة النبوية لابن هشام ١/ ٥٥٦ ، ٥٥٧ .

هى بين المؤمنين أنفسهم؛ ومن أجل ذلك فقد اختلفت المعالجة بين الحالتين:

الحالة الأولى : تذكير المشركين بالقرابة والنسب ، والأبوة والبنوة : « لقد بلغ وعيد قريش منكم المبالغ، ما كانت تكيدكم بأكثر مما تريدون أن تكيدوا به أنفسكم ، تريدون أن تقاتلوا أبناءكم وإخوانكم » . فلما سمعوا ذلك من النبى ﷺ تفرقوا .

الحالة الثانية : تذكير المسلمين برابطة العقيدة ؛ لأنها أقوى محرك للمسلم وتخويفه من الجاهلية : (« أبدعوى الجاهلية وأنا بين أظهركم بعد أن هداكم الله للإسلام واستنقذكم به من الكفر وألف بين قلوبكم . . . » ، فبكوا وعانق الرجال من الأوس والخزرج بعضهم بعضاً) . فلا غرابة أن تكون هذه المعالجة ضمن هذا المفهوم ، وتلك المعالجة ضمن ذلك المفهوم ، ورسول الله ﷺ هو صاحب المعالجة فى المرتين ، فأعطى لكل حالة ما يناسبها دون أن يكون هناك تناقض بين الحالتين .

ويذكرنا هذا الأمر بحرص العدو ـ وهو يعرف بعض الثغرات فى الصف الإسلامى ـ على تفتيت الصف من خلال هذه المعرفة . فإثارة الأحقاد والضغائن ، والخلافات السابقة هى محور تحرك العدو .

إن الأصل الذى يجب أن نفيء إليه جميعاً هو الشك فى العدو ، واتهامه ، لا تصديقه وتكذيب الإخوة المسؤولين، ونداء الله تعالى لنا واضح فى هذا الأمر: ﴿ **يا أيُّها الَّذين آمنُوا إن تُطيعُوا فَريقًا مِنَ الَّذينَ أُوتُوا الْكتَابَ يَرُدُّوكُم بَعْدَ إيمَانكُمْ كافرينَ** ﴾ وإذا كان صحابة رسول الله ﷺ ـ ورسول الله بين ظهرانيهم ـ قد تأثروا بنزعات الخلاف السابقة وهى حقيقية ، وأمكن أن يستجروا إلى حمل السلاح ضد بعضهم بعضاً وهم الجيل الخالد، خير قرون الأرض ، فلا عجب أن يُستجر المسلمون اليوم وهم فى الصف الإسلامى إلى بعض الخلافات الجانبية، وينزغ الشيطان بينهم ، ويسعى جاهداً ليفرق كلمتهم، لكن الأصل هو العودة إلى الكلمة الواحدة، والصف المتراص الواحد ، لا أن نعتبر صورة العدو عن الحركة الإسلامية هى الأصل .

إننا نقع فى خيانة يوم نصدق ما يشيعه عدونا عنا ـ حقاً أو باطلاً ـ وننطلق منه فى الحكم . لقد وصف الله تعالى المؤمنين بقوله : ﴿ **إنَّ الَّذين اتَّقَوْا إذا مَسَّهُمْ طَائفٌ مِّنَ الشَّيْطَان تَذَكَّرُوا فَإذَا هُم مُّبْصرُونَ . وَإخْوَانُهُمْ يَمُدُّونَهُمْ فِي الْغَيِّ ثُمَّ لا يُقْصرُونَ** ﴾ [الأعراف: ٢٠٠، ٢٠١]، والأولى والأجمل بشباب الحركة أن يسعوا مع إخوانهم

على إطفاء نار الفتنة لا على إيقادها، والفتنة نائمة لعن اللّه من أيقظها .

السمة الثامنة

العدو يتنكر لقيمه من أجل مصلحته

(ثم إن سعد بن معاذ انطلق إلى مكة معتمراً فنزل على أمية بن خلف بمكة فقال لأمية: انظر لى ساعة خلوة لعلى أن أطوف بالبيت ، فخرج به قريباً من لقف النهار ، فلقيهما أبو جهل فقال: يا أبا صفوان، من هذا معك؟ فقال: هذا سعد، فقال له أبو جهل: ألا أراك تطوف بمكة آمناً وقد آويتم الصباة ، وزعمتم أنكم تنصرونهم ، وتعينونهم، أما واللّه لولا أنك مع أبى صفوان ما رجعت إلى أهلك سالماً. فقال له سعد ورفع صوته عليه: أما واللّه لئن منعتنى هذا لأمنعنك ما هو أشد عليك منه ، طريقك على أهل المدينة)[1] .

لقد كانت المحاولة الأولى مع سعد بن عبادة حيث اعتقل فى مكة ، وأنقذه صاحباه جبير بن مطعم والحارث بن حرب ، وذلك عقب بيعة العقبة ، أما وقد هدأ الأمر ، وبيت الله لا يصد عنه أحد إذا جاء معظماً له ، فكانت المحاولة هذه من زعيم الأوس سعد بن معاذ، ونزل على صاحبه فى مكة أمية بن خلف ، وبذلك خطت قريش خطا جديداً لأول مرة فى تاريخ جيران الحرم وسدنته ، أن تصد عن بيت اللّه المسلمين أو تعتقلهم،فلقد اعتبرت نفسها فى حالة حرب معهم، وهذا يعنى أن المسلمين قد حيل بينهم وبين البيت الحرام فترة طويلة إلى أن يأذن اللّه تعالى بالفرج من عنده ، ويصبح عندهم شوكة قاهرة ترغم قريش على السماح لهم بتأدية نسكهم فيه ، والإشارة التى نفقهها من هذا الموقف هى أن الممارسة العملية لأعداء الله فى حربهم للإسلام والمسلمين تجعلهم يتناقضون مع أبسط المبادئ والأعراف التى يقوم عليها تفكيرهم ووجودهم ، فالأصل فى جيران بيت اللّه الحرام أن يؤدوا الخدمة للحجيج ، وبهذا الأمر كانوا يتنافسون ، وأعرق مفاخرهم ما يؤدونه للحجيج من سقاية ورفادة ، بل كانت تقوم المذابح والحروب للمحافظة على هذه المكارم ، ومع هذا فلا يجدون حرجاً من تهديد معتمر من

---

(١) صحيح البخارى ، كتاب المغازى ٢/ ٥ / ٢ ، ٣ .

المدينة بالاعتقال أو القتل .

وكان موقف سعد رضي الله عنه من القوة والنباهة ، ما أشار به إلى طاغوت مكة من أن شريان حياتهم بين المسلمين، وتجارتهم عن طريق المدينة إلى الشام ، فلن يسكت المسلمون عليهم أو يدعوهم يمروا ، لقد كان موقف القوة الأول من سعد زعيم الأوس وهو بين ظهراني قريش وأمام طاغوتها إيذاناً بتوتر كبير ، وإعلاناً بمرحلة جديدة ، وردا على تهديدات مكة للأنصار أن يتراجعوا عن إيوائهم لمحمد ﷺ .

لقد كان هذا أول احتكاك مباشر بين الفريقين في هذه المرحلة ، وكان صورة من صور العزم والمواجهة على استمرار أهل المدينة على موقفهم في نصرة محمد رسول الله ﷺ . وهذه الفكرة بالذات دعوة لشباب الإسلام أن يقولوا كلمة الحق بقوة حين لا يكون أمامهم مندوحة عن ذكرها ، ويكون ذكرها حرباً نفسية توهن قلوب الأعداء .

السمة التاسعة

الخطر على القيادة

روى مسلم في صحيحه عن عائشة رضي الله عنها قالت : (سهر رسول الله ﷺ مقدمة المدينة ليلة فقال : «ليت رجلاً صالحاً من أصحابي يحرسني الليلة » ، قالت : فبينما نحن كذلك سمعنا خشخشة سلاح ، فقال : « من هذا ؟ » قال : سعد بن أبي وقاص ، فقال له رسول الله ﷺ : « ما جاء بك ؟ » فقال : وقع في نفسي خوف على رسول الله ﷺ . فجئت أحرسه ، فدعا له رسول الله ﷺ ثم نام) (١) .

وروى الترمذي في صحيحه عن عائشة قولها : كان رسول الله ﷺ يحرس ليلاً حتى نزل : ﴿ **واللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ** ﴾ [المائدة : ٦٧] فأخرج رسول الله ﷺ رأسه من القبة فقال: « يا أيها الناس ،انصرفوا فقد عصمني الله عز وجل » (٢) .

لقد كان رسول الله ﷺ يدرك أبعاد المعركة ويدرك خطورة الموقف فلا يبيت إلا ساهراً، وكان يعلم أنه الهدف الأول من العدو ، فكان على يقظة وانتباه وحذر

(١) مسلم ، باب فضل سعد ٢/ ٢٨٠ .
(٢) الترمذي ، أبواب التفسير ٢/ ١٣٠ .

شديد ، وبخاصة فى الليل حيث يختلط الظلام ويتسلل الفُتَّاك لتنفيذ بغيتهم التى فاتتهم فى مكة ، بل أعلن عن رغبته فى الحراسة ، وكان هذا الشعور كامناً فى نفوس الجنود كذلك ، فسعد يده على سلاحه بدون أمرٍ من رسول اللّه ﷺ لعلمه بخطورة الموقف ، وصار هذا أمراً مقرراً عند المسلمين إلى أن نزل التطمين الربانى : ﴿ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ ﴾ ، فقال : « انصرفوا فقد عصمنى اللّه عز وجل » .

وهذا الأمر ولا شك خصوصية من خصوصيات النبى ﷺ ، فما دونه من خلق اللّه كافة ، لابد من حراسة ولابد أن يكونوا على أهبة الاستعداد لمواجهة أى طارئ ، وهم فى مستوى القيادة خاصة حين يكون العدو بين الصفوف ، فاليهود والمشركون يمكن أن يكون أحدهم مطية لنفسه أو لغيره فى تنفيذ عمليات الاغتيال ، والحركة الإسلامية التى فقدت كثيراً من قياداتها وقادتها عن طريق الاغتيال حَرِىّ بها ـ اقتداء بسنة النبى ﷺ ـ أن تتخذ من حراسة قادتها ما يجعلهم بمنجى من يد العدو . والعصمة لرسول اللّه ﷺ وحده . ويجب ألا ننسى أن ثلاثة من الخلفاء الراشدين من قادة أهل الأرض قد ذهبوا غيلة ، وهم قمم العدل والتقوى فى هذا الوجود : عمر بن الخطاب ، وعثمان بن عفان ، وعلى بن أبى طالب رضى الله عنهم جميعاً . فأن يعتمد القادة فى الحركة الإسلامية على عدلهم وصلاحهم وتقواهم هو أدعى للحراسة ؛ لأن العدو لا يطيق وجودهم . بل قد يتحرك الموتورون من الصف الإسلامى ضدهم فيقتلون بيدى أبناء الصف ، وما قتل على وعثمان رضى الله عنهما بسر .

السمة العاشرة

حالة الحرب ، وتجمع القوى كلها ضد المسلمين

(ولم يكن الخطر مقتصراً على رسول اللّه ﷺ بل على المسلمين كافة ، فقد روى أبى بن كعب قال : لما قدم رسول اللّه ﷺ وأصحابه المدينة ، وآوتهم الأنصار ، رمتهم العرب عن قوسٍ واحدة ، وكانوا لا يبيتون إلا بالسلاح ولا يصبحون إلا فيه) (١) . وهذه الظاهرة مهمة جدا أن يستوعبها شباب الحركة الإسلامية خاصة الذين يحملون السلاح ضد العدو لإسقاط أنظمة الكفر ، فالشىء الذى

(١) الرحيق المختوم ص ٢١٧ .

يسيطر على نفوس الشباب هو ساعة المعركة والحسم مع العدو ، وإسقاط النظام الكافر لإقامة دولة الإسلام على أنقاضه ، لكنهم يحسبون أن الأمر منته بهذه المعركة ، وبعد ذلك تدين قوى الأرض كلها وتخاف دولة الإسلام .

إن الأمر أبعد من ذلك بكثير ، وإن الحسم مع العدو لإقامة دولة الإسلام هو الخطوة الأولى على الطريق ، وهو المعركة الأولى فى تاريخ المعارك ، هو نقطة البدء ، ورسول الله ﷺ قد كانت معاركه كلها ؛ غزواته وسراياه بعد إقامة دولة الإسلام ، ولا يظهر تواطؤ أهل الأرض من الكفار والمشركين إلا بعد قيام دولة الإسلام، وإذا كانت الحركة الإسلامية بحاجة إلى أن تجند بعض طاقاتها قبل قيام دولة الإسلام، فهى بحاجة أشد إلى أن تجند كل طاقاتها وطاقات المسلمين فى مشارق الأرض ومغاربها لحماية دولة الإسلام .

وعندما قامت دولة الإسلام الأولى فى الأرض بقيادة الرسول ﷺ ، كان كل مسلم قد بلغ الخامسة عشرة من عمره جندياً فى المعركة ، وذلك بعد أن أُذن للمسلمين بالجهاد ولكن روعة هذه العقيدة وعظمة هذا الدين هى أن هذه الجندية كانت جندية اختيارية يتسابق فيها المسلمون إلى المعركة ، وإذا استثنينا المنافقين فلقد كانت كل طاقات المسلمين وشبابهم للمعركة . . . وعندما قامت دولة الإسلام اليوم فى الأرض رأينا تكالب قوى الشر الصليبية والصهيونية عليها تريد إنهاءها من الوجود ، وغزتها فى عقر دارها ، وأمدت المتمردين عليها بأحدث أنواع السلاح ؛ ولكن شباب الإسلام فى هذه الدولة الفتية ، قدَّموا أرواحهم وبذلوا دماءهم حتى دحروا هذا الهجوم الشرس .

لقد كان المسلمون فى أيامهم الأولى ، الأيام العصيبة التى تحمل نذر الهجوم على المدينة فى كل لحظة ، ينامون بالسلاح ويبيتون فيه ، ولقد وعدوا رسول الله ﷺ أن يحموه مما يحمون منه أزرُهم وأولادهم. وصدقوا ما عاهدوا الله عليه . والقيادة المسلمة لابد أن تعد للأمر حسابه ، فلا توهم شبابها أن نجاح المعركة الأولى من الحسم مع العدو ، يعنى انتهاء الجولة معه، إنما يعنى انتهاء جولة ، وحفز الهمة لابتداء الجولة الثانية، والجهاد ماضٍ إلى يوم القيامة ، والخيل معقود فى نواصيها الخير إلى يوم القيامة ، وعلى الحركة أن تعد الأهبة لمواجهة العدو ، والاستمرار فيها بما تحتاجه هذه المواجهة من سلاح ورجال ومال وعتاد .

السمة الحادية عشرة

إعلان الحرب على العدو

كما هو معروف فى فن الحرب أن الهجوم أقوى وسائل الدفاع ، وقريش مصممة على خوض المعركة مع الرسول ﷺ فلتكن المبادرة منه ، ومن أجل هذا كانت السنة الأولى كلها سنة هجوم على قوافل قريش ، فلقد جهز رسول اللّه ﷺ ثمانى سرايا ، وكانت لاعتراض عير قريش ما عدا واحدة كانت ردا على هجوم قام به كرز بن جابر الفهرى ، واستمرت هذه السرايا من رمضان ـ السنة الأولى للهجرة إلى رمضان فى السنة الثانية من الهجرة. وكان قادة هذه السرايا جميعها من المهاجرين ، وكان لهذا معنى خاص فى هذه الحرب ، فأصل العهد مع الأنصار هو حماية رسول اللّه ﷺ وصحبه فى المدينة . وهذه السرايا تعرض للقوافل خارج المدينة. هذا من جهة .

ومن جهة ثانية ، فلابد من تدريب شباب الدعوة على الحرب ، بعد أن أمروا بكف أيديهم خلال ثلاثة عشر عاماً من العهد المكى .

ومن جهة ثالثة ، فلابد أن تعرف قريش أن هؤلاء المهاجرين الفارين من اضطهادها فى مكة ليسوا موطن ضعف وهوان ،بل هم قوة مرهوبة ذات شوكة ، عليها أن تحسب ألف حساب لها قبل أن تفكر فى مواجهتهم .

ومن جهة رابعة،فعلى قريش أن تذوق وبال أمرها لموقفها المشين من الدعوة ، وأن تتجرع مرارة هذا الموقف ، فتعلم أن مصالحها وتجارتها صارت مهب الريح ، بعد أن سيطر المسلمون على شريان حياتها من خلال قوافلها إلى الشام ، حيث أصبحت رحلة الصيف عندها وخيمة العواقب .

والحركة الإسلامية اليوم التى تمضى جادة فى طريقها لإقامة دولة الإسلام، لابد لها فى حربها ضد الطاغوت الكافر من أن تقض مضجعه ، وتزعزع نظامه ، وتزلزل الأرض من تحته ، وتسعى جاهدة لاجتثاث جذوره ، فيكون ككلمة خبيثة اجتثت من فوق الأرض ما لها من قرار ، ولن يتأتى هذا لها ما لم تكن لها أرض آمنة تنطلق منها ، وتبث سراياها إليه فتوجعه فى موطن القوة عنده .

وهى مضطرة أحياناً للتفاهم مع بعض الأنظمة للهدنة معها والاستفادة منها كمركز انطلاق للمواجهة ، وشباب الدعوة المجاهدون فى هذه المرحلة هم الصفوة المختارة للمواجهة، وهم الوقود الأول للمعركة .

وإن الحركة الإسلامية لتفخر بقوافل الشهداء ، التى مضت قافلة إثر قافلة وسرية عقب سرية تضرب فى قلب العدو ، وتفخر بعظمة البطولات والتضحيات التى تحتسبها عند الله عز وجل ، وحين تذكر هذا الواقع ، إنما تذكره إيذاناً بإرغام أنف العدو وتبكيته ، ودعوة إلى الشباب أن ينضووا تحت اللواء لمتابعة المسيرة المباركة فى الحرب العوان مع العدو.

السمة الثانية عشرة

التميز الإسلامى قبيل المواجهة

إضافة إلى الميثاق الذى حدد إسلامية الدولة ، وأوضح أن المسلمين أمة من دون الناس، فلقد مر التميز الإسلامى فى مرحلتين :

المرحلة الأولى : مرحلة المجاملة لأهل الكتاب ، وكان الهدف الأكبر من هذه المجاملة هو تأليف قلوبهم ، ودعوتهم إلى الإسلام وهم أهل الكتاب الأول ، وكانوا يستفتحون برسول الله ﷺ على أهل المدينة من الأوس والخزرج . فكان يحرص عليه الصلاة والسلام على موافقتهم ومجاملتهم فى كثير من الأمور مما لا يمس أمور العقيدة ، وبخاصة فى قضية العادات الاجتماعية كما كان يحرص على موافقتهم فى أمور العبادات ، كما نعلم حين أمر المسلمين بالصيام فى عاشوراء قائلاً لليهود : « نحن أحق وأولى بموسى منكم » (١) .

المرحلة الثانية: وذلك حين أعلن اليهود حربهم العنيفة المشبوبة على المسلمين. فأصبح يحرص على مخالفتهم فى كل شىء ليكون للمسلمين تميزهم الكامل عنهم فى العادات واللباس والعبادات ، كى ينهى هذه القدسية التى كانت لهم فى نفوس المسلمين حين انحرفوا عن الحق ، وكفروا به : ﴿ **فَلَمَّا جَاءَهُم مَّا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ** ﴾ [البقرة : ٨٩] .

---

(١) متفق عليه ، وهو عند مسلم ٢/ ٧٩٥ ح ١٢٧ ـ ١٣٠ .

وقد وضح هذا التميز الإسلامى فى أكثر من جانب، وكانت هذه النقاط قد تم معظمها قبيل غزوة بدر ، وكان ذلك كله بأمر من اللّه تعالى ، واستجابة لرغبة نبيه الكريم فى هذه المفاصلة ، نذكر من هذه الأمور :

تغيير القبلة كما رواها البخارى فى صحيحه عن البراء بن عازب ﷺ قال : (كان رسول اللّه ﷺ صلى نحو بيت المقدس ستة عشر أو سبعة عشر شهراً ، وكان رسول اللّه ﷺ يحب أن يوجه إلى الكعبة، فأنزل اللّه: ﴿ **قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ...** ﴾ [البقرة : ١٤٤] ، فتوجه نحو الكعبة ، وقال السفهاء من الناس وهم اليهود : ﴿ **مَا وَلَّاهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ الَّتِي كَانُوا عَلَيْهَا قُل لِّلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ يَهْدِي مَن يَشَاءُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ** ﴾ [البقرة : ١٤٢] ، فصلى مع النبى ﷺ رجل ثم خرج بعد ما صلى فمرَّ على قوم من الأنصار فى صلاة العصر نحو بيت المقدس ، فقال: هو يشهد أنه صلى مع رسول اللّه ﷺ وأنه توجه نحو الكعبة ، فتحرف القوم حتى توجهوا نحو الكعبة) (١) . ويقال : صرفت فى الظهر من يوم الثلاثاء للنصف من شعبان سنة اثنتين فى منزل البراء بن معرور . . . قيل : صرفت فى صلاة الصبح (٢).

وكل الروايات لا تعدو بين رجب وشعبان من السنة الثانية على رأس ستة عشر شهراً أو سبعة عشر شهراً ، وكان لحدث تغيير القبلة دوى كبير فى المجتمع الإسلامى والمجتمع اليهودى على السواء ، أنهى كل نقاط الالتقاء بين الفريقين ، ولنعرف أثر هذا الموقف يكفى أن نعلم أن اللّه تعالى أنزل قرآناً يتلى فى هذا الأمر، حوالى عشر آيات . (وكان فى ذلك حكمة عظيمة ومحنة للناس مسلمهم وكافرهم. فأما المسلمون فقالوا : آمنا به كل من عند ربنا ـ وهم الذين هدى اللّه، ولم تكن بكبيرة عليهم ، وأما المشركون فقالوا : ما ولاهم عن قبلتهم التى كانوا عليها ؟ وأما المنافقون فقالوا : إن كانت القبلة الأولى حقا فقد تركها، وإن كانت الثانية هى الحق فقد كان على باطل) (٣) .

وكان رسول اللّه ﷺ لما قدم المدينة استقبل بيت المقدس ستة عشر شهراً قبلة اليهود ، وكان يحب أن يصرفه اللّه إلى الكعبة ، وقال لجبريل ذلك ، فقال : إنما

---

(١) البخارى ١/ ١/ ١١٠ . (٢) إمتاع الأسماع للمقريزى ١/ ٦٠ .

(٣) مختصر السيرة لمحمد بن عبد الوهاب ص ٩٢ .

أنا عبد . فادع ربك واسأله ، فجعل يقلب وجهه فى السماء يرجو ذلك حتى أنزل الله عليه : ﴿ **قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ** ﴾ . لقد تمت المفاصلة بين المسلمين واليهود ، وأصبح للمسلمين قبلتهم الخاصة بهم نحو المسجد الحرام ، ووجه هذا قلوب اليهود بالحقد والكيد ورد عليهم القرآن بقوله : ﴿ **سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ مَا وَلَّاهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ الَّتِي كَانُوا عَلَيْهَا قُل لِّلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ يَهْدِي مَن يَشَاءُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ** ﴾ [البقرة : ١٤٢] ، وكان هذا الأمر استجابة لرغبة نفسية عميقة فى قلب النبى ﷺ ، يوضح هذا المعنى قول الله جل شأنه : ﴿ **قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا** ﴾

[البقرة : ١٤٤]

وكان هذا إيذاناً كذلك باحتدام المعركة مع قريش ، فالمسجد الحرام قبلة المسلمين ،وهو تحت سيطرة قريش ، والوثنية ضاربة أطنابها فيه ولابد من تحريره ، وهكذا اتجهت أنظار المسلمين ثانية إليه ،وبنظرة جديدة ، تحمل كل معانى الإصرار علـى العودة إليه ، وتخليصه من براثـن الـوثنية ، ولم ينته الأمر فى شعبان ـ شهر التميز ـ عند هذا الحد ، فلقد جاء إضافة إلى التميز فى قبلة الصلاة ، التميز فى الصيام .

لقد كان يوم عاشوراء هو يوم صوم المسلمين ، ولعلهم صاموه عاماً على الأقل . وكان فريضة عليهم ، وإذا بالآيات تترى لتؤكد تميز المسلمين فى صومهم كذلك ، وإن كان الأصل فى الصيام واحداً عند المؤمنين فى الأرض : ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ . أَيَّامًا مَّعْدُودَاتٍ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ فَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُ وَأَن تَصُومُوا خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ** ﴾ [البقرة: ١٨٣، ١٨٤].

وإن كانت هاتان الآيتان لا تتحدثان عن الاستقلال والتميز فى شهر الصيام ، فالآية التالية تؤكد هذا المعنى : ﴿ **شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِّنَ الْهُدَىٰ وَالْفُرْقَانِ فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ** ... ﴾ [البقرة : ١٨٥] .

فلقد أصبح رمضان منذ ذلك الوقت شهر الصيام الإسلامى ، وإن كان أصل الصيام قائماً بين المؤمنين ، كما وأن أصل الصلاة قائم ومشترك بين المؤمنين، لكن تميز القبلة يعنى انفصالاً فى الشعائر وتحديداً للهوية الإسلامية :

﴿ وَلَئِنْ أَتَيْتَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ بِكُلِّ آيَةٍ مَّا تَبِعُوا قِبْلَتَكَ وَمَا أَنتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتَهُمْ وَمَا بَعْضُهُم بِتَابِعٍ قِبْلَةَ بَعْضٍ ﴾ .

لقد انتهى عهد المجاملة والمسايرة على أمل الدخول فى هذا الدين، وأعلنوا حربهم على اللّه تعالى وعلى رسوله وكفروا به وبالكتاب الذى أنزل مصدقاً لما معهم. فلا مجال بعد الآن للمسايرة معهم : ﴿ وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُم مِّنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ إِنَّكَ إِذًا لَّمِنَ الظَّالِمِينَ ﴾ [البقرة :١٤٥] .

وكما كان التميز فى قبلة الصلاة ، وكان التميز فى شهر الصيام ، فلقد كان التميز كذلك فى فريضة الزكاة ، فقد كانت الزكاة والصدقات عامة لدى المؤمنين فى الأرض ؛ لكنها تتخذ الآن لدى المسلمين تحديداً آخر ، فلقد حددت زكاة الفطر بنصاب معين ، كما نزلت أنصبة الزكاة بشكل محدد وواضح لا لبس فيه .

وهكذا نرى التميز فى الصلاة والزكاة والصيام ، وكان هذا إيذاناً بتحديد أن المسلمين أمة من دون الناس، وأن اليهود قد كفروا بالحق الذى جاء من عند الله ، وكانت هذه الأمور الحاسمة الخطيرة فى شهر شعبان ، إيذاناً كذلك ، بالتميز الإيجابى ، وإرهاصاً لغزوة بدر الكبرى التى سماها اللّه تعالى فرقاناً. كما سمى كتابه الفرقان، وهذه الأحكام الشرعية التى نزلت قبيل بدر ، وكانت بمثابة تمهيد لها تعطينا دروساً هامة تستفيد منها الحركة الإسلامية.

إن على الحركة الإسلامية أن تؤكد على هذا التميز وهذه المفاصلة ، وتربى شباب الدعوة على هذا الوضوح وهذا الاستقلال عن الآخرين .

لقد رأينا الحركة الإسلامية فى بعض الأقطار قد انتشرت فى صفوفها الأناشيد الإسلامية التى ملأت كل بيت مسلم ، وأصبحت عوضاً عن الإذاعة والتلفاز . وأصبحت فى لحنها الإسلامى تربى هذا الجيل على التميز وتذكره بالجهاد وتدعوه إلى العمل لدولة الإسلام فى الأرض ، وأصبح الدعاة إلى اللّه فى تلقفهم لهذا الأدب الإسلامى الجهادى ، وفى تداولهم لتسجيلاته ، يمثلون هذا التميز وهذه الأصالة التى تجعلهم يختلفون عن عامة الناس الذين يعيشون بقيم الجاهلية وأفكارها فى الإذاعة والصحف والمجلات . لقد أخذ الأدب الإسلامى طريقه إلى قلوب الدعاة ، فأشعل فيهم لهيب المعركة ، وحدد لهم مواصفاتها وبث فيهم روح الجهاد فى سبيل اللّه .

السمة الثالثة عشرة

المواجهة الحاسمة فى بدر ، والفرقان فيها

يحدثنا الشهيد سيد قطب ـ رحمه الله تعالى ـ عن الفرقان ببدر فيقول : (ثم نقف كذلك أمام وصف الله ـ سبحانه ـ ليوم بدر بأنه يوم الفرقان ﴿ **إن كُنتُمْ آمنتُم بالله وما أنزلْنا عَلىٰ عَبْدِنَا يَوْمَ الْفُرْقَانِ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ** ﴾ [الأنفال : ٤١] .

لقد كانت غزوة بدر ـ التى بدأت وانتهت بتدبير الله وتوجيهه وقيادته ومدده فرقاناً بين الحق والباطل ـ كما يقول المفسرون إجمالاً ـ وفرقاناً بمعنى أشمل وأدق وأوسع وأعمق كثيراً.

كانت فرقاناً بين الحق والباطل فعلاً . . . ولكنه الحق الأصيل الذى قامت عليه السموات والأرض،وقامت عليه فطرة الأحياء والأشياء . . . الحق الذى يتمثل فى تفرد الله ـ سبحانه ـ بالألوهية والسلطان والتدبير والتقدير ، وفى عبودية الكون كله سمائه وأرضه ، أشيائه وأحيائه، لهذه الألوهية المتفردة ولهذا السلطان المتوحد ، ولهذا التدبير وهذا التقرير بلا معقب ولا شريك . . والباطل الزائف الطارئ الذى كان يعم وجه الأرض إذ ذاك ، ويغشى على ذلك الحق الأصيل ، ويقيم فى الأرض طواغيت تتصرف فى حياة عباد الله بما تشاء ، وأهواء تصرف أمر الحياة والأحياء ! فهذا الفرقان الكبير الذى تم يوم بدر ، حيث فرق بين ذلك الحق الكبير ، وهذا الباطل الطاغى ، وزيل بينهما فلم يعودا يلتبسان !

لقد كانت فرقاناً بين الحق والباطل بهذا المدلول الشامل الواسع الدقيق العميق، على أبعاد وآماد . . كانت فرقاناً بين هذا الحق وهذا الباطل فى أعماق الضمير . . فرقاناً بين الوحدانية المجردة المطلقة بكل شعبها فى الضمير والشعور ، وفى الخلق والسلوك ، وفى العبادة والعبودية ، وبين الشرك فى كل صوره التى تشمل عبودية الضمير لغير الله من الأشخاص والأهواء والقيم والأوضاع والتقاليد والعادات .

وكانت فرقاناً بين هذا الحق وهذا الباطل فى الواقع الظاهر كذلك . . فرقاناً بين العبودية الواقعية للأشخاص والأهواء ، وللقيم والأوضاع ، وللشرائع

والقوانين ، وللتقاليد والعادات . . وبين الرجوع فى هذا كله لله الواحد الذى لا إله غيره، ولا متسلط سواه، ولا حاكم من دونه،ولا مشرع إلا إياه . . فارتفعت الهامات لا تنحنى لغير الله،وتساوت الرؤوس فلا تخضع إلا لحاكميته وشرعه ، وتحررت القطعان البشرية التى كانت مستعبدة للطغاة .

وكانت فرقاناً بين عهدين فى تاريخ الحركة الإسلامية : عهد المصابرة والصبر والتجمع والانتظار، وعهد القوة والحركة والمبادأة والاندفاع . . والإسلام بوصفه تصوراً جديداً للحياة، ومنهجاً جديداً للوجود الإنسانى ، ونظاماً جديداً للمجتمع، وشكلاً جديداً للدولة ، بوصفه إعلاناً عاماً لتحرير الإنسان فى الأرض بتقرير ألوهية الله وحده وحاكميته ، ومطاردة الطواغيت التى تغتصب ألوهيته وحاكميته . . الإسلام بوصفه هذا لم يكن له بد من القوة والحركة والمبادأة والاندفاع ؛ لأنه لم يكن يملك أن يقف كامناً منتظراً على طول الأمد ، لم يكن يستطيع أن يظل عقيدة مجردة فى نفوس أصحابه ، تتمثل فى شعائر تعبدية لله ، وفى أخلاق سلوكية فيما بينهم ، ولم يكن له بد أن يندفع إلى تحقيق التصور الجديد ، والمنهج الجديد ، والدولة الجديدة ، والمجتمع الجديد ، فى واقع الحياة، وأن يزيل من طريقها العوائق المادية التى تكبتها وتحول بينها وبين التطبيق الواقعى فى حياة المسلمين أولاً ، ثم فى حياة البشرية كلها أخيراً . . وهى لهذا التطبيق الواقعى جاءت من عند الله .

وكانت فرقاناً بين عهدين فى تاريخ البشرية ، فالبشرية بمجموعها قبل قيام النظام الإسلامى هى غير البشرية بمجموعها بعد قيام هذا النظام . . هذا التصور الجديد الذى انبثق منه هذا النظام ، وهذا النظام الجديد الذى انبثق من هذا التصور . وهذا المجتمع الوليد الذى يمثل ميلاداً جديداً للإنسان ، وهذه القيم التى تقوم عليها الحياة كلها ويقوم عليها النظام الاجتماعى والتشريع القانونى على السواء، هذا كله لم يعد ملكاً للمسلمين وحدهم منذ غزوة بدر. وتوكيد وجود المجتمع الجديد ، إنما صار ـ شيئاً فشيئاً ـ ملكاً للبشرية كلها ، تأثرت به سواءً فى دار الإسلام أو خارجها ، سواء بصداقة الإسلام أم بعداوته ! والصليبيون الذين زحفوا من الغرب ليحاربوا الإسلام ويقضوا عليه فى ربوعه قد تأثروا بتقاليد هذا المجتمع الإسلامى الذى جاؤوا ليحطموه ، وعادوا إلى بلادهم ليحطموا النظام

الإقطاعى الذى كان سائداً عندهم ، بعدما شاهدوا بقايا النظام الاجتماعى الإسلامى ! والتتار الذين زحفوا من الشرق ليحاربوا الإسلام ويقضوا عليه ـ بإيحاء من اليهود والصليبيين من أهل دار الإسلام ـ قد تأثروا بالعقيدة الإسلامية فى النهاية ، وحملوها لينشروها فى رقعة من الأرض جديدة ، وليقيموا عليها خلافة ظلت من القرن الخامس عشر إلى القرن العشرين فى قلب أوروبا . . وعلى أية حال فالتاريخ البشرى كله ـ منذ وقعة بدر ـ متأثر بهذا الفرقان فى أرض الإسلام ، أو فى الأرض التى تناهض الإسلام على السواء .

وكانت فرقاناً بين تصورين لعوامل النصر وعوامل الهزيمة ، فجرت ـ وكل عوامل النصر الظاهرية فى صف المشركين ، وكل عوامل الهزيمة الظاهرية فى صف العصبة المؤمنة، حتى لقال المنافقون والذين فى قلوبهم مرض : غر هؤلاء دينهم ، وقد أراد الله أن تجرى المعركة على هذا النحو، وهى المعركة الأولى بين الكثرة المشركة والقلة المؤمنة ـ لتكون فرقاناً بين تصورين وتقديرين لأسباب النصر والهزيمة، ولتنتصر العقيدة القوية على الكثرة العددية وعلى الزاد والعتاد ، فتبين للناس أن النصر للعقيدة الصالحة القوية ، لا لمجرد السلاح والعتاد ، وأن أصحاب العقيدة الحقة عليهم أن يجاهدوا ويخوضوا غمار المعركة مع الباطل غير منتظرين حتى تتساوى القوى المادية الظاهرية ؛ لأنهم يملكون قوة أخرى ترجح الكفة ، وأن هذا ليس كلاماً يقال ، إنما هو واقع متحقق للعيان .

وأخيراً ، فلقد كانت بدر فرقاناً بين الحق والباطل بمدلول آخر ، ذلك المدلول الذى يوحى به قول الله تعالى فى أوائل هذه السورة : ﴿ **وإذ يعدكم الله إحدى الطائفتين أنها لكم وتودون أن غير ذات الشوكة تكون لكم ويريد الله أن يحق الحق بكلماته ويقطع دابر الكافرين . ليحق الحق ويبطل الباطل ولو كره المجرمون** ﴾ [الأنفال : ٧، ٨] ، لقد كان الذين خرجوا للمعركة من المسلمين ، إنما خرجوا يريدون عير أبى سفيان واغتنام القافلة ، فأراد الله لهم غير ما أرادوا ، أراد لهم أن تفلت منهم قافلة أبى سفيان (غير ذات الشوكة) وأن يلاقوا نفير أبى جهل (ذات الشوكة) وأن تكون معركة وقتال وقتل وأسر ، ولا تكون قافلة وغنيمة ورحلة مريحة! وقد قال الله ـ سبحانه ـ إنه صنع هذا : ﴿ **ليحق الحق ويبطل الباطل** ﴾ .

وكانت هذه إشارة لتقرير حقيقة كبيرة . إن الحق لا يحق ، وإن الباطل

لا يبطل ـ فى المجتمع الإنسانى ـ بمجرد البيان النظرى للحق والباطل ، ولا بمجرد الاعتقاد النظرى بأن هذا حق وهذا باطل . إن الحق لا يحق ، وإن الباطل لا يبطل ولا يذهب من دنيا الناس ، إلا بأن يتحطم سلطان الباطل ويعلو سلطان الحق ، وذلك لا يتم إلا بأن يغلب جند الحق ويظهروا ، ويهزم جند الباطل ويندحروا . فهذا الدين منهج حركى واقعى ، لا مجرد نظرية للمعرفة والجدل ! أو لمجرد الاعتقاد السلبى !

ولقد حق الحق وبطل الباطل بالموقعة ؛ وكان هذا النصر العملى فرقاناً واقعياً بين الحق والباطل بهذ الاعتبار الذى أشار إليه قول اللّه تعالى فى معرض بيان إرادته ـ سبحانه ـ من وراء المعركة ، ومن وراء إخراج الرسول ﷺ من بيته بالحق، ومن وراء إفلات القافلة ﴿ غَيْرَ ذَاتِ الشَّوْكَةِ ﴾ ولقاء الفئة ذات الشوكة .

ولقد كان هذا كله فرقاناً بين منهج هذا الدين ذاته، تتضح به طبيعة هذا المنهج وحقيقته فى حس المسلمين أنفسهم . . . وإنه لفرقان ندرك اليوم ضرورته ؛ حينما ننظر إلى ما أصاب مفهومات هذا الدين من تميع فى نفوس من يسمون أنفسهم مسلمين! حتى ليصل هذا التميع إلى مفهومات بعض من يقومون بدعوة الناس إلى هذا الدين ! وهكذا كان يوم بدر ﴿ يَوْمَ الْفُرْقَانِ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ ﴾ بهذه المدلولات المنوعة الشاملة العميقة . . . واللّه على كل شىء قدير . وفى هذا اليوم مثل من قدرته كل شىء . . . مثل لا يجادل فيه مجادل ، ولا يمارى فيه ممار . . . مثل من الواقع المشهود ، الذى لا سبيل إلى تفسيره إلا بقدرة اللّه وأن اللّه على كل شىء قدير) (١) .

وكانت بدر من حيث أثرها الخطير ، ظاهرة كونية ، فقد احتفل بها الإنس والجن والملائكة . ففى عالم الأرض وعالم البشر نذكر أن سورة الروم عندما نزلت كانت تمثل آمال وطموحات عشرات المسلمين فى مكة بأن ينتصر الروم أهل الكتاب فى الأرض على الفرس الوثنيين فى الأرض ، حيث كان الفرس والروم يقتسمون الأرض آنئذ ، وكان هؤلاء العشرات من المسلمين والمئات من المشركين غفلاً من التاريخ وأحداثه يتفرجون على صناعة الكبار فى الأرض ، ونذكر كيف تم الرهان بين أبى بكر رضي الله عنه وأحد المشركين على نصر الروم بعد بضع سنوات

(١) فى ظلال القرآن ، المجلد الثالث ص ١٥٢١ ـ ١٥٢٤ .

﴿الٓمٓ . غُلِبَتِ الرُّومُ . فِي أَدْنَى الأَرْضِ وَهُم مِّن بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ . فِي بِضْعِ سِنِينَ لِلَّهِ الأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِن بَعْدُ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ . بِنَصْرِ اللَّهِ يَنصُرُ مَن يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ . وَعْدَ اللَّهِ لا يُخْلِفُ اللَّهُ وَعْدَهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ . يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ﴾ [الروم : ١ ـ ٧] . لقد كان أقصى ما يحلم به المسلمون آنذاك بعد بضع سنين أن ينتصر الروم على الفرس ، وبذلك تقوى شوكة المسلمين إن انتصر أهل الكتاب الأقرب إلى المسلمين على الفرس الأقرب إلى المشركين .

وتحقق موعود الله جل شأنه فانتصر الروم بعد تسع سنين من هزيمتهم أمام الفرس ، وفرح المؤمنون بنصر الله ، وكان وعد الله الذى لا يخلف ، ولكن أكثر الناس لا يعلمون ، هذا هو المدى الأقرب للآيات ، أما المدى الأعمق فكان أكبر وأضخم فى تاريخ البشرية ، لقد فرح المؤمنون بنصر الله يوم بدر، ويوم نصرهم جاءت أخبار انتصار الروم على الفرس، لقد جاء خبر انتصار الروم هامشياً وثانوياً أمام انتصار بدر ، وكان فرح المؤمنين بنصر الله فى بدر هو المدلول الأعمق للآية الكريمة ، ولم يكن يدور بخلد عشرات المؤمنين فى الأرض والآيات تنزل فى مكة أنهم هم المعنون فى النصر ، وأنهم هم صناع الأحداث ، وأن الروم والفرس غدوا على هامش التاريخ بعد أن أنزل الله تعالى ملائكته لنصر المؤمنين فى بدر ، وكان وعد الله الذى لا يخلف هو نصر محمد وحزبه لا نصر الروم فقط، ولكن أكثر الناس لا يعلمون حتى المؤمنون لا يحيطون بعلم الله عز وجل ، وماذا يعد لهم من نصر ، وماذا يعد بهم من حسم : ﴿كَمَا أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِن بَيْتِكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ لَكَارِهُونَ . يُجَادِلُونَكَ فِي الْحَقِّ بَعْدَ مَا تَبَيَّنَ كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى الْمَوْتِ وَهُمْ يَنظُرُونَ . وَإِذْ يَعِدُكُمُ اللَّهُ إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ الشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ وَيُرِيدُ اللَّهُ أَن يُحِقَّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَيَقْطَعَ دَابِرَ الْكَافِرِينَ . لِيُحِقَّ الْحَقَّ وَيُبْطِلَ الْبَاطِلَ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ﴾ [الأنفال : ٥ ـ ٨] .

فالمسلمون حتى قبل بدر بأيام قلائل لم يكونوا يعلمون أنهم المعنون بنصر الله ينصر من يشاء،وعد الله لا يخلف الله وعده،ورسول الله ﷺ سيد الخلق لم يكن يعلم أنه المقصود بنصر الله ينصر من يشاء ، ومن أجل هذا كان يلح على ربه بالنصر يوم بدر حتى ليسقط رداؤه عن كتفيه ، ويخشى أن تكون هذه المعركة نهاية العصبة المؤمنة فى الأرض . « اللهم إن تهلك هذه العصابة فلن تعبد فى

الأرض » . لقد كان الرهان فى عالم الأرض على افتتاح التاريخ بهذا النصر من أى الفريقين ، فلقد كان أبو جهل يقول: والله لن نرجع حتى نرد بدراً ، فننحر الجزر ، ونشرب الخمر ، وتعزف علينا القيان ، ويعلم العرب بخروجنا هذا فلا يزالون يهابوننا أبداً .

فلقد كانت مطامح أبى جهل أن يكون مقود العرب بيده بعد بدر، ولا تزال تهابه أبداً، وكان رسول الله ﷺ يقول : « اللهم إن تهلك هذه العصابة فلن تعبد فى الأرض » ، وإذا بنصر الله يتنزل فتنقلب الموازين ، ويتأرجح التاريخ ، ويصبح مقوده بيد المسلمين ومن ذلك الوقت لم يعودوا على هامش الأحداث يأملون ويدعون كما كانوا أيام انتصار الفرس على الروم،بل صاروا صناع أحداثه، فى بدر وبعدها ، وجاء هذا النصر من الحسم ومن الضخامة بحيث اجتث الباطل من جذوره . فلقد سقط قادة الكفر صرعى فى هذه المعركة وهم الذين كانوا يحملون عبء الحرب ضد الدعوة خمسة عشر عاماً أو تزيد ، إنه جيل قادة كامل سقط على الساحة صريعاً بين يدى هذه العصبة المؤمنة .

أما الجيل الجديد من القادة ، والذى نجا يوم بدر فمعظمه كتب الله تعالى له الهداية فيما بعد . وها نحن نستعرض هؤلاء القادة بشكل سريع : أبو جهل بن هشام المخزومى ، وعتبة وشيبة ابنا ربيعة الأمويان ، وأمية بن خلف الجمحى ، وتبعهم بعدها : النضر بن الحارث العبدرى، وعقبة بن أبى معيط الأموى، وأبو لهب الهاشمى،ونبيه ومنبه ابنا الحجاج السهميان ، وقد عدد المقريزى أعداء رسول الله ﷺ الكبار فى إمتاع الأسماع فكانوا سبعة وعشرين رجلاً قتل منهم فى بدر وبعدها بقليل قرابة العشرين . (وعن أبى طلحة أن نبى الله ﷺ أمر يوم بدر بأربعة وعشرين رجلاً من صناديد قريش،فقذفوا فى طَوِى[1] من أطواء بدر خبيث مخبث)[2] . وكان من فضل الله تعالى على المؤمنين أن سقط بعض هؤلاء الأبطال صرعى بيد الشباب من الأنصار . مثل مقتل أبى جهل وأمية بن خلف ، وعلى يد المستضعفين من المسلمين أمثال بلال وعبد الله بن مسعود تحقيقاً لموعود الله عز وجل :

﴿ ونُرِيدُ أَن نَّمُنَّ على الَّذينَ اسْتُضْعِفُوا في الأَرْض ونَجْعَلَهُمْ أَئمَّةً ونَجْعَلَهُمُ الْوارثين .

(١) الطوى : البئر .
(٢) البخارى ٢/ ٥/ ٩٦ .

ونُمكن لهُم في الأرض ونُري فرعون وهامان وجنودهما منهم ما كانوا يحذرون ﴾ [القصص : ٥ ، ٦] ، فلقد سقط فرعون الأمة أبو جهل صريعاً . وأخزاه الله على يد رويعى الغنم عبد الله بن مسعود، وكانت بدر فى عالم الأرض عرساً للمؤمنين .

وكذلك كانت فى عالم الجن .

فقد ذكر قاسم بن ثابت فى « كتاب الدلائل » أن قريشاً حين توجهت إلى بدر مر هاتف من الجن على مكة فى اليوم الذى أوقع بهم المسلمون وهو ينشد بأنفذ صوت ولا يرى شخصه :

أزار الحنيفيون بدراً وقيعة ... سينقضُّ منها ركن كسرى وقيصرا

أبادت رجالاً من لؤى وأبرزت ... خرائد يضربن الترائب حُسَّرا

فيا ويح من أمسى عدو محمدٍ ... لقد جار عن قصد الهدى وتحيرا[1]

ولقد أدرك المؤمنون من الجن أبعاد هذه المعركة وأنها ستطيح بعرش كسرى وقيصر ، وبمقدار ما كان العرس فى عالم الجن من المؤمنين بمقدار ما كان المأتم والويل والثبور عند كفار الجن وشياطينهم .

فلقد حدثنا مؤرخو السير عن اشتراك إبليس لعنه الله فى التخطيط لبدر وفى آماله العراض بهزيمة محمد ﷺ ، وكيف كان دوره فى دفع قريش دفعاً إلى المواجهة حين خافت من أن تغزوها بنو كنانة . فجاءهم على صورة سراقة بن مالك قائلاً : أنا جار لكم من بنى كنانة أن يأتوكم بشىء تكرهونه ، وجاء حليفاً لقريش ووضع يده بيد أبى جهل ، وأخيه الحارث بن هشام ، فلما رأى ما يفعل الملائكة بالمشركين فر ونكص على عقبيه ، وتشبث به الحارث بن هشام ـ وهو يظنه سراقة ـ فوكز فى صدر الحارث فألقاه ،ثم خرج هارباً ، وقال له المشركون : إلى أين يا سراقة ؟ ألم تكن قلت : إنك جار لنا ، لا تفارقنا ؟ فقال : إنى أرى ما لا ترون إنى أخاف الله والله شديد العقاب ، ثم فر حتى ألقى نفسه فى البحر .

وذكر القرآن الكريم هذا الحادث فى قوله عز وجل : ﴿ وإذْ زيّنَ لهُمُ الشّيطانُ

(١) إمتاع الأسماع للمقريزى ١/ ٧٢ .

أعمالهم وقال لا غالب لكُمُ اليَوْمَ مِنَ النَّاسِ وإنِّي جارٌ لَكُمْ فلمّا تَراءَتِ الْفِئتانِ نكص على عقبيه وقَالَ إنِّي بَرِيءٌ مِنكُمْ إنِّي أرى ما لا ترَوْنَ إنِّي أخافُ اللَّهَ واللَّهُ شَديدُ الْعِقاب ﴾ [الأنفال: ٤٨].

وحدثنا رسول الله ﷺ عن خزى إبليس يوم بدر فقال : « ما رؤى الشيطان يوماً فيه أصغر ولا أدحر ، ولا أحقر ، ولا أغيظ منه فى يوم عرفة ، وما ذاك إلا لما يرى فيه من تنزل الرحمة ، وتجاوز الله عن الذنوب العظام ، إلا ما رأى يوم بدر ، فإنه رأى جبريل عليه السلام يزع الملائكة » (١) .

لقد انحدر الشيطان وحزبه من الإنس والجن يوم بدر ، وكانت الهزيمة الساحقة للشياطين فى الأرض والكفار من الجن أشد هولاً وأقسى مرارة منها على كفار قريش، بشهادة رسول الله ﷺ ـ كما علمه من ربه ـ فلقد كانت أقسى هزيمة لإبليس على مدار تاريخه منذ خلقه إلى يوم يبعثون ، فهو فى أشنع هزائمه فى كل سنة فى عرفة حين تحبط مخططاته ، ولكن هذا كله كان يهون عن هزيمة بدر حيث خطط لنصر حلفائه ، فسقط مع حلفائه ، حين جاء جبريل بنصر الله ، وكانت عرساً فى عالم الملائكة والملأ الأعلى ، فلأول مرة يؤذن للملائكة ، ولأميرهم جبريل عليه السلام أن يشترك مع ألف من سادة الملائكة فى المعركة : ﴿ إذْ تَستَغيثُونَ ربَّكُمْ فاستَجابَ لَكُمْ أنِّي مُمِدُّكُم بِألْفٍ مِنَ الْمَلائكَةِ مُرْدِفينَ . وما جَعَلَهُ اللَّهُ إلاَّ بُشْرى ولتَطْمَئنَّ به قُلُوبُكُمْ وما النَّصْرُ إلاَّ منْ عند اللَّه إنَّ اللَّهَ عَزيزٌ حَكيمٌ ﴾ [الأنفال: ٩ ، ١٠] ، واللّه تعالى أصدر أوامره وتعليماته لهم بدخول المعركة السافرة : ﴿ إذْ يُوحي ربُّك إلى الْملائكة أنِّي معَكُمْ فثبِّتُوا الَّذينَ آمَنُوا سأُلْقي في قُلُوب الَّذينَ كفَرُوا الرُّعْبَ فاضْرِبُوا فوْقَ الأعْناق واضْرِبُوا منْهُمْ كُلَّ بَنان . ذلكَ بأنَّهُمْ شاقُّوا اللَّهَ ورَسُولَهُ ومَن يُشاقِقِ اللَّهَ ورَسُولَهُ فإنَّ اللَّه شديدُ الْعقاب . ذلكُمْ فَذُوقُوهُ وأنَّ للْكافرينَ عَذابَ النَّار ﴾ [الأنفال : ١٢ ـ ١٤] .

وكانت فرحة الملائكة كبيرة بهزيمة المشركين ، من الذين لم يحضروا المعركة وارتفعت إليهم أرواح مجرمى قريش : ﴿ ولَوْ تَرى إذْ يتوفَّى الَّذينَ كَفَرُوا الْملائكَةُ يضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وأدْبارَهُمْ وذُوقُوا عَذابَ الْحَريقِ . ذلكَ بما قَدَّمَتْ أيْديكُمْ وأنَّ اللَّه ليْسَ بظَلاَّمٍ للْعَبيد ﴾ [الأنفال : ٥٠ ، ٥١] ، وبقى الملائكة الذين شهدوا بدراً فى الفضل من سادة الملائكة ، فكما أن المؤمنين فى الأرض على مدار التاريخ يعتبرون

---

(١) رواه مالك مرسلاً والبيهقى .

من شهد بدراً من المؤمنين أعلى طبقة فيهم، ويعتبرونهم خير هذه الأمة . فكذلك الأمر فيمن شهدها من الملائكة .

فعن رفاعة بن رافع الزرقى قال: (جاء جبريل إلى النبى ﷺ فقال: ما تعدون أهل بدر فيكم ؟ قال : « من أفضل المسلمين » ـ أو كلمة نحوها ـ قال : وكذلك من شهد بدرًا من الملائكة) (١) . وهكذا مضت بدر مثلاً فى تاريخ الأرض والسماء ، وفرقاناً فى عالم الإنس والجن والملائكة .

السمة الرابعة عشرة
معسكر المنافقين (بروزه وخطره وتحجيمه)

أ ـ النفاق فى مكة :

لم يكن للمنافقين دور يذكر فى العهد المكى ؛ لأنه عهد ابتلاء وفتنة وتمحيص، غير أن القرآن الكريم ذكرهم مرة واحدة قبيل بدر فى قوله جل وعلا : ﴿ إِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ غَرَّ هَؤُلَاءِ دِينُهُمْ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ [الأنفال : ٤٩] .

يقول الشهيد سيد قطب ـ رحمه الله ـ بصدد هذه الآية : (والمنافقون والذين فى قلوبهم مرض قيل : إنهم مجموعة من الذين مالوا إلى الإسلام فى مكة ، ولكن لم تصح عقيدتهم ولم تطمئن قلوبهم، خرجوا مع النفير مزعزعين ، فلما رأوا قلة المسلمين وكثرة المشركين قالوا هذه المقالة) (٢) .

ب ـ بداية التجمع :

وعند دخول رسول الله ﷺ المدينة وإلى غزوة بدر لم يكن النفاق قد نجم بعد. فلقد كان معسكر الشرك واضحاً بزعامة عبد الله بن أبى نفسه ، والذى كانت الجرأة تصل به إلى أن يطالب محمداً ﷺ بالكف عن الدعوة إلى الله، وكان معسكر اليهود واضحاً كذلك ، اللهم إلا أفراداً من اليهود قاموا بمهمة الجاسوسية فى الصف المسلم يتظاهرون بالإسلام ويبطنون الكفر ، وقد ذكر القرآن هذا

---

(١) صحيح البخارى ٢/ ٥/ ١٠٣ .

(٢) الظلال ص ١٥٣٢ . ط دار الشروق .

النموذج بقوله : ﴿ وَقَالَت طَّائِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ آمِنُوا بِالَّذِي أُنزِلَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَجْهَ النَّهَارِ وَاكْفُرُوا آخِرَهُ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾ [آل عمران : ٧٢] .

ونستطيع أن نقول إذن : إن معسكر المنافقين لم يبرز حتى بدر ، ووجود أفراد محددين لا يصل خطره إلى أن يطلق عليه اسم معسكر أو تجمع ، إنما برز بعد الانتصار الحاسم فى بدر ، وكما نقل على لسان هؤلاء المشركين : إن هذا أمر قد توجه ، واستطاعت الموجة الطاغية من الانتصارات ـ والتى ظهرت على صورة معجزة من السماء ـ أن تكتسح معسكر المشركين وتحوله إلى معسكر منافقين ، ولا ننفى أن يكون بعض أفراده قد أسلم حقيقة ودخل الإيمان قلبه ، أما أكثر هؤلاء فقد تحولوا إلى منافقين يأتمرون بأمر عبد اللّه بن أبى الذى كان الخزرج يعقدون له الخرز ليتوجوه ، وكانت عقدة الزعامة والمنصب تأكل قلبه. فلم يعد قادراً على أن يواجه الرسول ﷺ بعداوة واضحة ؛ لأن من حوله سوف ينفضون عنه لضعفهم أمام قوة المسلمين ، ولم تطاوعه نفسه أن يسلم نفسه للّه . فأمسك بالعصا من الوسط وضمن بقاء جنوده وأتباعه معه فظاهر الأمر هم مسلمون ، وضمن بقاء قيادته وزعامته لهم طالما أنهم غير مكلفين بالمواجهة السافرة ، وكانت آيات القرآن تندد بهؤلاء تلميحاً لا تصريحاً بأسمائهم .

جـ ـ دورهم فى غزوة بنى قينقاع :

يقول ابن إسحاق : وكان بنو قينقاع أول يهود نقضوا ما بينهم وبين رسول اللّه ﷺ ، فحاصرهم رسول اللّه حتى نزلوا على حكمه، فقام إليه عبد اللّه بن أبى بن سلول حين أمكنه اللّه منهم ، فقال : يا محمد، أحسن فى موالىَّ ! فأعرض عنه، فأدخل يده فى جيب درع رسول اللّه ﷺ فقال له : « أرسلنى » . وغضب رسول اللّه حتى رأوا لوجهه ظللا ، ثم قال : « ويحك ، أرسلنى »، قال: لا، واللّه لا أرسلك حتى تحسن فى موالىَّ: أربعمائة حاسر وثلثمائة دارع ، قد منعونى من الأحمر والأسود تحصدهم فى غداة واحدة ! إنى واللّه امرؤ أخشى الدوائر . . . ومشى عبادة بن الصامت إلى رسول اللّه ﷺ وكان له من حلفه مثل الذى لهم من عبد اللّه بن أبى ، فخلعهم إلى رسول اللّه ﷺ وتبرأ إلى الله عز وجل وإلى رسول الله من حلفهم ، وقال: يا رسول الله ، أتولى الله ورسوله والمؤمنين وأبرأ من حلف هؤلاء الكفار وولايتهم ، ففيه وفى عبد الله بن أبى

نزلت هذه القصة من المائدة: ﴿ يا أيُّها الَّذين آمنُوا لا تتَّخذُوا اليَهُود والنَصارى أوْلياء بعْضُهُمْ أوْلياءُ بعْضٍ ومن يتولَّهُم مِنكُم فإنَّهُ منهُمْ إنَّ اللَّه لا يهْدي القَوْمَ الظَّالمين . فترى الَّذين في قُلُوبهم مَرَضٌ يُسارعُونَ فيهمْ يقُولُون نخْشَىٰ أن تُصيبَنا دائرةٌ فعَسى اللَّهُ أن يأْتيَ بالْفَتْح أوْ أمْرٍ مِّنْ عنده فيُصْبحُوا علىٰ ما أسرُّوا في أنفُسهمْ نادمين . ويَقُولُ الَّذين آمنُوا أهؤُلاء الَّذين أقْسمُوا باللَّه جهْدَ أيمانهمْ ﴾ ، ثم القصة إلى قوله تعالى: ﴿ إنَّما وليُّكُمُ اللَّهُ ورسُولُهُ والَّذين آمنُوا الَّذين يُقيمُون الصَّلاة ويُؤْتُون الزَّكاةَ وهُمْ راكعُون ﴾ ، وذكر لتولى عبادة بن الصامت الله ورسوله والذين آمنوا ﴿ . . . فإنَّ حزْبَ اللَّه هُمُ الْغالبُون ﴾ (١) .

لقد كان موقفاً غريباً تمامًا على الحس الإسلامى ، فلم يعهد الصف الإسلامى أبدًا فيه مثل هذه الظاهرة منذ أن قامت الدعوة ، فلقد كان المسلم فى تعامله مع رسول الله ﷺ من الأدب والانضباط والتفانى فى الطاعة ، ما يجعله يحتاج دائمًا لتوجيهات النبى أن يبدى رأيه ويقول كلمته ، ويناقش فى حقه ، وكان رسول الله ﷺ يفسح المجال دائمًا لهذا البناء عن طريق الشورى .

أما أن يقف مسلم بهذه الوقاحة ، يضع يده فى جيب درع رسول الله ﷺ ، ويطلب منه رسول الله أن يدعه فلا يدعه ، فيغضب منه ويلح عليه بقوله : « ويحك ، أرسلنى » ، فلا يستجيب ويسترمل فى وقاحته ، فهذا أمر غريب تمامًا على الحس الإسلامى بين جندى وقائده ، بله بين مسلم ورسول رب العالمين . ورسول رب العالمين بما أعطاه الله تعالى من الخلق الأقوم لم يعهد عنه أنه رد رجاء مسلم ، وفى فقهه السياسى ﷺ : أنه إن لبى رجاء ابن أبى ، فلعل هذا الموقف يغسل قلبه ، ويزيل الغشاوة عنه فتتم هدايته . فقال له: « هم لك ». ولعل الذين يسيرون وراء زعامة ابن أبى يصلحون بصلاحه فيتماسك الصف المسلم ويلتحم ، فلا يضيره كيد العدو أبدًا .

وإن كان لنا أن نستفيد من هذه الحادثة، فهو الحكم على الجنود أو القيادات الدنيا أو الوسطى الذين يريدون أن يفرضوا رأيهم على القيادة العليا للجماعة ، ويمارسون ضغوطًا مادية أو معنوية بما لديهم من رصيد شعبى أو سمعة طيبة ، فيكرهون القيادة على تبنى مواقف لا تقتنع بها أو يحرجونها فى تصرفات قد لا تقتضيها مصلحة الجماعة ، فهذا الموقف الذى يقفه هؤلاء هو شبيه بموقف ابن أبى

(١) السيرة النبوية لابن هشام مقتطفات من ٢/ ٤٧ ـ ٥٠ . والآيات من سورة المائدة : ٥١ ـ ٥٦ .

الذى استغل ثقة بعض الجماهير به ، واتخذ هذا الموقف لحماية حلفائه من بنى قينقاع ، ومن توفيق الله تعالى أن وجدنا النموذج الأمثل للجندية الخالصة فى هذه الحالة وهو نموذج عبادة بن الصامت رضي الله عنه مع حلفائه الذى أعلن فيه براءته من اليهود وتولى الله ورسوله وجماعة المؤمنين .

فليس من حق زعيم أو قائد فى صف الحركة الإسلامية أن يتخذ موقفًا يناقض موقف قيادة الجماعة وبخاصة أمام أعداء الله .

إن جنود الحركة الإسلامية ورجالاتها تبع لقيادتهم ، يحاربون من حاربت ويسالمون من سالمت ، ولو كانت القناعة عندهم بالمصلحة عكس موقف الجماعة العام ، طالما أنهم جزء منها ، فلابد من تبنى مواقفها .

فلقد أقدمت الحركة الإسلامية فى بعض فصائلها على تحالف مع بعض الجهات ضد عدوها الأول ، فإذا بعض جنودها ينتفض ويملأ الدنيا حرباً عليها ، ويعلن موقفه هذا أمام العدو والصديق ، ويهاجمها فى صحف الغرب مشهراً بهذا الموقف ، بل ساد صفوف كثير من شبابها نقمة على هذا التحالف ، ومثل هذا التصرف يجعل القيادة عاجزة شلاء عن تنفيذ مخططاتها وأهدافها ، وبمقدار ما يلتزم الجنود بموقف قيادتهم مع أعدائها حرباً أو سلماً بمقدار ما تتمكن الحركة الإسلامية من السير بهذه الجماعة نحو غاياتها القريبة والبعيدة ، وأى ضغط يفرض من جندى أو زعيم على القيادة هو تصرف متساوق مع تصرف ابن أبى فى ولائه لليهود ودفاعه عنهم وحمايته لهم [1] .

د ـ دورهم فى غزوة أحد :

يقول ابن إسحاق: (. . . فقال عبد الله بن أبى بن سلول : يا رسول الله، أقم بالمدينة لا تخرج إليهم ، فوالله ما خرجنا منها إلى عدوٍ لنا قط إلا أصاب منا، ولا دخلها علينا إلا أصبنا منه ، فدعهم يا رسول الله ، فإن أقاموا أقاموا بشر محبس، وإن دخلوا قاتلهم الرجال فى وجههم ورماهم النساء والصبيان بالحجارة من فوقهم ، وإن رجعوا رجعوا خائبين كما جاؤوا ، فلم يزل الناس برسول الله

(١) من الأمانة ألا ننسى الفرق فى الموقف حين يكون بين جندى وقائده اليوم ، وبين الموقف الأصلى الذى يكون طرفه الأول رسول الله ﷺ . فيفسق من يحرجه أو يكفر من يعصيه ، وطرفه الثانى ابن أبى الذى أظهر الإسلام وأبطن الكفر ، وشهد القرآن الكريم بنفاقه وغموصه فى النفاق .

ﷺ الذين كان من أمرهم حب لقاء القوم ، حتى دخل رسول الله ﷺ فلبس لأمته . . . فخرج فى ألف من أصحابه حتى إذا كانوا بالشوط بين المدينة وأحد ، انخذل عنه عبد الله بن أبى بن سلول بثلث الناس وقال: أطاعهم وعصانى، ما ندرى علام نقتل أنفسنا أيها الناس ، فرجع بمن اتبعه من أهل النفاق والريب واتبعهم عبد الله بن عمرو بن حرام يقول : يا قوم ، أذكركم الله ألا تخذلوا قومكم ونبيكم عندما حضر من عدوهم ، فقالوا : لو نعلم أنكم تقاتلون لما أسلمناكم ، ولكنا لا نرى أنه يكون قتال ، فلما استعصوا عليه وأبوا إلا الانصراف عنهم قال : أبعدكم الله أعداء الله فسيغنى الله عنكم نبيه) (١) .

صحيح أن أزمة الشقاق قد تم تفاديها يوم بنى قينقاع ، واستجيب لرأى ابن أبى ، غير أن الأيام كانت تترى وموقف ابن أبى لم يتغير ، فهو لا يزال معتداً بحزبه ، ولا يزال يوغر الصدور فى الخفاء ضد المسلمين ، وكان الموقف يوم أحد هو القشة التى قصمت ظهر البعير ، فلم يؤخذ برأيه فى البقاء فى المدينة ، كما تذكر بعض الروايات (أن كتيبة حسنة التسليح لها رجل منفردة عن سواد الجيش ، فقال: ما هذا ؟ فأبلغوه أن الكتيبة من اليهود حلفاء عبد الله بن أبى، فقال عليه الصلاة والسلام:« أأسلموا ؟ ». قالوا: لا يا رسول الله. فقال : « مروهم فليرجعوا ، فإنا لا ننتصر بأهل الكفر على أهل الشرك ») (٢) ، وكانت هذه قاصمة ثانية ، فهو يرى أن النصر لو تحقق فسيشترك فيه طالما أن حزبه وحلفاءه قد ساهموا فيه ، ويكون له المركز الثانى بعد رسول الله ، أما وقد فاته تحقيق الزعامة بأخذ رأيه فى البقاء فى المدينة ، وفاته المشاركة بالنصر عن طريق حزبه وحلفائه ، فليشارك إذن فى صنع الهزيمة ، عله يتخلص من محمد ﷺ وزعامته ؛ وليضرب ضربته الذكية ، وينفصل بثلث الجيش عائداً إلى المدينة معلنًا : (. . . سفَّه رأيى، ورد حلفائى ، ما أدرى علام نقتل أنفسنا أيها الناس؟!). ولئن كانت خطوته يوم بنى قينقاع كبيرة على الحس الإسلامى، فلقد أصبحت تافهة لا تذكر أمام خطوته فى أحد .

ولقد كانت ذات أثر خطير جداً من الناحية المعنوية ، فأن ينفصل ثلث الجيش معه ، فهذا يعنى تصدع الصف الداخلى وهو مقدم على حرب عنيفة ، وإذا أردنا

(١) السيرة النبوية لابن هشام ٢ / ٦٣ ، ٦٤ . (٢) انظر : الطبقات الكبرى لابن سعد ٢ / ٣٩ .

أن نحدد أبعاد هذه الخطوة أكثر فيمكن القول : إن الأمر أكبر من ثلث الجيش ، فلقد أكد القرآن الكريم أن هناك بعض الفئات كادت تستجر معه : ﴿ **إذ همت طائفتان منكم أن تفشلا والله وليهما وعلى الله فليتوكل المؤمنون** ﴾ [آل عمران : ١٢٢] ، كما يشير القرآن الكريم إلى المنافقين الذين بقوا فى الجيش ، وعلهم مكثوا بأمره ، ليتموا المهمة الخطيرة ـ مهمة إشاعة الفوضى والرعب فى الصفوف ـ حيث يؤكد القرآن هذا المعنى بقوله عز وجل : ﴿ **ثم أنزل عليكم من بعد الغم أمنة نعاسا يغشى طائفة منكم وطائفة قد أهمتهم أنفسهم يظنون بالله غير الحق ظن الجاهلية يقولون هل لنا من الأمر من شيء قل إن الأمر كله لله يخفون في أنفسهم ما لا يبدون لك يقولون لو كان لنا من الأمر شيء ما قتلنا ها هنا قل لو كنتم في بيوتكم لبرز الذين كتب عليهم القتل إلى مضاجعهم وليبتلي الله ما في صدوركم وليمحص ما في قلوبكم والله عليم بذات الصدور** ﴾ [آل عمران : ١٥٤] . فإشارة القرآن الكريم إلى الطائفتين المؤمنتين اللتين كادتا تلتحقان بالمنشقين عن الجيش ، والإشارة إلى الطائفة التى أهمتها نفسها فى المعركة وهى أخت الطائفة المنشقة لتوضح أن المنافقين هم قرابة نصف الجيش ، وتتحدث السيرة عن هذه النماذج فى المعركة ، فبعضهم قال : لو كان نبيًا ما قتل فارجعوا إلى دينكم الأول . وبعضهم قال : ليت لنا رسولاً إلى عبد الله بن أبى يأخذ لنا أمانًا من أبى سفيان . يا قوم ، إن محمدًا قد قتل ، فارجعوا إلى قومكم قبل أن يأتوكم ويعتلوكم .

ونلاحظ أن الخط النبوى فى أحد قد اختلف عن الخط فى قينقاع من حيث التعامل مع زعيم النفاق ، فلقد كانت المراعاة فى الموقف الأول كافية لتبيان نوعية هذه النماذج ، وكفيلة بأن تعيدهم إلى حظيرة الإيمان ، لكننا عندما نجد أن مواقفهم لم تتغير ، فلقد كان الموقف حاسماً وواضحاً فى أحد ، ولقد رد حلفاء عبد الله بن أبى ، فلا يمكن أن يقوم فى الصف الإسلامى تكتل محاذ لكتلة المسلمين وجماعتهم ، ولا يمكن أن يقبل تجمع بجوار الجماعة المسلمة ، ورغم حاجة رسول الله ﷺ إلى العدد حيث يواجه ثلاثة آلاف بألف مقاتل ، إلا أن المبدأ لا ينقض .

فطالما أنهم لم يعلنوا انضمامهم للصف الإسلامى ، فلا استعانة بأهل الكفر على أهل الشرك ، والأخطر من ذلك فهؤلاء ليسوا حلفاء المسلمين ، إنما هم

حلفاء عبد اللّه بن أبى، فسلامة الصف ووضوح الولاء أهم بكثير من التجمع العشوائى ، وكان انفصال عبد اللّه بن أبى رحمة بالمؤمنين، وكما قال لهم عبد اللّه ابن عمرو : أبعدكم اللّه، فسيغنى الله عنكم نبيه.

وكان بالإمكان بعد العودة من أحد أن يوجد فى الصف الإسلامى الخالص من يعذر عبد اللّه بن أبى ويدافع عنه ، ويجد له ولحزبه العذر بالعودة بحجة أنهم مسلمون لهم ظروفهم ، لكن كلام اللّه تعالى جاء كوقع الصاعقة عليهم . فلقد كان القرآن يدمغهم بالنفاق بأوضح بيان : ﴿ **وَمَا أَصَابَكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ فَبِإِذْنِ اللَّهِ وَلِيَعْلَمَ الْمُؤْمِنِينَ . وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ نَافَقُوا وَقِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا قَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوِ ادْفَعُوا قَالُوا لَوْ نَعْلَمُ قِتَالاً لاَتَّبَعْنَاكُمْ هُمْ لِلْكُفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلإِيمَانِ يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ** ﴾ [آل عمران : ١٦٦، ١٦٧] ، ثم يربط القرآن الكريم بين الفريقين ، الذين استمروا فى الجيش لإشاعة البلبلة والهزيمة ، والذين انخذلوا إلى المدينة فيقول : ﴿ **الَّذِينَ قَالُوا لإِخْوَانِهِمْ وَقَعَدُوا لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا قُلْ فَادْرَءُوا عَنْ أَنْفُسِكُمُ الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ** ﴾ [آل عمران : ١٦٨] .

ولا نبالغ إذا قلنا : إن قمة تجمع المنافقين وخطره برز يوم أحد ، لكننا نؤكد فى الوقت ذاته أنه قد افتضح أمره ، وبرز المنافقون بأشخاصهم وأعيانهم يعلن القرآن عنهم أنهم أقرب للكفر منهم إلى الإيمان ، وبذلك تمت المفاصلة بينهم وبين المؤمنين ، وغدت الجماعة المؤمنة تنظر إليهم بعين الحذر والكراهية إن استمروا على مواقفهم ، وأصبح المسلم يكف عن بث أسراره لأخيه من أبيه وأمه إن كان ممن وصم بالنفاق .

وأدت هذه المواقف الحاسمة منهم بعد ذلك إلى أن يخنسوا ويحاولوا التقرب من الصف المؤمن والاعتذار منه ، وأن يتراجعوا عن موقف المواجهة والتحدى ، ويغيروا خطتهم للعمل فى الخفاء ، أما الذين كانوا مغرراً بهم فقد بدؤوا ينضمون للصف الإسلامى فى توبة نصوح خالصة ، حيث فتح لهم القرآن طريق التوبة بعد التحذير العنيف الرهيب بسوء مصيرهم إن استمروا على موقفهم ، حيث يقول جل شأنه : ﴿ **إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرْكِ الأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ وَلَنْ تَجِدَ لَهُمْ نَصِيراً . إِلاَّ الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَاعْتَصَمُوا بِاللَّهِ وَأَخْلَصُوا دِينَهُمْ لِلَّهِ فَأُولَئِكَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ وَسَوْفَ يُؤْتِ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ أَجْراً عَظِيماً** ﴾ [النساء : ١٤٥ ، ١٤٦] .

وهكذا سار الخط النبوى فى التعامل مع المنافقين على أمل تفتيت تجمعهم ، والتحذير من كيدهم ، وتحذيرهم من مغبة السير فى طريق النفاق من خزى الدنيا وعذاب الآخرة ، وحققت هذه الخطة أهدافها بشكل واضح ، وبدأ خط التصاعد للمنافقين بالانحدار ، فلقد كانت سورة النساء وحديثها عن الجهاد والنفاق ، وسورة آل عمران تعرى كل المخططات المشبوهة ، وتعالج كل الشبهات المبثوثة ، وتفسح المجال رحباً أمام التوبة .

هـ ـ تآمرهم مع بنى النضير :

يقول ابن إسحاق : (وقد كان رهط من بنى عوف بن الخزرج منهم عبد الله ابن أبى بن سلول ، ووديعة ومالك بن أبى قوقل ، وسويد وداعس قد بعثوا إلى بنى النضير : أن اثبتوا وتمنعوا ، فإنا لن نسلمكم ، إن قوتلتم قاتلنا معكم ، وإن أخرجتم خرجنا معكم ، فتربصوا ذلك من نصرهم فلم يفعلوا ، وقذف الله فى قلوبهم الرعب ، وسألوا رسول الله ﷺ أن يجليهم ويكف عن دمائهم ، على أن لهم ما حملت الإبل من أموالهم إلا الحلقة [1] ، ففعل) [2] .

ويحدثنا القرآن الكريم عن هذه الحادثة ، وذلك فى قوله تعالى : ﴿ **أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نَافَقُوا يَقُولُونَ لِإِخْوَانِهِمُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا وَإِنْ قُوتِلْتُمْ لَنَنْصُرَنَّكُمْ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ . لَئِنْ أُخْرِجُوا لَا يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ وَلَئِنْ قُوتِلُوا لَا يَنْصُرُونَهُمْ وَلَئِنْ نَصَرُوهُمْ لَيُوَلُّنَّ الْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يُنْصَرُونَ** ﴾

[الحشر : ١١ ، ١٢]

إن الصورة لتختلف تماماً اليوم عنها فى أحد ، فلئن كان التحدى سافراً فى أحد ، فلقد خنسوا اليوم وراحوا يعملون فى الخفاء كخفافيش الظلام ، لم يعودوا يملكون القوة على المواجهة ، ولا القوة على التحدى ، إنما يتآمرون من وراء الأقنعة علهم ينتصرون مع حلفائهم اليهود على المسلمين ، فهم يدعون بنى النضير إلى الثبات فى وجه المسلمين وإلى المقاومة ، كما يعلنون لهم أن مددهم قادم ولا ريب فى ألف من المنافقين ، وقد ربطوا مصيرهم بمصيرهم ، ﴿ **لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا وَإِنْ قُوتِلْتُمْ لَنَنْصُرَنَّكُمْ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ** ﴾ ،

---

(١) الحلقة : السيوف والسلاح .

(٢) السيرة النبوية لابن هشام ٢/ ١٩١ .

ولئن كان عبد اللّه بن أبى قد استطاع أن يحافظ على حياة حلفائه ـ بنى قينقاع ـ فهو أعجز اليوم من أن يبدى رأياً أو يتقدم بطلب لرسول اللّه ﷺ بعد تلك الخيانة السافرة فى أحد ، وهو فى الوقت نفسه يجلل بالعار من جديد فى الخيانة التى فضحها القرآن عن التآمر السرى بين الفريقين ؛ المنافقين وكفار أهل الكتاب ، وكان خروج اليهود بدون سلاح وهدمهم بيوتهم بأيديهم وأيدى المؤمنين ، صفعة عنيفة للمنافقين ، وإسقاطاً ماديـًا ومعنويـًا لهم .

القرآن يتنزل ، والمواقف تتوضح ، والمنافقون يتعرون، ومع ذلك يبقى الإسلام ورسول الإسلام خيطاً خفيًا يتسلقون من خلاله إلى التوبة ، فلن يوصد الباب أبداً ، لكن اللعب على الحبال مكشوف ، والتظاهر بالإيمان مفضوح لا يجدى ، ولن يفيد إلا التوبة الصادقة الخالصة للّه .

وكانت هذه الجولة الجديدة كفيلة بتداعى معسكر المنافقين، فوضح الحق واستبان السبيل لكثير منهم ، وبدؤوا يمسحون الغشاوة عن عيونهم فيستفيقوا من رقادهم ، ويؤوبوا إلى حظيرة الإسلام .

و ـ المنافقون يوم الأحزاب :

رغم أن الحديث عن المنافقين يوم الأحزاب فى القرآن كان طويلاً لحد ما إذا قيس بما ذكر عن غزوة الأحزاب، ومواقف المسلمين منها، لكنه يركز على معان محددة وواضحة فيهم تؤكد ضآلة حجمهم وتفاهة تخطيطهم. يقول تعالى عنهم فى سورة الأحزاب : ﴿ وإذْ يقولُ المُنافقُون والّذين في قُلوبهم مَرضٌ مَا وعدنا اللّه ورسُولُه إلاّ غُرُورًا . وإذْ قالت طائفةٌ منْهُم يا أهْل يثْرب لا مُقام لكُمْ فارجعُوا ويستأْذنُ فريقٌ منْهُمُ النبيَ يقُولُون إنّ بيُوتنا عوْرةٌ وما هي بعوْرةٍ إن يُريدُون إلاّ فرارًا . ولوْ دُخلت عليهم منْ أقْطارها ثُم سُئلُوا الفتْنة لآتوْها وما تلبّثُوا بها إلاّ يسيرًا . ولقدْ كانُوا عاهدُوا اللّه من قبْلُ لا يُولُّون الأدْبار وكان عهْدُ اللّه مسْئُولاً . قُلْ لنْ ينفعكُمُ الْفرارُ إن فررْتُم منَ الْموْت أو الْقتْل وإذًا لا تُمتّعُون إلاّ قليلاً . قُلْ من ذا الّذي يعْصمُكُم منَ اللّه إنْ أرادَ بكُمْ سُوءًا أوْ أرادَ بكُمْ رحْمةً ولا يجدُون لهُم منْ دُون اللّه وليًّا ولا نصيرًا . قدْ يعْلمُ اللّهُ الْمعوّقين منكُمْ والْقائلين لإخوانهم هلُمّ إلينا ولا يأْتُون الْبأْس إلاّ قليلاً . أشحّةً عليْكُمْ فإذا جاء الْخوْفُ رأيْتهُمْ ينظُرُون إليْك تدُور أعْينُهُم كالّذي يُغْشى عليْه منَ الْموْت فإذا ذهب الْخوْفُ سلقُوكُم بألْسنة حداد أشحّةً على الْخير أُولئك لمْ يُؤْمنُوا فأحْبط اللّهُ أعْمالهُمْ وكان ذلك على اللّه يسيرًا . يحْسبُون الأحْزاب لمْ

يذْهَبُوا وإن يأت الأحْزَابُ يودُّوا لَوْ أَنَّهُم بَادُونَ في الأعْرَاب يسْأَلُونَ عَنْ أَنبَائكُمْ ولَوْ كَانُوا فيكُم مَا قاتلُوا إلاَّ قَليلاً ﴾ [الأحزاب : ١٣ ـ ٢٠] .

وهناك آيتان أخريان ذكرتا المنافقين فى الخندق فى سورة النور،وهما قوله تعالى : ﴿ إنَّمَا الْمُؤْمنُونَ الَّذينَ آمنُوا باللَّه ورَسُوله وإذَا كَانُوا معَهُ علَىٰ أَمْر جَامع لَّمْ يذْهَبُوا حَتَّىٰ يَسْتَأْذنُوهُ إنَّ الَّذين يَسْتَأْذنُونَكَ أُولَٰئكَ الَّذينَ يُؤْمنُونَ باللَّه ورَسُوله فَإذَا اسْتَأْذَنُوكَ لبَعْض شَأْنهمْ فَأْذَن لّمَن شئْتَ منْهُمْ واسْتَغْفرْ لَهُمُ اللَّهَ إنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحيمٌ . لا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُول بَيْنَكُمْ كَدُعَاء بَعْضكُم بَعْضًا قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الَّذينَ يَتَسَلَّلُونَ منكُمْ لوَاذًا فَلْيَحْذَر الَّذينَ يُخَالفُونَ عَنْ أَمْره أَن تُصيبَهُمْ فتْنَةٌ أَوْ يُصيبَهُمْ عَذَابٌ أَليم ﴾ [النور : ٦٢ ، ٦٣] .

ولو وقفنا عند هذه الآيات وفقهها نلحظ ما يلى :

١ ـ **الفريق الأول** : يقولون : ﴿ مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إلاَّ غُرُورًا ﴾ ، فهم قد حضروا المعركة، وأمام هول الصدمة وعنف المحنة انهار إيمانهم ، وكشفت خبيئة نفوسهم فقالوا : ﴿ مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إلاَّ غُرُورًا ﴾ . وكتب السيرة تذكر هذا القول أو قريباً منه ، عن معتب ابن قشير إذ قال فى ساعات الخوف والزلزلة بعد أن سمع بشريات رسول اللّه ﷺ بالفتح المبين لهذا الدين فى أقطار الأرض : (يعدنا محمد أن نأكل كنوز كسرى وقيصر ، وأحدنا لا يأمن من أن يذهب إلى حاجته ما وعدنا الله ورسوله إلا غروراً) .

وطبيعة هذا القول تشى بأنه قول مخنوق يقال فى الخفاء بين مجموعة موثوقة تقبل هذا المعنى على الأقل ، ويحسب هؤلاء أن أمرهم لن يظهر ، وقولهم لن يكشف ؛ لكن القرآن الكريم لاحق مؤامراتهم وكذبهم إلى كل جحر يلتقون فيه ، لكنهم على كل حال يمثلون كل طوائف المنافقين . فلقد تزلزل إيمانهم ، واعتبروا أنفسهم متورطين فى هذا الإيمان .

٢ ـ **الفريق الثانى**: وهو وضع طائفة محددة منهم تذكر حوادث السيرة أنهم بنو حارثة، وهى إحدى الطائفتين اللتين همتا أن تفشلا يوم أحد ، إذ قالوا : (إن بيوتنا عورة وليس دار من دور الأنصار مثل دارنا ، ليس بيننا وبين عطفان أحد يردهم عنا، فأذن لنا فلنرجع إلى دورنا فنمنع ذرارينا ونساءنا ، فأذن لهم ﷺ فبلغ سعد بن معاذ ذلك فقال : يا رسول اللّه ، لا تأذن لهم إنا والله ما أصابنا وإياهم

شدة إلا صنعوا هكذا) (١) .

ويتحدث القرآن عن جبنهم وهلعهم فى أربع آيات تؤكد المعنى الذى ذكره سعد بن معاذ رضي الله عنه ، فهم يريدون الفرار من المعركة ، ولو وطئ العدو أرضهم لأجابوه للفتنة عن دينهم والتخلى عن عقيدتهم ، ولا أدل على ذلك من خوفهم من الموت أن يجتاحهم فى أرض المعركة وكأنما هم بمنجاة منه فى غيرها ، وتزعزع عقيدتهم ووهنها هو الذى يدفعهم إلى هذا الموقف ؛ لأن الضر والنفع بيد الله عز وجل وحده ، والفرار لن يحول بينهم وبين الموت أو القتل ، والمؤمن الصادق يوقن بأن النصر بيد لله ، والنفع والضر بيد الله ، والموت والحياة بيد الله ، وهؤلاء المنافقون ليسوا من هذا الطراز .

٣ ـ **الفريق الثالث** : هم المعوقون الذين كانوا يخذلون عن رسول الله ﷺ ، والقابعون فى جحورهم فى المدينة ، وهم جبناء مثل أسلافهم ، لكنهم لخذلانهم وتخاذلهم عن رسول الله ﷺ أصبح مهوى قلبهم مع العدو ، وكان الوصف دقيقاً ولاذعاً لهم : ﴿ **فإذا جاء الخوف رأيتهم ينظرون إليك تدور أعينهم كالذي يغشى عليه من الموت** ﴾ [الأحزاب : ١٩] ، طارت قلوبهم من صدورهم رعباً ، وهؤلاء حكم القرآن عليهم أنهم غير مؤمنين ﴿ **أولئك لم يؤمنوا فأحبط الله أعمالهم وكان ذلك على الله يسيراً** ﴾ ، وهم على استعداد أن يتركوا المدينة ومن فيها إذا حاق الخوف واشتدت المصيبة .

وأمام هذه النماذج الثلاثة نلحظ أن مواصفاتهم هى التى تستغرقها الآيات فى الوصف، أما حجمهم فهو ضئيل ، رغم أن الفرصة مواتية لبروزهم من أوكارهم، خاصة حين اشتدت المحنة ، وابتلى المؤمنون وزلزلوا زلزالاً شديداً . إن المشكلة ليست هى الخوف ، فالمؤمنون يخافون ، إنما المشكلة هى بواعث الخوف ونتائجه . وارتباط ذلك بالإيمان وعدمه .

إن المحنة هى التى تمحص القلوب، وتكشف ما فى الصدور من إيمان أو نفاق أو كفر، وقد يتزلزل المؤمن لكنه لا يفقد إيمانه ، قد يفقد موقفه ، وقد يفقد شجاعته وثباته ، لكن إيمانه لا يتزلزل أبداً ، أما ضعيف الإيمان فينهار إيمانه أمام

---

(١) إمتاع الأسماع للمقريزى ١ / ٢٢٩ .

الحادثات ، وأما الكافر المتجلبب بجلباب الإسلام حين يكشف الغطاء ، ويرى أن دولة الإيمان على وشك الزوال يكشف خبيئة نفسه ، ويظهر نتن قلبه ، ويعلن شكه بربه ، وهؤلاء لم يؤمنوا ، وبالتالى فأحبط الله أعمالهم فى الدارين .

ز ـ المنافقون يوم بنى المصطلق :

انتصر المسلمون بعد الخندق ، وأنهوا وجود بنى قريظة ، وبالتالى انتهى حلفاء المنافقين فى المدينة ، فلم يعد أمامهم إلا أن يسارعوا بالولاء للقيادة المسلمة ، وأن يوجهوا جهدهم لخلخلة الصف المسلم نفسه ، والعمل على تشتيته ، واشتغاله بنفسه بدل أن ينشغل بعدوه ، وتظاهروا بالانصهار فى هذا الصف ، وإن كان بعضهم قد دخل فيه عن قناعة بعد أن بهره نصر الله ، ورأى من الآيات البينات ما يحرق كل شك أو دخل فى قلبه ، وكان ابن أبى كالحية الرقطاء يكمن بين الحجارة وخلف الأستار ينتظر الفرصة المواتية للانقضاض ، وكان هذا يوم بنى المصطلق . ولنر تفصيل ذلك لدى المقريزى :

(وبينا المسلمون على ماء المريسيع ، إذ أقبل سنان بن وبر الجهنى ـ حليف الأنصار ـ ومعه فتيان من بنى سالم يستقون وعلى الماء جمع من المهاجرين والأنصار ، فأدلى دلوه ، وأدلى جهجاه الغفارى ـ أجير عمر بن الخطاب رضي الله عنه ـ دلوه فالتبست دلو سنان ودلو جهجاه وتنازعا ، فضرب جهجاه سنانًا فسال الدم فنادى : يا للخزرج ، وثارت الرجال ، فهرب جهجاه وجعل ينادى فى العسكر : يا لقريش ، يا لكنانة ، فأقبلت قريش وأقبلت الأوس والخزرج وشهروا السلاح حتى كادت تكون فتنة عظيمة ، فقام رجل فى الصلح فترك سنان حقه .

وكان عبد الله بن أبى جالسًا فى عشرة من المنافقين فغضب وقال : والله ما رأيت كاليوم مذلة ، والله إن كنت لكارهًا لوجهى هذا ، ولكن قومى قد غلبونى قد فعلوها وقد نافرونا وكاثرونا فى بلادنا ، وأنكروا منتنا ، والله ما صرنا وجلابيب قريش هذه إلا كما قال القائل : سمن كلبك يأكلك ، والله لقد ظننت أنى سأموت قبل أن أسمع هاتفاً يهتف بما هتف به جهجاه ، وأنا حاضر لا يكون لذلك منى غير ، والله لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل. ثم أقبل على من حضر من قومه فقال: هذا ما فعلتم بأنفسكم ! أحللتموهم بلادكم ، ونزلوا منازلكم ، وآسيتموهم فى أموالكم حتى استغنوا ، أما والله لو أمسكتم

عنهم ما بأيديكم لتحولوا إلى غير بلادكم ، ثم لم ترضوا ما فعلتم حتى جعلتم أنفسكم أغراضاً للمنايا فقتلتم دونهم ، فأيتمتكم أولادكم وقللتم وكثروا .

وكان زيد بن أرقم حاضرًا ـ وهو غلام لم يبلغ أو قد بلغ ـ فحدَّث رسول الله ﷺ بذلك وعنده نفر من المهاجرين والأنصار، فتغير وجهه ثم قال: « يا غلام ، لعلك غضبت عليه ؟ » قال : لا والله لقد سمعت منه . قال: « لعله أخطأ سمعك » قال : لا يا نبى الله. قال : « فلعله شبه عليك ؟ » قال : لا والله لقد سمعت منه يا رسول الله ، وشاع فى المعسكر ما قال ابن أبى ، حتى ما كان للناس حديث إلا هو . وأنب جماعة من الأنصار زيد بن أرقم فقال ـ فى جملة كلام : والله إنى أرجو أن ينزل الله على نبيه حتى تعلموا أنى كاذب أم غيرى ، وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه : يا رسول الله ، مر به عباد بن بشر فليأتك برأسه ، فكره ذلك وقال : « لا يتحدث الناس أن محمدًا يقتل أصحابه » ، وبلغ الخبر ابن أبى ، فحلف بالله ما قال من ذلك شيئًا ، ثم مشى إلى رسول الله ﷺ وحلف بالله ما قال ، وأسرع رسول الله ﷺ عند ذلك السير ، ورحل فى ساعة لم يكن يرتحل فيها.

ويقال : لم يشعر أهل العسكر إلا برسول الله ﷺ قد طلع على راحلته ـ وكانوا فى حر شديد ـ وكان لا يروح حتى يبرد ، إلا أنه لما جاءه ابن أبى رحل فى تلك الساعة ، فكان أول من لقيه سعد بن عبادة رضي الله عنه ، فقال : خرجت يا رسول الله فى ساعة ما كنت تروح فيها ! قال: « أو لم يبلغك ما قال صاحبكم ابن أبى، زعم أنه إن رجع إلى المدينة أخرج الأعز منها الأذل ؟ » قال : فأنت يا رسول الله تخرجه إن شئت ، فهو الأذل وأنت الأعز . يا رسول الله ، ارفق به فوالله لقد جاء الله بك وإن قومه لينظمون له الخرز ، ما بقيت عليهم إلا خرزة واحدة عند يوشع اليهودى ليتوجوه فما يرى إلا قد سلبته ملكه . وبينا رسول الله ﷺ يسير من يومه ذلك ، وزيد بن أرقم يعارضه براحلته يريد وجهه ، ورسول الله ﷺ يستحث راحلته فهو يغذ فى المسير ، إذ نزل عليه الوحى فسرِّى عنه ، فأخذ بأذن زيد بن أرقم حتى ارتفع من مقعده عن راحلته وهو يقول: « وفت أذنك يا غلام، وصدَّق الله حديثك » ، ونزل فى ابن أبى : ﴿ إذا جاءك المنافقون ﴾ السورة كلها.

وكان عبادة بن الصامت قبل ذلك قال لابن أبى : إيت رسول الله يستغفر

لك. فلوى رأسه معرضًا ، فقال له عبادة : والله لينزلن فى لىٍّ رأسك قرآن يصلى به . ومر عبادة بن الصامت بابن أبى عشية راح رسول الله ﷺ من المريسيع، وقد نزل فيه القرآن ، فلم يسلم عليه ، ثم مر أوس بن خولى فلم يسلم عليه ، فقال : إن هذا الأمر قد تمالأتما عليه ، فرجعا إليه فأنباه وبكتاه بما صنع ، وبما نزل من القرآن إكذابًا لحديثه ، فقال : لا أعود أبدًا .

وجاء ابنه عبد الله بن عبد الله بن أبى فقال : يا رسول الله ، إن كنت تريد أن تقتل أبى فيما بلغك عنه فمرنى به ، فوالله لأحملن إليك رأسه قبل أن تقوم من مجلسك هذا ، والله لقد علمت الخزرج ما كان فيها رجل أبر بوالده منى ، وإنى لأخشى يا رسول الله أن تأمر غيرى فيقتله ، فلا تدعنى نفسى أن أنظر إلى قاتل أبى يمشى فى الناس فأقتله فأدخل النار ، وعفوك أفضل ، ومنك أعظم ، فقال رسول الله ﷺ : « ما أردت قتله ، وما أمرت به ، ولنحسنن صحبته ما كان بين أظهرنا » . فقال : يا رسول الله ، إن أبى كانت هذه البحيرة قد اتسقوا عليه ليتوجوه ، فجاء الله بك فوضعه ورفعنا بك ، ومعه قوم يطيفون به يذكرونه أموراً قد غلب الله عليها) (١) .

١ ـ حين تظهر الطبيعة العربية عارية فى سرعة غضبها وانفعالها ، تظهر بجوارها عظمة هذا الدين فى ضبطها وكبح جماحها، وهذا ما نراه من خلال أسباب فتنة النفاق هذه. فاختلاف الدلاء البسيط يقود إلى التنازع،ومن التنازع اللفظى إلى التشاجر بالأيدى ، إذ يضرب جهجاه سناناً فيتفجر منه الدم،وجرح سنان يدفع إلى الجاهلية الجهلاء ، فينادى سنان قومه الخزرج ، ويستصرخ جهجاه المهاجرين ، ويثور القوم للسلاح حتى كادت تكون فتنة عظيمة.

هذا هو الخلق العربى عارياً فى سرعة انفعاله وغضبه . كان من الممكن لهذه الفتنة بغير الإسلام أن تعيد أمثال يوم بعاث بين الأوس والخزرج ، وأن تعيد أيام داحس والغبراء أو يوم حليمة ويوم البسوس ، فيفنى القبائل بعضها بعضًا فى شهور أو سنين أو عقود من السنين . كان هذا الشجار كافياً لحرب ضروس تأكل الأنصار والمهاجرين ، ونصل من هذه الملاحظة إلى أنه لا غرابة أن تتحرك فى المجتمع الإسلامى أو فى الحركة الإسلامية نوازع الجاهلية ونزعاتها وتثور بعد

(١) إمتاع الأسماع للمقريزى ١/ ١٩٩ ـ ٢٠٣ .

كمون طويل ، فلقد تحركت هذه العصبية لأول مرة على هذا المستوى نتيجة إثارة طائشة ، وذلك فى أفضل مجتمعات الأرض ، وليس صفنا أفضل من هذا المجتمع وهو خريج مدرسة النبوة ، وهو الأمة التى أخرجت للناس خير أمة ، وليست قيادتنا تعادل غبارًا على قدم رسول الله ﷺ، وهو بين ظهرانيهم ، وتتحرك الفتنة إلى درجة أن يحمل الفريقان السلاح للمواجهة ، وكم نتمنى أن تستوعب الحركة الإسلامية والصف المسلم هذا المعنى ، ألا تحبط الأخطاء والخلافات أمانينا فنيأس حين نجد مثل هذه الظاهرة ، وأن تصل الظاهرة إلى حد حمل السلاح فى داخل الصف المسلم ضد بعضه بعضًا .

٢ ـ لكن الفارق الكبير نلحظه باستمرار هذه الظاهرة أو اختفائها . فلقد استطاع الصف الإسلامى الأول أن يتلافى هذه الظاهرة مباشرة وبأقوى ما يكون ، فيمشى رجل من المسلمين بالصلح بين الفريقين ، ويتخلى سنان عن حقه ، وتحبط الفتنة فى مهدها ، وهذا ما نريد أن نؤكده لنقتدى به ، فلا غرابة أن نخطئ ، ولا غرابة أن نزل ، لكن الغرابة كل الغرابة ، والجفوة كل الجفوة للمنهج الإسلامى هو أن يستمر الخطأ ويستفحل ، فعندئذ نكون أقرب للمجتمع الجاهلى منا إلى المجتمع الإسلامى ، وأن نعجز عن إيجاد حلول تنهى المعركة فى الصف الإسلامى وتجتث جذور الخلاف [١] .

٣ ـ وهنا يبرز دور النفاق الخطير فى المجتمع الإسلامى، فعبد الله بن أبى يجد الفرصة سانحة ولن تتكرر له هذه الفرصة الذهبية مرة ثانية فى تدمير هذه الجماعة المسلمة ليقوم على أنقاضها ، وها هو يهتبل هذه الفرصة فيعبر عما فى نفسه ، ولكن أين ؟ فى عشرة من المنافقين ، يطمئن إلى نفاقهم ، ويطمئن إلى استعدادهم لقبول أفكاره وتنفيذ مخططاته .

لقد وجدناه فى أحد يفصل ثلث الجيش ويشكك فى البقية الباقية من أتباعه فوق هذا الثلث ، وهو قمة مجده ثم بدأ ينحسر هذا المجد ، فيعجز عن نصر حلفائه فى بنى النضير ، ولا يتجاوز دوره التشكيك فى النصر وإمكانياته فى

(١) قد يقع أن يستمر الخلاف والدماء فى الصف الإسلامى الواحد سنين طوالاً، كما جرى فى فتنة عثمان رضي الله عنه وفى معركة الجمل وصفين ، لكننا لابد أن نلاحظ أن مثل هذا الخلاف والقتال قد يقع بهذه الشدة وهذا العنف والمسلمون متمكنون فى الأرض ، ولم يحدث أن استمر مثل هذا الخلاف فى الجيل الإسلامى الأول بهذه الصورة والمسلمون ضعاف يتخطفهم العدو من كل جانب .

الخندق ، أما اليوم فيبث حديثه فى عشرة من أتباعه ، ويتحدث عن كل ما يعانيه من بغض للإسلام وأهله ، ولا يتورع أن يشبههم بالكلاب المسمنة على مائدة الخزرج ، ويدعو صراحة إلى تمزيق الصف ، والثورة على القيادة ، بل يهدد بهذه الثورة التى بدت ملامحها وذرّت قرونها عند العودة إلى المدينة : ليخرجن الأعز منها الأذل .

ولابد لنا من الوقوف عند هذه المعانى . فظهورها فى الصف المسلم الواحد تعنى أن سمات النفاق متمثلة فى دعاتها : التهديد بتمزيق الصف ، والثورة على القيادة والطعن فيها وبصلاحيتها ، خاصة وهى منطلقة من أسس شرعية متينة ، يعنى أن هذا الخط هو خط النفاق سواء أشعر صاحبه أم لم يشعر ، وكما يقول عليه الصلاة والسلام فى أدنى من ذلك؛ يقول فى الخلق الشخصى : « أربع من كن فيه كان منافقًا خالصاً ، ومن كانت فيه خصلة منهن كانت فيه خصلة من النفاق حتى يدعها » (١) . فقد توجد صفات النفاق فى مسلم لا يبطن الكفر ويظهر الإسلام فيعامل معاملة المنافق الخالص ، وكلما تخلى عن صفة أو سمة من هذه الصفات أو السمات اقترب من الصف الإسلامى الصادق . لقد كان هدف ابن أبى واضحاً من كلامه وهو حرب المهاجرين ، وإخراجهم من المدينة أذلاء . وعلى أى شىء يعتمد ؟! يعتمد على قومه من الخزرج الذين كادوا يبايعونه سابقاً على القيادة . وما هو وقود الحرب ؟! هو بناء الأمة على حزبين هما : المهاجرون من قريش وهم أشبه ما يكونون بالمستعمرين اليوم ـ على حد زعمه وفهمه ـ (نافرونا وكاثرونا فى بلادنا ، وأنكروا منتنا، والله ما صرنا وجلابيب قريش إلا كما يقول القائل : سمن كلبك يأكلك). والذين قبلوا هذا الاستعمار هم قومه (هذا ما فعلتم بأنفسكم أحللتموهم بلادكم ، ونزلوا منازلكم، وآسيتموهم فى أموالكم حتى استغنوا) . أما هو فقد كان لكارهاً لهذا، والقيادات الأخرى غيره هى المسؤولة عن هذه النتيجة (والله إن كنت لكارهاً لوجهى هذا ولكن قومى قد غلبونى، والله ما رأيت كاليوم مذلة) . وهل لهذا الأمر من تلاف ؟

نعم ، والله لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل .

إنها الثورة على هذه القيادة وإخراجها من المدينة .

---

(١) متفق عليه ، وهو عند مسلم ١ / ٧٨ح (٥٨/١٠٦) .

وعلى حد زعمه ، لأى مرحلة وصل الخضوع والذلة والجهالة لدى قومه ؟! (ما هو المطلوب منهم الآن) . (أما والله لو أمسكتم عنهم ما بأيديكم لتحولوا إلى غير بلادكم ، ثم لم ترضوا ما فعلتم حتى جعلتم أنفسكم أغراضاً للمنايا فقُتلتم دونهم فأيتمتم أولادكم ، وقللتم وكثروا) .

إنه منطق تقسيم الأمة إلى رجعيين وتقدميين أو كادحين ومستغلين ، والدعوة إلى الثورة التى تطيح بأعداء الشعب ، ليستلم العمال والفلاحون والمثقفون الثوريون زمام السلطة . إنه تقسيم الأمة إلى اليمين واليسار ، أو إلى ثوريين ومحترفين سياسيين .

هذه المقولات كلها عندما تسود الصف المسلم ، ويراد منها أن يتميز الصف على ضوئها يعنى أن من يقود هذه الأفكار أنه هبط إلى درك النفاق أيًا كان شأنه ، وأياً كان لونه ، وخط النفاق الدائم المستمر هو خط الدعوة إلى التغيير غير الشرعى فى الصف الإسلامى ، والطعن المستمر فى القيادة المختارة لتسقط عن طريق القوة ، ويحل محلها الثائرون . إننا نفهم الثورة ضد الجاهلية،ونفهم الثورة ضد المحاربين لشريعة الله والمحادين لرسوله وكتابه . لكننا لا نفهمها فى الصف الإسلامى الواحد ، والحركة الإسلامية الواحدة إلا دورة جديدة من دورات عبد الله بن أبى .

٤ ـ ولكن كيف كان وضع الصف المسلم فى أثناء هذه الحركة المضادة ؟ لقد كان الصف من القوة والتراص والتماسك بحيث يحرق عبد الله بن أبى وعصبته المنافقة . ولقد استطاع فتى صغيرٌ من فتيان هذا الصف أن يحبط فتنة هذا الأخطبوط كله ، حين نقل كل تفصيلات المخطط الخائن ، لمن ؟ لرسول الله ﷺ مباشرة .

وأى وعى فى صف جيش النبوة أعمق من هذا الوعى ؟! إنه الغلام زيد بن أرقم، بلغ به الوعى الحركى أن يصمت وهو يسمع عبد الله بن أبى ليتحدث بكل ما فى نفسه ، وبلغ به الوعى الحركى أن يمضى مباشرة إلى القائد الأعظم ﷺ وحده فيبلغه بما سمع ، وبلغ به الوعى الحركى ألا يحدث بهذا الموضوع أحداً غير رسول الله ، وكم نتمنى لا لفتياننا ولا شبابنا بل للقيادات عندنا أن يكونوا على مستوى هذا الوعى الحركى العظيم .

إنه فتى الإسلام الذى لم يبلغ بعد ـ أو فى سن البلوغ ـ أدرك هذه المعانى جميعاً وحصر الفتنة فى مهدها، فأبلغ كل تفاصيلها لرسول الله ﷺ، فكان حارساً أميناً على دعوته وحركته ، وهذا يعنى أن المطلوب من كل أخٍ أن يكون حارساً أميناً على دعوته وحركته، فينقل كل ما يسمعه من تجريح وطعن أو رغبة فى تخريب الصف وتحطيمه إلى قيادته المسلمة دون أن يمضى عن حسن ظنٍ فى النقد والتجريح ، هو كذلك فيبلبل الصف وهو يقصد إصلاحه .

إنه درس عظيم فى الحركية الواعية لشبابنا المسلم يتلقونه من هذا الغلام . ونقطة ثالثة فى هذا المجال كذلك هى : أن معسكر النفاق لم يكن ليأبه بمثل هذا الغلام زيد بن أرقم ، ومن أجل هذا لم يجد حرجاً فى الحديث أمامه بكل ما فى نفسه وبكل مخططاته ، وهذا ما يجعلنا نطمئن إلى أن نفثات معسكر النفاق وأحابيله لابد أن تظهر بشكل ما فى الصف ، وعلى الشباب المسلم أن يكون يقظاً واعياً لمثل هذه الاتجاهات داخل الصف المسلم .

٥ ـ وماذا تتصرف القيادة أمام هذه المواقف ؟ إن الدرس عام للقيادة والقاعدة، وما أحوجنا إلى التأسى بهذا المنهج جنوداً ومسؤولين . لقد وضع رسول الله ﷺ ثلاثة احتمالات قبل أن يتبنى هذا القول ويبنى عليه :

الاحتمال الأول: أن يكون ناقل الكلام مغرضاً ، أو صاحب هوى (« لعلك غضبت عليه ؟ » قال : لا والله لقد سمعت منه) . ومع أن عبد الله بن أبى هو رأس النفاق وأكبر أعلامه ، فلم يقبل رسول الله ﷺ القالة فيه مباشرة ، وأحب أن يتأكد من صدق الناقل أنه ليس له غرض أو مصلحة أو هوى ضد المنقول عنه . إن الحكم السريع من القيادة والتصديق المباشر دون تحقيق كامل لأسباب هذه الأقوال قد يوقع الجماعة المسلمة فى خطأ أكبر من القول نفسه ، وقد يصدع نقل مغرض وحقد حاقد وغضب غاضب الصف كله ، إذا كان التسرع فى قبول القول ضد أى إنسان لا يزال داخل الصف ، مهما كانت الاتهامات ضده .

الاحتمال الثانى : أن يكون ناقل الكلام غير دقيق فى نقله « لعله أخطأ سمعك » ، فلا يبعد أن يكون النقل خاطئاً ، فيؤدى إلى زيادة أو نقصان فى الكلام يغير المعنى كله ، ولا يصل إلى هذا المدى من الخطر ، وبالتالى فيتهم القائل بشىء لا أصل له ، أو زيد عليه فغير معناه .

لقد كنا كثيراً ما نسمع بعض التعميمات من الشباب المتحمسين ضد بعض إخوانهم أو مسؤوليهم، أو يقوم شاب بنقل لحادثة عن القيادة مشوهة أو مغلوطة، وبعد أن ينتهى الأخ من غمرة حماسه يُسأل: هل أنت متأكد مما تنقله ؟ وهل نُقل إليك هذا الخبر بهذه الصورة ؟ فيقف مليّا ليجيب مصححاً لنفسه مقالته الأولى ، ويحدد ما هو متأكد من نقله ، مما هو شاك فيه. إن خطأ السمع احتمال أساسى آخر ينبغى التحرز منه ، ونحن نستمع للأخ الذى ينقل شكاية عن أخيه الآخر مهما كان وضع الأخ الآخر متهماً أو مشكوكاً فيه .

الاحتمال الثالث : أن يكون الفهم خاطئاً للكلام (« فلعله شبِّه عليك ؟ » قال : لا والله لقد سمعت منه يا رسول الله) . وهذا أكثر الاحتمالات وقوعاً فى الصف المسلم أن يفهم الكلام على غير قصده أو غير معناه ، وبالتالى تتأزم الأمور لسوء تفاهم أو سوء فهم من طرف واحد ، ثم تبنى الأحكام كلها على ضوء هذا الفهم السيئ ، ويتصدع الصف نتيجة أوهام لا حقائق ، ونتيجة تفسيرات وفهوم لكلمات معينة لا نتيجة نقل أمين لمعناها ، والأصل حين تقوم الثقة بين أبناء الصف أن يكون الأخ مصدقاً عند إخوانه حين يعلن رأيه وفهمه ويقسم عليه ، ولكم رأينا خلافات عميقة وشروخاً كبيرة فى الصفوة من إخواننا نتيجة فهم خاطئ لكلام صادر ، أو تفسير سيئ لنقد قائم بعيد عن التجريح والإساءة .

والمنهج النبوى أمامنا فى التحقيق نتمنى أن يكون درساً عمليّا لجهاز الأمن وأجهزة التحقيق فى الجماعة ، ومهما كد ذهننا فى التحقيقات ، فلن تخرج الاحتمالات عن هذه المجالات الثلاثة : غرض فى النقل ، أو خطأ فى النقل ، أو خطأ فى الفهم . وليس من حق قيادة الجماعة مهما كان الناقل صادقاً والمنقول عنه متهماً أن تصدر حكماً قبل التحقيق فى القول نفسه ، ولو فعلت ذلك لجافت منهج النبوة ، ولكانت أداة لزلزلة الصف وزعزعة الثقة ، عوضاً عن أن تكون صمام الأمان له ومحور اللقاء والثقة فيه، والنفاق لا يستطيع أن يتحرك ويتمطى ويثمر الثمرة المرة إلا فى الابتعاد عن المنهج النبوى فى التحقيق والإدانة .

٦ ـ ثم ماذا بعد التحقيق ؟ يأتى دور الاستماع للخصم ودفاعاته ، فلقد جاء ابن أبى وأقسم بالله تعالى ما قال ، وحلف على ذلك ، وتأزم الموقف من جديد، وانقسم الصفوة من الصحابة بين مصدق ومكذب ، بعد حلف ابن أبى ، فالذين

يعرفون ابن أبى لم يخالجهم الشك فى قوله، واندفع عمر بن الخطاب ﷺ ليقول: يا رسول الله، مر به عباد ابن بشر ليقتله ، ولا يمنع أن نقف قليلاً عند قول عمر ﷺ ، فالمعهود فى الفاروق ﷺ فى كل مواقفه أمام الانحرافات وتشكيكات المنافقين ، أنه يطلب الإذن بقتل هذا المشكك ، ومضت عنه هذه الكلمة : يا رسول الله ، دعنى أضرب عنقه فلقد نافق .

أما الآن فنحن أمام صورة جديدة، هذه الصورة أن عمر يطلب أن يقتله غيره، ولو أنعمنا البحث وتعمقنا فى فهم الأسباب لطالعتنا صورة نيرة خالدة ، هذه الصورة هى ترفعه عن أهوائه وانفعالاته ، فلقد كانت المواجهة بين جهجاه الغفارى مولاه وبين سنان الجهنى حليف الخزرج ، فلو طلب عمر قتل ابن أبى لكان الأمر محل شبهة ، أنه يود الثأر لنفسه ولمولاه من عبد الله بن أبى الخزرجى ، وحرصاً منه على ألا يختلط الأمر بين حميته لدينه، وحميته لنفسه ، ارتفع فوق رغبته الجامحة فى قتل رأس النفاق ، وأشار على رسول الله ﷺ أن يقوم أحد سادات الأنصار بقتله. والنقطة الثانية فى هذه الفقرة هى فى قسم ابن أبى نفسه أنه ما قال هذا الكلام ، فإقدامه على حلف هذه الأيمان الكاذبة يعنى أن رصيده قد انتهى نهائيًا من الصف المسلم ، فلو كان واثقاً أن هناك من يحميه ويؤيده غير هؤلاء العشرة ، لبقى مصرّا على قوله ، ولاستطاع أن يحرك الحمية الجاهلية فى نفوس قومه وهم أكثر الجيش ، وأن يقود انشقاقاً جديداً كما فعل فى أحد .

إنه لواثق أنه أعجز من أن يؤثر على فرد واحد فى هذه الظروف وبهذه الوقاحة السافرة. ومن أجل ذلك رأى أن مصيره الموت لو ثبتت إدانته ، ولن يثأر له أحد فلابدّ من تلافى الموقف من جديد ، وتكذيب الخبر حفاظاً على عنقه من الإطاحة ، وهو والعشرة معه لن يكونوا أكثر من نفخة فى رماد .

غير أننا نلاحظ اتجاهاً آخر غير اتجاه عمر ﷺ ، ولقد قوى هذا الاتجاه حين رفض رسول الله ﷺ فكرة قتله قائلاً : « فكيف إذا تحدث الناس أن محمداً يقتل أصحابه » .

هذا الاتجاه يقوم على التماس العذر لابن أبى فى مقالته ، ويعرض على رسول الله ﷺ فكرة الرفق به أو تخفيف عقوبة القتل عنه على الأقل ، ونلاحظ هذا الاتجاه لدى زعيمين من زعماء المدينة هما : أسيد بن حضير سيد الأوس ـ إذ

كان سعد بن معاذ قد قضى شهيداً فى الخندق ـ وسعد بن عبادة [1] سيد الخزرج إذ عرض رسول الله ﷺ الأمر عليهما كل على حدة، وكان جوابهما واحداً فى هذا الأمر ، فقال أسيد بن حضير : (. . . فأنت يا رسول الله تخرجه إن شئت، هو والله الذليل وأنت العزيز ، ثم قال : يا رسول الله ، ارفق به فوالله لقد جاءنا الله بك ، وإن قومه لينظمون له الخرز ليتوجوه فإنه يرى أنك استلبته ملكاً). وكان جواب سعد بن عبادة رضي الله عنه : (. . . فأنت يا رسول الله تخرجه إن شئت فهو الأذل وأنت الأعز،يا رسول الله، ارفق به فوالله لقد جاء الله بك وإن قومه لينظمون له الخرز ما بقيت عليهم إلا خرزة واحدة عند يوشع اليهودى ليتوجوه، فما يرى إلا قد سلبته ملكه) . ولقد اندفع بعض أفراد هذا الاتجاه إلى تصديق عبد الله بن أبى بعد يمينه ، وإلى تكذيب زيد بن أرقم الغلام المؤمن ، فيذكر المباركفورى رواية فيها : (أما ابن أبى فلما علم أن زيد ابن أرقم بلَّغ الخبر ، جاء إلى رسول الله ﷺ وحلف بالله ما قلت ما قال ولا تكلمت به ، وقال من حضر من الأنصار: يا رسول الله، عسى أن يكون الغلام قد أوهم فى حديثه ولم يحفظ ما قال الرجل) [2] . ونلاحظ هنا أن تمالؤ مجموعة من الأفراد فى الصف على موقف قد يؤدى إلى تغيير الواقع، لكننا نلاحظ أن أبعد مدىً وصل إليه عبد الله ابن أبى فى الصف المسلم، أن يوجد من يبرر له كلمته بدافع رغبته بالملك ، أو يوجد من يصدقه ويكذب غلاماً حدثاً ليس معه شاهد آخر على كلامه ، ومع هذا فنحن نعتبر أن هذا الموقف ليزيد القناعة بقوة هذا الصف وتراصه ، فأن تصل الثقة لدى أفراد هذا الصف بغلام فيه فوق الثقة بزعيم كبير من زعماء النفاق ؛ لهى دلالة واضحة على تعرى النفاق والمنافقين فيه ، وأن يقتصر الأمر على أفراد فى هذا الصف على توقع الوهم من الغلام لا الاختلاق ، فهو مستوى رفيع ولا شك فى تلاحم هذا الصف، وارتفاع الثقة فيه ، وفضح المشبوهين فيه.

٧ ـ ونقف كذلك عند جواب رسول الله ﷺ لعمر : « فكيف إذا تحدث الناس أن محمداً يقتل أصحابه » . وهو أمر أقرب ما نسميه **فى** المصطلح

---

(١) عند المقريزى : أن سعد بن عبادة هو الذى لقيه ، وعند ابن هشام : أن أسيد بن **حضير هو** الذى لقيه ، ومن المحتمل أن تكون المحادثتان معاً لخطورة الأمر ولحرص رسول الله ﷺ **على معرفة** رأى جميع قيادات الأنصار فى هذا الموقف .

(٢) السيرة النبوية لابن هشام ٢ / ٢٩١ .

الإسلامى بالسياسة الشرعية، وما أحوج الجنود فى الصف إلى فقه هذا الموقف .

فكثيراً ما يندفع الشباب المتحمسون فى الصف فى النقد العنيف للقيادة ، حيث تستعمل الحكمة والتؤدة فى معالجة الشاذين فى الصف والمتمردين عليه ، خاصة إذا كانت الأغلبية فى مركز أو تجمع تدين بآراء هؤلاء ، وتصبح القيادة بين نارين ، نار المتحمسين الذين يأخذون على القيادة تهاونها ، ونار الأعداء من الداخل الذين يتربصون الدوائر بهذه الجماعة لينزلوا بها كيدهم . فلا الشباب فى الداخل يعذرونها ، ولا الأعداء فى الخارج يرحمونها . إننا لا نتصور موقفا عدائيًا للجماعة المسلمة أخطر من موقف عبد اللّه بن أبى ، وإن مجرد قناعته أن يخرج العزيز منه الذليل ويعنى بها نفسه ورسول الله ﷺ ، فهو خلع لربقة الإسلام من عنقه وصار كافراً خالصاً ، وحكمه هو القتل ، لكنَّ ظاهر الأمر أنه من الصف ، فالإقدام على قتله ، والمعركة الدعائية على أشدها بين المسلمين والكافرين تجعل للكفار سبيلاً كبيراً للتشهير بالمسلمين والنيل منهم وتشويه سمعتهم لدى الآخرين ، وظاهر الأمر أن رسول اللّه ﷺ لم يكن يخشى تأثير ابن أبى فى هذه المرحلة ، ومع أن الأمر لم يثبت عليه بعد ، ومع أنه حلف أنه لم يقل هذا الكلام ، فلم نر فى الصف كله واحداً يقبل كلامه أو يقرُّ به، إنما أقصى ما وصل التأثر به هو اعتبار زيد واهماً فى النقل، أو طلب الرأفة به لفقدانه الملك العضوض الذى فاته. ولا يوجد فى ظاهر الأمر إلا هؤلاء العشرة من الصف كله قبلوا كلامه وسكتوا عليه ، والمقصود فى هذا التأكيد هو أن رسول اللّه ﷺ حين رفض قتله لم يكن بسبب خوف من تصدع الصف الداخلى عنده ، ولم يكن خوفاً من تأثيره فى داخل صفه ، إنما كان فقط توقفاً سياسيًا حتى لا يعطى العدو فرصة للتشهير بالصف الإسلامى أمام المحايدين : « فكيف إذا تحدث الناس أن محمداً يقتل أصحابه » .

إنه كثيراً ما يسود الصفوف اتهام صارخ للقيادة بسكوتها على المخربين ، أو صبرها على بعض الانحرافات داخل الصف، مع أن ظروفاً داخلية وخارجية تمر بها الجماعة المسلمة تقتضى منها تأجيل بعض الأحكام أو توقيف بعض التصرفات، ولعل جنود الصف يدركون المدى الأبعد للقيادة فى حرية التعامل فى صفها الداخلى، أو مع عدوها الخارجى من خلال هذه الحادثة. لقد امتنع رسول اللّه ﷺ

عن قتل رجلٍ نزل الوحى فيما بعد بتكذيبه وبصحة ما وجه إليه من كفر بواح، وهو يهدد: ليخرجن الأعز منها الأذل، وذلك لاعتبارات سياسية بحتة، ولسمعة الجماعة المسلمة ألا تتفتت عند أعدائها، فيستغل العدو هذه الفرصة.

ما أحوجنا إلى أن ندع الحرية للقيادة فى التعامل مع شبابها ومع خصومها، فهى أدرى بالظروف التى تتعرض لها منا، ومن حقنا أن نوضح رأينا، كما فعل عمر رضي الله عنه وهو يطالب برأس ابن أبى، أو كما فعل سعد وأسيد وهما يطالبان بالرفق به. لكن ليس من حقنا أن نفرض رأياً نرتئيه، ولا أن نتهم القيادة فى موقف اتخذته هو من حقها، ويحسن ألا يغيب عن بالنا أن قيادة الحركة المسلمة فيها من العلم والعلماء ما يجعلها على بصيرة من تصرفاتها.

لكن أشير إلى نقطة مهمة كذلك هى صلاحية القيادة للحركة، والقيادة للدولة، فقيادة الدولة قادرة على تنفيذ الحكم الشرعى بالقتل أو السجن أو النفى على أفرادها، كما هى قادرة فى كثير من الأحيان على مواجهة خصومها، ومع ذلك، فيتم مراعاة بعض الظروف والاعتبارات السياسية المحيطة بها، والتى تجعلها تتوقف فى تنفيذ الأحكام، فمن باب أولى أن تكون قيادة الحركة أعجز وهى محكومة بظروف قاهرة من دول أخرى لها قوانينها وأعرافها، ولا تتعدى سلطتها المعنوية على أفرادها فصلاً أو تجميداً مهما كانت خطيئة الجندى، وذلك حين تتعارض المصلحة العامة للجماعة ومصلحة الفرد.

لقد رأينا رسول الله ﷺ لا يتعرض لمن ارتد أو تزعزع بأذى فى مكة لأنه لا سلطان له فى هذه الدولة، بينما رأيناه يقيم الحدود وينفذ الأحكام وهو الحاكم الأعلى فى المدينة، والذين يفرون من المدينة مرتدين إلى سلطة أخرى لا تطالهم يده فيها. يدعهم وشأنهم إلى أن يكون قادراً على تنفيذ القصاص فيهم.

٨ ـ ولابد من الإشارة كذلك لموقف سيدى الأنصار، وهما يقولان لرسول الله ﷺ: (يا رسول الله، ارفق به، فوالله لقد جاء الله بك، وإن قومه لينظمون له الخرز ما بقيت عليهم إلا خرزة واحدة عند يوشع اليهودى ليتوجوه، فما يرى إلا قد سلبته ملكه). فهذا الكلام وإن كان ظاهره يوحى طلب الرحمة بابن أبى، لكن حقيقته فضح للدوافع النفسية لهذا الموقف عنده.

إن حب الزعامة عنده هو الذى قاده إلى هذا الموقع، وإن فقدان الملك هو

الذى جعله فى موقع الحرب ضد رسول اللّه ﷺ برغم ما رأى من الآيات البينات والدلائل الباهرات على صدق رسول اللّه عليه الصلاة والسلام ، وهذا المرض الرهيب هو من أخطر الأمراض داخل الصف المسلم ؛ مرض حب الزعامة والتنافس على السلطة ، وهذا المرض يقود فى كثير من الأحيان إلى تدمير الجماعة المسلمة أو شق صفها على أقل تقدير . إن الفرق بيننا وبين الجاهليين هو أنهم يحتكمون إلى أعراف سياسية أو أعراف ديمقراطية ، فإذا خرجوا عليها فهو خروج على مبادئ صاغوها وجعلوا لها الحكم عليهم . أما الفئة المسلمة فالتزام الجماعة دين فيها ، والسمع والطاعة للأمير فرض من فروضها ، وقبول حكم الحاكم الشرعى بيعة من نكث فيها فإنما ينكث على نفسه ، ومن أوليات الإسلام السمع والطاعة فى المنشط والمكره ، ومن أوليات الإسلام السمع والطاعة ولو ولى عبد حبشى على المسلمين كأن رأسه زبيبة ما أقام كتاب اللّه .

كما نشير فى هذا الموقف كذلك إلى الغلالة الرقيقة التى يتستر وراءها الخارجون على الجماعة ، هذه الغلالة هى مصلحة الجماعة نفسها والحرص عليها، ومحاولة التمييز فى صفوفها ، وفقدان العدل بين شبابها ؛ لتظهر فيما بعد النوازع الدفينة وهى فقدان المركز الحساس لهذا الثائر على جماعته ، وفوت الفوز فى انتخابات معينة ، دفعته ليمضى فى التشهير والجرح والتحطيم ما وسعه سبيل إلى ذلك ، وإذا هو حين يتقلد منصباً أو يتسلم سلطة تذهب هذه الغيرة العظيمة على مصلحة الجماعة ، وينقلب مدافعاً عنها وعن قيادتها .

إن كثيراً من المواقف المعادية للحركة الإسلامية تنطلق من حب الزعامة والمنصب ، وبالإمكان أن تعالج أحياناً هذه المواقف ، ويصعب أو يستحيل معالجتها فى حين آخر . إن طالب الزعامة والمنصب قد يراعى فى بداية الأمر، وقد يتساهل معه فى بعض الجزئيات، لكن أن يستمرئ هذا الإنسان هذه المراعاة، فلا يرضى إلا أن يكون الجميع تحت إمرته أو أن يكون الجميع بقيادته ، وهو لا يستحق هذا المركز ، ولا يستأهل هذا المنصب ، فحينئذ يكون من الخرق مراعاة مثل هذا النوع من الناس أو الاستجابة لطلباتهم ، حتى إن كثيراً من الذين يعادون الإسلام إنما يعادونه خوفاً على مصالحهم ، وخوفاً على زعامتهم ، وأوضح مثال على ذلك موقف أبى جهل من الإسلام ورسول الإسلام ، (تنازعنا نحن

وبنو عبد مناف الشرف ، أطعموا فأطعمنا ، وسقوا فسقينا حتى إذا تحاذينا على الركب، وصرنا كفرسى رهان قالوا : منا نبى يأتيه الوحى من السماء) . والحركة الإسلامية الواعية ، تتخذ الموقف الوسط والأنسب فى هذه الأمور ، فلا حرج عليها أن تراعى بعض هذه النوعيات ، وإشعارها بمقامهم المحفوظ فى الإسلام ، أو أن ترفض أية مراعاة لهم حين ترى خطرهم على الجماعة والدعوة ، والموقف واحد مع من هو داخل الصف أو خارجه ، فى حركة إسلامية أو مستقل الرأى أو فى موقف معادٍ للدعوة والحركة .

٩ ـ ويطالعنا موقف المسلم العظيم عبد الله بن عبد الله بن أبى الذى كان له دور كبير فى إنهاء سلطان أبيه من أرض الإسلام ، وذلك فى تصرفين عظيمين :

التصرف الأول : وبعد أن ثبت له عن طريق الوحى صدق مقالة زيد فيما نقله عن أبيه، تبرأ من أبيه ، ووقف له على باب المدينة ، واستل سيفه . فلما جاء ابن أبى قال له: والله لا تجوز من ها هنا حتى يأذن لك رسول الله ﷺ فإنه العزيز وأنت الذليل ، فلما جاء النبى ﷺ أذن له فخلى سبيله[1] . ومثل هذا التصرف لا يجدى إلا من عبد الله من جهة ، ولا يقدره إلا عبد الله من جهة أخرى، فهو لا يجدى إلا منه لأن كل الخزرج بل الأنصار تعرف بر عبد الله بأبيه، فلو أقدم أى واحد من المسلمين على هذا الموقف لكان خوفه من سيف عبد الله الابن قائماً فى كل لحظة ولن يرضى ذل أبيه ، وقد تقع فتنة أعظم تحول دون هذا الاعتراف بالذل من رأس النفاق ، ولا يقدره إلا عبد الله من جهة أخرى ؛ لأنه الوحيد الذى لا يخشى سطوة أحد من المنافقين أتباع أبيه ، إنهم حين يرون الولد يضع السيف على عنق أبيه ، لن يتجرأ أحد على النيل من الولد ؛ لأنه هو حامى ذمار أبيه ، ولن يكون أحد أغير وأثأر للأب من ابنه . لقد كان هذا الموقف من المواقف الخالدة فى التاريخ ، والذى أحرق كيد المنافقين كله حين رأوا عبد الله بن عبد الله بن أبى يذل أباه ، بل يمنعه من دخول المدينة حتى يأذن له رسول الله صلوات الله وسلامه عليه .

التصرف الثانى : حين قدم على رسول الله ﷺ وقال له: يا رسول الله، إن كنت تريد أن تقتل أبى فيما بلغك عنه فمرنى به ، فوالله لأحملن إليك رأسه قبل

(١) انظر : فتح البارى شرح صحيح البخارى لابن حجر العسقلانى ٨/ ٦٥٢ .

أن تقوم من مجلسك هذا ، والله لقد علمت الخزرج ما كان فيها رجل أبر بوالده منى ، وإنى لأخشى يا رسول الله أن تأمر غيرى بقتله ، فلا تدعنى نفسى أنظر إلى قاتل أبى يمشى فى الناس فأقتله فأدخل النار ، وعفوك أفضل ومنّك أعظم . فقال رسول الله ﷺ : « ما أردت قتله وما أمرت به ، ولنحسن صحبته ما كان بين أظهرنا » . فقال : يا رسول الله إن أبى كانت هذه البحيرة قد اتسقوا عليه ليتوجوه ، فجاء الله بك فوضعه ورفعنا بك ، ومعه قوم يطيفون به يذكرونه أموراً قد غلبه الله عليها .

وإذا حق لنا أن نعتبر بعض الحوادث منعطفات فى تاريخ النفاق ، فلعمرى إن هذه الحادثة أولى منها جميعاً بذلك ، فعبد الله المؤمن على استعداد أن يقط رأس أبيه عن جسده بحركة من شفتى رسول الله ﷺ، أو إيماءة ـ ورسول الله لا يقتل إيماء ـ وبذلك يغدو عبد الله زعيم النفاق كأمس الدابر ، وحين نرى مثل هذا القول لا نشك أصلاً أنه إنما قال لينفذ ، وليس وقوفه دون دخول أبيه المدينة حتى يقر بأنه هو الذليل ، وأن محمداً هو العزيز ، وحتى يأذن له رسول الله ﷺ بدخولها ، ليس هذا الموقف إلا دليلاً على ذلك.

لكن عظمة هذه النفس البشرية ـ نفس عبد الله الابن ـ لتبدو أعظم وهى تتحدث عن نقاط ضعفها ، ونقاط نقصها ، إنه ليعلن أن الحمية الجاهلية قد تلعب برأسه ، لو قتل أباه أحد غيره ، وهو يعرف عتو هذه الجاهلية ، وقوتها الكامنة فى أعصابه ، وفى حالة الحمية هذه قد يفقد توازنه ، ويفقد رشده ، ويفقد دينه، فيقدم على قتل مسلم بكافر ، فيؤدى ذلك به إلى النار .

فليس المسلم إذن سموا كله ، وليس تساميا كله ، بل من نجد عنده قمة السمو قد نجده فى مكان آخر فى زلة ضخمة قد تقوده إلى الضلالة والكفر . ومن الخطورة بمكان ـ ونحن نتناول أحداث السيرة ـ أن يكون التركيز دائماً على نقاط التسامى ، فأن تعرض هذه الحادثة ليؤخذ قسمها الأول فى استعداده لقتل أبيه فقط ، يجعل بين هذا الصحابى العظيم وبيننا هوة كبيرة سحيقة لن نتمكن تجاوزها فنيأس ونحكم على حركتنا بالفشل ، أما عرض الموقف كله من الشخص نفسه فهو دليل من جانب آخر على طبيعة هذه النفس البشرية الواحدة القادرة على الارتفاع إلى الأفق ، والقادرة على الهبوط إلى الحضيض ، القادرة على التطبيق

الحى لأوامر اللّه عز وجل ، ولو أدى ذلك لقتل ألصق الناس بها ، والمستعدة للولوغ فى الوحل ونتن الجاهلية فتقتل مسلماً بكافر ثأراً وحمية وتدخل النار ، وجانب العظمة لدى عبد اللّه ﷺ هو أنه لم يجد حرجاً فى عرض خشيته من ذلك الانحدار أمام رسول اللّه ﷺ ، ويدع الأمر بعد ذلك لقائده يوجهه لما يشاء ، وهو درس لكل جندى يكلف بمهمة ، أو يرى حدثاً معيناً يخشى منه الفتنة أن يعرضه لقيادته حتى تكون على بينة من طبيعة هذا الجندى ، فقد تغير الأمر نتيجة التعرف على هذا العرض .

وأخيراً يضعنا هذا الموقف لعبد اللّه ﷺ على جانب من الوضع النفسى له ، فكل خشيته قائمة من دخول النار لو زلّ وعصى واستجاب لثأره ، وليس خوفه على قتل أبيه أو خسارة سمعته أو لوم عشيرته . لقد أصبح يتحرك فى عواطفه من خلال عقيدته ، لكن ضغط مقتل أبيه على أعصابه يخشى أن يزعزعه إلى ذلك المستوى الذى تجاوزه ، ويصبح من عداد أهل النار .

١٠ ـ ولا يفوتنا أن نستعرض موقف الغلام المؤمن فى هذه الحادثة : موقفه وهو يمضى سريعاً لرسول اللّه ﷺ ؛ ليخبره بما سمع وهو الواجب على كل جندى أن يكون حارساً أميناً على دعوته ، وموقفه وهو ثابت كالطود أمام تكذيبه ، ويصر على صدق ما سمعه ، وينفى أمام قائده أن يكون له هوىً بهذا الأمر ، أو يكون قد أخطأ فى نقله ، أو أخطأ فى فهمه ، وموقفه فى مواجهة التيار العام الذى ثار ضده من قادة قبيلته ، وهو يتحداهم جميعاً بقوله : واللّه إنى لأرجو أن ينزل اللّه على نبيه حتى تعلموا أنى كاذب أم غيرى ، فلم تزلزله هذه الهجمات كلها بل بقى على موقفه ، وثقته برب السموات والأرض أن يظهر الحق لنبيه ، وأن يأتى الوحى تصديقاً له ، ويتعبد به الناس إلى يوم الدين .

ومن أجل هذا حرص رسول اللّه ﷺ على رفع معنوياته أمام هذا الهجوم الرهيب عليه حين جاء الوحى مصداقاً لقوله ، فإذا هو يأخذ بأذنى زيد ويقول : «وفَّت أذنك يا غلام وصدَّق اللّه حديثك » . وإذا بكل تمالؤ الحسب والنسب ينهار أمام الوحى ، ويرتفع هذا الفتى المؤمن باللّه وبرسوله فوق الشبهات ، وفوق الزعامات بعد أن صدَّقه اللّه تعالى ، وكذَّب رأس النفاق الذى لم يتورع عن الحلف كاذباً فى سبيل المحافظة على مركزه وسطوته، فلا يستصغرن أخ نفسه من

أجل هذه المهمة ، وليعتبر نفسه مقام هذا الغلام المؤمن ، فلا يصمت على حديث يسيء للجماعة ، مهما كانت صعوبة الإبلاغ قائمة ، وكم يستشعر الجندى بالثقة وهو يجد قيادته تتصرف مباشرة بعد التأكد من صحة كلامه ، وألا يكون لدى قيادة الجماعة حرج فى أن تستمع لمثل هذه الآراء ، وتتعرف على ما يجرى داخل الصف .

١١ ـ وأخيراً نلاحظ معالجة رسول الله ﷺ للموقف على جبهات عدة ، وهو يود أن يستأصل هذه الظاهرة من الجذور ، وهو موقف أحوج ما تكون القيادة للتأسى به وهى تعالج هذه الظاهرة .

أ ـ فالتثبت والتحقق من الحادثة هو الواجب الأول ، وهو ما رأيناه من الأسئلة العديدة التى وجهها رسول الله ﷺ لزيد قبل أن يحكم على صحة مقالته، وإذا كان النبى عليه الصلاة والسلام قد فعل ذلك ، فأحرى بأية قيادة أن تتثبت قبل أن تصدر الحكم ؛ لأنها هى المسؤولة عن أمن جماعتها وأفرادها ، وتسرعها بإصدار الحكم يعنى بتر بعض قواعدها، أو إثارة فتنة فى صفِّها ، أو ظلم جندى من جنودها ، والجماعة التى لا تقدر الفرد فيها لن تستطيع أن تستفيد منه ساعة المحنة ، وإذا كنا لا نملك وحياً بعد رسول الله ﷺ يثبت الواقعة أو يكذبها ففى البيانات التى اشترطها الإسلام من الشهود العدول ، أو من البينات التى قدمها العلم الحديث كالتسجيل لكلام المتهم أو التصوير له جوانب فرعية يمكن أن تساعد فى سعة التحقيق وصحته .

ب ـ ثم فى مواجهة انتشار الفتنة ، إذ أمر رسول الله ﷺ بالرحيل فى وقت لم يكن يرحل فيه ، وكما يقول ابن هشام فى السيرة : (ثم مشى رسول الله ﷺ بالناس يومهم ذاك حتى أمسى ، وليلتهم حتى أصبح ، وصدر يومهم ذاك حتى آذتهم الشمس، ثم نزل فى الناس فلم يلبثوا أن وجدوا مس الأرض فوقعوا نياماً، إنما فعل ذلك رسول الله ﷺ ليشغل الناس بالحديث الذى كان بالأمس) [١] .

فلابد إذن من إشغال الناس عن الفتنة ، والقاعدون حين تشتعل الفتنة لا يكون لهم حديث إلاها حتى فى المجتمع النبوى ، والقيادة الحكيمة هى التى تملأ فراغ شبابها بعمل مثمر ، أو تدريب مناسب ، أو جهاد مباشر للعدو بحيث يستفرغ

(١) السيرة النبوية لابن هشام ٢/ ٢٩٢ .

العمل وسعهم ويستنفذ طاقتهم ، ويصرفهم عن الانشغال بالقيل والقال وكثرة السؤال، وعن تأثرهم سلباً أو إيجاباً بهذه الترهات .

ج ـ ثم كان عرض الرأى على الخلّص من أصحاب عبد اللّه بن أبى بعد أن ثبت له صدق الغلام دون أن ينقل الحديث إلى أفراد الصف ، ومعالجته بالحكمة الممكنة ، وهذا الأمر لو أحكم فى صف الجماعة المسلمة لجنبها كثيراً من المآزق ، أن يكون أمر الأمن أو الخوف محدوداً بمستويات معينة لا يتجاوزهم ، أما المنافقون فهم الذين يشيعون قالة السوء ، ويسارعون فى نشرها وهم يتلذذون بذلك وقد وصفهم اللّه تعالى بقوله : ﴿ **وإذا جاءهم أمرٌ من الأمن أو الخوف أذاعوا به ولو ردّوه إلى الرسول وإلى أولي الأمر منهم لعلمه الذين يستنبطونه منهم** ﴾ [النساء : ٨٣] . فمنهج التبليغ للخبر ، ومنهج التلقى يجب أن يكونا سليمين ، وكثيراً ما يحدث أن بعض الأفراد فى مستوى معين من المسؤولية أو فى القيادة العامة للجماعة، فيتساهل فى بعض الأسرار ، فإذا بها تنتقل عن طريقه ، وتزكم الأنوف كلها ، وتكون مادة الحديث ليتسلى الصف أو يتصارع بها .

وكانت حكمة رسول اللّه ﷺ أن سمع رأى سعد بن عبادة وأسيد بن حضير وعمر بن الخطاب ، واكتفى بذلك إلى أن جاء الوحى بصدق زيد رضي الله عنه وصحة ما نقله عن ابن أبى، فأصبح لدى رسول اللّه ﷺ موقف آخر. فلقد وقف عبادة بن الصامت موقفاً حازماً من عبد اللّه بن أبى ، وكذلك أوس بن خولى إذ (مرّا عليه فلم يكلماه ، فورم أنفه وقال : إن هذا الأمر قد تمالأتما عليه ، فرجعا إليه فأنباه وبكتاه بما صنع وبما نزل من القرآن إكذاباً لحديثه فقال: لا أعود أبداً) . وترك رسول اللّه ﷺ الأمر للخزرج فى معالجة عبد اللّه بن أبى فكان الموقف العظيم لابنه ، ولبنى عشيرته الأدنين . ونتساءل : لماذا كان موقف رسول اللّه ﷺ بهذا التساهل مع عبد اللّه بن أبى ؟ والجواب واضح .

فهو أولا : مطمئن إلى أن قومه سوف ينفضون عنه جميعاً ، فلقد أصبح خطره محدوداً وأمره مفضوحاً للجميع .

وهو ثانياً : يود ألا يفتح له مجالاً للخروج من الصف والانقضاض عليه بحيث يخرج ويتآمر مع اليهود والمشركين وأسرار الصف عنده ، وأى ضغط عليه قد يقوده إلى هذا الموقف كما فعل أبو عامر الفاسق الذى خرج مع خمسين من

قومه وانضم لأهل مكة ، فأن يكون مراقباً فى جميع تصرفاته أولى من أن ينقل أسرار الجماعة المسلمة إلى عدوها ، ومن أجل ذلك كان جواب رسول اللّه ﷺ واضحاً لابنه حيث قال له: «ما أردت قتله، وما أمرت به، ولنحسن صحبته ما دام معنا » .

وهو ثالثاً : يعلم أن عبد اللّه بن أبى قد احترق نهائيّا بنزول سورة (المنافقون) حيث صارت على كل لسان ، وما من مسلم يتلو هذه السورة ، ويبقى عنده شك فى تقييم ابن أبى ، أو الثقة به ، إلا إذا كان يظهر الإسلام ويبطن الكفر ، وحتى يبقى هذا المعنى راسخاً فى أذهان المسلمين ، كان رسول اللّه ﷺ يتلو هذه السورة فى كل يوم جمعة تقريباً مع سورة الجمعة ، فلو تاب عبد اللّه بن أبى توبة نصوحاً وخاف الآخرة ، لم تعد السورة لتمسه بعد أن حسنت توبته ، وإن بقى مصرّا على موقفه ، فسيبقى المسلمون فى مفاصلة تامة معه وهم يتلون كتاب اللّه ويقرؤون شهادة اللّه تعالى به وبأمثاله أن هؤلاء المنافقين كاذبون ، وأنهم اتخذوا أيمانهم جنة ليصدوا عن سبيل اللّه . وهكذا نستطيع القول : إن جبهة المنافقين التى كان يقودها عبد اللّه بن أبى ، قد تصدعت تصدعاً تاماً بعد أن كانت قادرة على تصديع الصف الإسلامى كله .

ولم يعد لعبد اللّه بن أبى ناصر أو معين ، وأصبح مكان الإذلال فى قومه بعد أن كان فى مكان الصدارة ، بينما لو قتل لتحركت الحمية من جراء قتله برؤوس بعضهم بعد قتله ، وقد يغدو مظلوماً شهيداً عند آخرين من ضعاف الإيمان وكان هذا الأمر هدفاً واضحاً ومحدداً من رسول اللّه ﷺ أن يجعل كل الناس ينفضون عن ابن أبى ، بعد أن كان أكثرهم يجتمعون عليه .

يقول ابن إسحاق: (وجعل بعد ذلك إذا أحدث الحدث كان قومه هم الذين يعاتبونه، ويأخذونه ويعنفونه ؛ فقال رسول اللّه ﷺ لعمر بن الخطاب ، حين بلغه ذلك من شأنهم : « كيف ترى يا عمر، أما واللّه لو قتلته يوم قلت لى: اقتله، لأرعدت له أنوف لو أمرتها اليوم بقتله لقتلته » ، قال عمر : قد والله علمت لأمر رسول الله ﷺ أعظم بركة من أمرى) [1].

(١) السيرة النبوية لابن هشام ٢ / ٢٩٣ .

ح ـ المنافقون وحديث الإفك :

الذى يتبادر إلى الذهن أن حديث الإفك كله هو من صنع المنافقين ، وأنهم هم الذين خاضوا فيه، غير أن النص القرآنى واضح فى أن الذى جاء بالإفك فريق من المؤمنين: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ . . . ﴾ [النور : ١١] ، والآيات المتتالية تناقش المؤمنين الذين خاضوا فيه : ﴿ . . . ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا ﴾ [النور : ١٢] ، لكن دور المنافقين كان فى تأجيج هذا الحدث ونشره ، فقد أشارت عائشة رضي الله عنها إلى أن الذى تولى كبره : هو عبد الله بن أبى حيث تقول : (وكان كبر ذلك عند عبد الله بن أبى ابن سلول فى رجال من الخزرج الذى قال مسطح وضمنه) . وتصف عائشة رضي الله عنها انتشار الخبر فتقول : (. . . فلما اطمأنوا طلع الرجل يقود بى . فقال أهل الإفك ما قالوا ، فارتعج العسكر والله ما أعلم بشىء من ذلك . . .) .

وما كان المنافقون ليجرؤوا على بث هذا الحديث والخوض فيه بعد الفضيحة التى نالتهم وبعد التعرية التى نزلت بابن أبى ، لكن انتشار الحديث واستفاضته فى الصف الإسلامى جعل المجال رحباً لهم أن يدسوا أنوفهم فيه، ويشعلوا النار من خلف الستار، ولعل عبد الله ابن أبى وحده هو الذى برز من خلال النص أنه تولى كبره ، ومعه ثلاثة من الصف الإسلامى الخالص : حسان بن ثابت ، شاعر رسول الله ﷺ ، وممن قال له رسول الله : «اهجهم وروح القدس معك » ، ومسطح بن أثاثة ؛ وهو من المهاجرين، ومن شهد بدراً ، وابن خالة عائشة رضي الله عنها ومن المقيمين فى بيت أبى بكر رضي الله عنه ، وحمنة بنت جحش ابنة عمة رسول الله ﷺ ، وزوج شهيد الإسلام العظيم مصعب بن عمير .

ونستطيع أن نقول فى نهاية المطاف : إن ظاهرة المنافقين ابتدأت معسكرا قبيل أحد ، وبلغت ذروتها فى أحد ، وظهر عظم خطرها على الصف الإسلامى ، وانتهت فردا أو أفرادًا يعدون على الأصابع ، وأصبح الصف الإسلامى نقيا خالصا وذلك بعظمة تربية النبى ﷺ التى دفعت الكثير منهم إلى أن يسلم ويحسن إسلامه . غير أن هذه الظاهرة عادت للظهور مرة ثانية بعد فتح مكة وانتشار الإسلام فى الأرض العربية ، وبدت أوضح ما يكون فى غزوة تبوك حيث تناولت سورة براءة فضح كل أساليبهم ومخططاتهم ، وسبب عودة ظاهرة النفاق هو أن

فتح مكة جعل الكثيرين يدخلون حوفا فى الإسلام ، فيظهرونه ويبطنون الكفر ، ومجال معالجة ذلك فى المرحلة الثانية من العهد المدنى إن شاء الله .

السمة الخامسة عشرة

الوجود اليهودى فى المدينة وإنهاؤه

كان اليهود موجودين فى المدينة ، وبعد قيام دولة الإسلام تم الاعتراف الرسمى بهم . وذلك من خلال نصوص المعاهدة النبوية التى تم فيها تحديد العلاقات بين فئات المجتمع فى المدينة المسلمة وغير المسلمة ، وكانت الفقرات [1] التى تخص اليهود فى هذا الميثاق كفيلة بإيضاح حقوقهم وواجباتهم .

الاعتراف بالوجود اليهودى فى الدولة المسلمة :

حيث كانت النصوص تعالج نوعين من التجمعات اليهودية :

النوع الأول: وهى التجمعات اليهودية الصغيرة المرتبطة بتجمع القبيلة الكبير . (وأن اليهود ينفقون مع المؤمنين ما داموا محاربين) . فنفقات الحرب التى تقع على القبيلة توزع على أفرادها مسلمين ومشركين ويهود . وكل تجمع يهودى هو فى الأصل جزء من القبيلة ، يمكن أن يكون حليفاً للقبيلة ، ويمكن أن يكون حليفاً للمؤمنين من خلال قبيلته . (إلا من ظلم وأثم ، فإنه لا يوتغ إلا نفسه وأهل بيته) .

وفى هذا التجمع الصغير لا يترك الأمر دون تنظيم ، ولا يضار المجتمع كله بعد ، وإن كان واحداً من أفراده ، وذكر الميثاق الحقوق المماثلة ليهود بنى عوف وليهود بقية القبائل كاملة ، ثم اعتبر بطانة يهود كأنفسهم وذلك ضمن الأطر العامة التالية :

١ ـ (وإن البر دون الإثم) .

٢ ـ (وإنه لا يخرج أحد منهم إلا بإذن محمد ﷺ) .

٣ ـ (وإنه لا ينحجز ثأر على جرح) .

---

(١) تم ذكر هذه الفقرات فى السمة الأولى من سمات هذه المرحلة فلا ضرورة لذكرها .

٤ ـ (وإن اليهود ينفقون مع المؤمنين ما داموا محاربين) .

النوع الثانى : ويعالج وضع التجمعات اليهودية الكبيرة ، وهو أقرب ما يكون لأن يمثل الحلف السياسى ، فاليهود هنا تجمعات كبيرة ضخمة ، احتاج إنهاؤهم عندما نقضوا العهد إلى حروب وحصار ، لهم سلطانهم الخاص وأراضيهم وقلاعهم وبيوتهم . وبالرغم من أن البنود قصيرة جداً وهى تخصهم بالذات ، لكنها ذات أهمية خاصة (وأن اليهود ينفقون مع المؤمنين ما داموا محاربين) . فهو النص السابق نفسه من حيث النفقة للتجمعات الصغيرة . (وأن على اليهود نفقتهم ، وعلى المسلمين نفقتهم) إذ رأينا من قبل أن التجمعات اليهودية الصغيرة تشارك بمقدار ما يلحقها فى كيان قبيلتها العام . أما هنا فالتجمعات اليهودية الضخمة تشارك فى النفقات بما يوازى ويناسب نفقات المسلمين جميعاً من قريش ويثرب ، فعلى اليهود نفقتهم وعلى المسلمين نفقتهم (وإن بينهم النصر على من حارب أهل هذه الصحيفة) ، ومع أنه لم يكن بين قريش واليهود أدنى ثارات قديمة أو دماء أو خلاف،لكن قريشاً حين تهدد المسلمين فهى بهذا تهدد يثرب كلها، ومن أجل هذا عليهم أن يلبوا طلب قيادة المدينة حين تطلب منهم ذلك، وكان بالإمكان أن يمضى هذا الأمر طيلة العهد النبوى بعد أن أخذ شرعية وجوده من التعاقد مع رسول الله ﷺ ، لكن اليهود وطبيعتهم الأساسية فى نقض المواثيق طغت عليهم، فتم عقابهم على ضوء نقضهم لهذه المواثيق ، وسنعالج وضعهم بالتفصيل .

بنو قينقاع

يقول ابن إسحاق : (وكان من حديث بنى قينقاع أن رسول الله ﷺ جمعهم بسوق بنى قينقاع ، ثم قال: « يا معشر يهود، احذروا من الله ما نزل بقريش من النقمة،وأسلموا فقد عرفتم أنى نبى مرسل تجدون ذلك فى كتابكم وعهد الله إليكم » قالوا : يا محمد ، إنك ترى أنَّا قومك ! لا يغرنك أنك لقيت قوماً لا علم لهم بالحرب ، فأصبت منهم فرصة ، إنا والله لئن حاربناك لتعلمن أنا نحن الناس) [1] .

---

(١) السيرة النبوية لابن هشام ٢ / ٤٧ .

(قال ابن هشام : كان من أمر بنى قينقاع أن امرأة من العرب قدمت بجلَب لها فباعته بسوق بنى قينقاع وجلست إلى صائغ بها ، فجعلوا يريدونها على كشف وجهها فأبت ، فعمد الصائغ إلى طرف ثوبها فعقده إلى ظهرها ، فلما قامت انكشفت سوءتها ، فضحكوا بها ، فصاحت فوثب رجل من المسلمين على الصائغ فقتله ، وكان يهوديّا ، وشدت اليهود على المسلم فقتلوه ، فاستصرخ أهل المسلم المسلمين على اليهود، فغضب المسلمون، فوقع الشر بينهم وبين بنى قينقاع) (١) .

كانت الجولة الأولى لليهود لا تتجاوز المواجهة الإعلامية . فقد وقفوا موقفاً سفيهاً من رسول الله ﷺ ودعوته ، وفضحهم القرآن فضحاً بيناً وهو يرد على افتراءاتهم وأكاذيبهم . والقرآن الكريم غنى بنماذج من ذلك ، ويكاد يكون الجزء الأول من سورة البقرة فى دحض ادعاءاتهم وتفنيد أباطيلهم : ﴿ **ولَمَّا جاءَهُمْ كتابٌ مِنْ عند اللَّه مُصدِّقٌ لما معَهُمْ وكانُوا من قَبْلُ يستَفْتحُونَ علَى الَّذين كَفَرُوا فلَمَّا جاءَهُم مَا عَرفُوا كفَرُوا به فلَعْنَةُ اللَّه علَى الْكَافرينَ . بئْسمَا اشْتَرَوْا به أَنفُسهُمْ أَن يكْفُرُوا بما أَنزلَ اللَّهُ بغْيًا أَن يُنزِّلَ اللَّهُ من فَضْله علَىٰ من يَشَاءُ من عبَاده فَبَاءُو بغَضَبٍ علَىٰ غَضَبٍ وللْكَافرينَ عذَابٌ مُّهينٌ . وإذَا قيلَ لَهُمْ آمنُوا بما أَنزلَ اللَّهُ قَالُوا نُؤْمنُ بما أُنزلَ علَيْنَا ويَكْفُرُونَ بمَا وَرَاءَهُ وَهُوَ الْحَقُّ مُصدِّقًا لِّمَا معَهُمْ قُلْ فلمَ تَقْتُلُونَ أَنبيَاءَ اللَّه من قَبْلُ إِن كُنتُم مُّؤْمنينَ . ولَقَدْ جاءَكُم مُّوسَىٰ بالْبَيِّنَات ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعجْلَ من بَعْده وأَنتُمْ ظَالمُونَ . وإِذْ أَخَذْنَا ميثَاقَكُمْ ورَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُم بقُوَّة واسْمَعُوا قَالُوا سَمعْنَا وعَصَيْنَا وأُشْرِبُوا في قُلُوبهمُ الْعجْلَ بكُفْرهمْ قُلْ بئْسمَا يَأْمُرُكُم به إِيمَانُكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمنينَ** ﴾ [البقرة : ٨٩ ـ ٩٣] .

هذا الكفر البواح الذى وقفوه من رسول الله ﷺ أرفقوه بكثير من الدسائس والمؤامرات فى الخفاء لتأجيج نار الفتنة بين المسلمين ، كما فعل شاس بن قيس فى تحريكه الفتنة بين الأوس والخزرج ، وكما فعل بعض أحبار اليهود حين كان يستهزئ بآيات الله فلم يتمالك أبو بكر رضي الله عنه من ضربه ، فأنزل الله تعالى آياته تدعو المؤمنين للصبر على أذاهم فى قوله عز وجل : ﴿ **لَتُبْلَوُنَّ في أَمْوَالكُمْ وأَنفُسكُمْ ولَتَسْمَعُنَّ من الَّذينَ أُوتُوا الْكتَابَ من قَبْلكُمْ ومنَ الَّذينَ أَشْرَكُوا أَذًى كَثيرًا وإِن تَصْبرُوا وتَتَّقُوا فإِنَّ ذَلكَ من عَزْم الأُمُور** ﴾ [آل عمران : ١٨٦] .

وكانت الجولة الثانية بعد بدر ، حيث تحـرك الغيظ فى قلوب بنى قينقاع،

(١) السيرة النبوية لابن هشام ٢/٤٨ .

ولا غرابة أن يكون الاحتكاك الأول معهم ؛ لأنهم كانوا (يسكنون داخل المدينة ـ فى حى باسمهم ـ وكانوا صاغة وحدادين وصناع الظروف والأوانى ، ولأجل هذه الحِرَف كانت قد توفرت لكل رجلٍ منهم آلات الحروب ، وكان عدد المقاتلين فيهم سبعمائة ، وكانوا أشجع يهود المدينة ، وكانوا أول من نكث العهد والميثاق من اليهود) [1] . (فلما قدم من بدر بغت يهود وقطعت ما بينها وبين رسول الله ﷺ من العهد ، فجمعهم بسوق بنى قينقاع وقال : «يا معشر يهود ، أسلموا قبل أن يوقع الله بكم مثل وقعة قريش، فوالله إنكم لتعلمون أنى رسول الله » ، فقالوا: يا محمد ، لا يغرنَّك من لقيت ، إنك قهرت قوماً أغماراً [2] ، وإنا والله أصحاب الحرب ، ولئن قاتلتنا لتعلمن أنك لم تقاتل مثلنا) [3] .

لقد كانت محاولة سليمة عدم فتح جبهة مع يهود بنى قينقاع ، وفى هذه المحاولة كان الإنذار الخفى بالحرب ، حتى لا يتجرؤوا على المسلمين ويأخذوهم بغتة ، لكن الغرور قد أخذ مبلغه من اليهود وأصبحوا يبدون مظاهر العداوة للمسلمين (وتوسعوا فى تحرشاتهم واستفزازاتهم فكانوا يثيرون الشغب ، ويتعرضون للسخرية ، ويواجهون بالأذى كل من ورد سوقهم من المسلمين حتى أخذوا يتعرضون بنسائهم) . وأعلنوا فى جوابهم بعد اللقاء المذكور أنهم مستعدون للحرب ، بل يهددون فيها كذلك ، ومع ذلك فرسول اللّه ﷺ يصبر حتى لا يكون أول من نقض العهد ، وأفهمهم بذلك اللقاء بالكلام اللين وبالكلام الخشن ما يدفعهم إلى أن يرعووا عن غيرهم ولكن دون جدوى .

والحركة الإسلامية ـ ثم الدولة الإسلامية بعد ذلك ـ مطلوب منها أن تكون يقظة تمام اليقظة مع حلفائها ، فطالما أن الخلاف الفكرى قائم، فهذا يعنى أن هذا الحلف مؤقت ، ويعنى أن الحلف منطلق من مصلحة هذا الحليف ، فليس له أسس متينة للاستمرار . والدعاة إلى اللّه لا يدعون فرصة مواتية ليذكروا بالتعهدات التى قدمها الحليف للحركة إلا ويستفيدون منها ، كما أنه لا يجوز أن يركنوا إلى الدعة طالما أن حليفهم قوى ، قد يستغل الفرصة السانحة للانقضاض ، وهذا الخطر الذى يحتمل أن تتعرض له الحركة الإسلامية فى تحالفاتها مع أعدائها

---

(١) الرحيق المختوم للمباركفورى ص ٢٦٤ ، ٢٦٥ ، وانظر : إمتاع الأسماع للمقريزى ١ / ١٠٥ .

(٢) أغماراً : لا علم لهم بالحرب . (٣) إمتاع الأسماع للمقريزى ١/ ١٠٤ .

خاصة والعدو جاثم فى الأرض ، مستند إلى قوة ، فالوعى الحذر ، والإعداد الدؤوب هو الأمر الواجب تنفيذه حتى لا يؤخذ المسلمون على غرة .

وكانت الحادثة التى فجرت الموقف ، حادثة المرأة المسلمة التى راودها اليهود عن كشف وجهها فأبت ، فعقدوا ظهر ثوبها فانكشفت سوءتها عندما قامت ، فاستغاثت، وكان مقتل اليهودى والمسلم ، ولم يكن مقتل المسلم أمراً فرديّا ، فلقد كان تمالؤاً عامّا من اليهود وإعلاناً بنبذ العهد منهم . فلو كان حادثاً فردياً لأمكن معالجته وقتل القاتل ، لكن الملأ من يهود هم الذين اجترؤوا وقتلوا ، فأنزل الله تعالى : ﴿ **وإمّا تخافنّ من قوم خيانة فانبذ إليهم على سواء إنّ الله لا يحبّ الخائنين** ﴾ [الأنفال : ٥٨] . فقال ﷺ : « أنا أخاف بنى قينقاع » . فسار إليهم رسول الله ﷺ يوم السبت النصف من شوال بعد بدر ببضعة وعشرين يوماً ، وفهم رسول الله ﷺ الحرب من الآية، فقال: « أنا أخاف بنى قينقاع » ، فاحتمال الغدر قائم كل لحظة ، ولئن سكت المسلمون على هذه الجريمة فهذا يعنى أنهم ضعاف وبالتالى فهم معرضون للغزو فى كل لحظة،ولم يكن هناك خيار من المعركة وإن كان لابد من ذلك فليكن المسلمون هم البادئون . لقد نبذ إليهم رسول الله ﷺ منذ أن دعاهم إلى الإسلام ، وفى تحرك سريع خاطف كان اليهود محاصرون فى بيوتهم وحصونهم .

إنه لمما يؤسى له أن نجد اليهود اليوم ينفذون هذه الخطة والمسلمون غارقون فى سباتهم. وإنا على ثقة أن اليهود اليوم يثأرون لهزائمهم التاريخية من قبل ، وهم ينفذون الخطط التى كان رسول الله ﷺ يقاتلهم بها. أما العرب الذين تخلوا عن إسلامهم فينفذون خزى يهود، وذل يهود الذى كان أيام النبوة .

إن عرض المرأة المسلمة كفيل أن يشعل حرباً رهيبة مع العدو، وقام الحصار الذى استمر خمسة عشر يوماً على يهود حتى استسلمت للذبح من أجل التعرض لكشف سوأة امرأة مسلمة من اليهود ، بل حتى من أجل إصرارها على ألا تكشف وجهها لليهود، وما أحوجنا أن نستعيد هذه المعانى ، ونحن نبنى صفنا الداخلى ، ونربيه على الثأر والثورة للعرض والدين ، وأن يكون القتل أحب للمسلم من الحياة الخانعة الذليلة وعرضه مباح .

ونزل اليهود على حكم رسول الله ﷺ وهُيِّئوا للقتل،بينما تبقى ذراريهم

ونساؤهم لولا أن تدخل عبد اللّه بن أبى فحفظ لهم حياتهم ، وأمرهم رسول اللّه أن يجلوا عن المدينة .

ولئن حفظت السيرة موقف عبد اللّه بن أبى منهم ، وتواطؤه معهم ، فقد حفظت كذلك عظمة عبادة بن الصامت وهو يتبرأ منهم ويتولى اللّه ورسوله وجماعة المؤمنين . وأضيف إلى المسلمين بعد خروج اليهود ذخيرة جديدة من المال والسلاح وآلات الحرب، وأنهوا عدواً لدوداً مقيماً بين ظهرانيهم لم يحفظ العهد ولم يرع الميثاق. ولا شك أن هذه الحركة العسكرية قد أجهضت المناوئين الآخرين، وجعلت بنى قريظة وبنى النضير على خوف وحذر شديدين من المواجهة .

ولقد حدد القرآن الكريم هذا المعنى بدقة بأن الضربة القوية الحاسمة من الحركة الإسلامية ـ قمينة بإرهاب بقية الأعداء : وبخاصة الذين ينقضون الميثاق ﴿إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِندَ اللَّهِ الَّذِينَ كَفَرُوا فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ . الَّذِينَ عَاهَدتَّ مِنْهُمْ ثُمَّ يَنقُضُونَ عَهْدَهُمْ فِي كُلِّ مَرَّةٍ وَهُمْ لَا يَتَّقُونَ . فَإِمَّا تَثْقَفَنَّهُمْ فِي الْحَرْبِ فَشَرِّدْ بِهِم مَّنْ خَلْفَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ . وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ خِيَانَةً فَانبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَىٰ سَوَاءٍ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْخَائِنِينَ . وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَبَقُوا إِنَّهُمْ لَا يُعْجِزُونَ . وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنفِقُوا مِن شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ ﴾ [الأنفال : ٥٥ ـ ٦٠] . فالآيات هذه تنزلت فى بنى قينقاع ، ولم يكن بين بدر وبين بنى قينقاع إلا حوالى عشرين يوماً. وكأنها توجيهات عسكرية مباشرة إلى طبيعة المواجهة بين المسلمين واليهود . واليهود هم شر الدواب عند اللّه،وهم الذين نقضوا عهدهم،وهم الذين يتابعون هذا النكث، فلابد أن تكون الحرب معهم حاسمة بحيث تشرد من خلفهم من الأعداء ، وترعب من وراءهم من الحلفاء .

وها نحن نجد الحركة الإسلامية حين أعلنت بعض فصائلها الحرب ضد الطواغيت تغدو مرهوبة الجانب ، منيعة عزيزة ، يخشاها العدو ، ويسارع الخصوم إلى التحالف معها. فلقد أصبحت أملهم فى الإنقاذ من براثن هذا الطاغوت ، ومهما عتا الطاغوت وتجبر، فهو يخشى الثأر والانتقام، فيملأ السجون، ويدمر البيوت ، ويذبح الآمنين ، لكنه ما أن تحل به عملية ضخمة من عمليات الثأر حتى يستنفر جيشه وسراياه ومخابراته كلها لهول هذه الضربة.

وهذا خط يحسن أن تتربى الحركة الإسلامية عليه كذلك وهى تواجه أعداءها، أن تكون الضربة موجعة ، والعملية مـزلزلة حتى يُحل الإرهاب فى القلوب ، أو تسقط النظام الكافر ، وتشرد به من خلفه من أحلافه وزبانيته .

بنو النضير

(. . . ثم كانت غزوة بنى النضير فى ربيع الأول على رأس سبعة وثلاثين شهراً من مهاجر النبى ﷺ . . . وسببها : أن عمرو بن أمية الضمرى لما قتل الرجلين من بنى عامر، خرج رسول الله ﷺ إلى بنى النضير يستعين فى ديتهما ـ لأن بنى النضير كانوا حلفاء لبنى عامر ، وكان ذلك يوم السبت ـ فصلى فى مسجد قباء ومعه رهط من المسلمين، ثم جاء بنى النضير ومعه دون العشرة من أصحابه فيجدهم فى ناديهم ، فجلس يكلمهم أن يعينوه فى دية الكلابيين الذين قتلهما عمرو بن أمية ، فقالوا : نفعل ، اجلس حتى نطعمك ، ورسول الله ﷺ مستند إلى بيت ؛ فخلا بعضهم إلى بعض ، وأشار عليهم حيىّ بن أخطب أن يطرحوا عليه حجارة من فوق البيت الذى هو تحته فيقتلوه ، فانتدب لذلك عمرو بن جحاش يطرح عليه صخرة ، وهيأ الصخرة ليرسلها على رسول الله ﷺ وأشرف بها ، فجاء الوحى بما هموا به ، فنهض ﷺ سريعاً كأنه يريد حاجة ، ومضى إلى المدينة . فلما أبطأ لحق به أصحابه ـ وقد بعث فى طلب محمد بن مسلمة ـ فأخبرهم بما همت به يهود ؛ وجاء محمد بن مسلمة فقال : « اذهب إلى يهود بنى نضير فقل لهم : إن رسول الله أرسلنى إليكم أن اخرجوا من بلدى ، فإنكم قد نقضتم العهد بما هممتم به من الغدر ، وقد أجلتهم عشراً ، فمن رؤى بعد ذلك ضربت عنقه . . . ») [1] .

لئن كانت غزوة بنى قينقاع بعد بدر فغزوة بنى النضير بعد أحد ، وبعد المحنة الشديدة فيها ، والتجربة المرة لبنى قينقاع دفعتهم رغم محنة أحد إلى التوقف عن نقض العهد ، وطالما أن العهد مصون ، فالصلات قائمة ، والأمان مستتب بين الفريقين ، وقدم عليه الصلاة والسلام إلى بنى النضير يستعينهم فى دية قتيلين من

(١) إمتاع الأسماع للمقريزى ١/١٧٨ ، ١٧٩ .

بنى عامر قتلهما عمرو بن أمية الضمرى ﷺ ؛ لأن بنى النضير كانوا حلفاء بنى عامر ، فلقد كان ذهاب رسول اللّه ﷺ إليهم يمثل قمة من الوفاء فى العهد ، فليس لبنى عامر حلف مع رسول اللّه ﷺ ، وبالتالى فرسول اللّه ﷺ يمكن أن يتجاهل الأمر .

ومقتل هذين الرجلين إنما تم من عمرو بن أمية ؛ لأن بنى عامر قد ساهم زعيمهم فى ذبح سبعين من المسلمين فى بئر معونة ، وقدَّر عمرو أنه يأخذ بثأر الشهداء من هذين الرجلين . وتقول الرواية كذلك : إن لهذين الرجلين عهداً عند رسول اللّه ﷺ لم يدر بهما عمرو ؛ ولهذا مضى عليه الصلاة والسلام مع نفر يسير من أصحابه فالقوم حلفاء للمسلمين، لكن سيطرة السجية اليهودية طغت عليهم، فدأبهم فى تاريخهم نقض العهد وقتل الأنبياء ونكث المواثيق وخفر الذمم، فوجدوها فرصة سانحة لقتل محمد ﷺ وهو بين ظهرانيهم ، ولو كان الأمر اندفاعاً أعمى من جندى متحمس لهان الأمر ، لكن رئيسهم حيى بن أخطب هو صاحب الفكرة وهو صاحب الاقتراح، فالتمالؤ متوفر من القيادة العليا عندهم وأقره عليه أزلامه وزبانيته . كما رأينا التمالؤ من قبل فى بنى قينقاع ، وانتدب لذلك عمرو بن جحاش ليطرح عليه صخرة . لقد قتلوا يحيى وزكريا أنبياءهم من بنى إسرائيل ، فكيف لا يقتلون محمداً وقد نزع منهم النبوة والملك وهو من بنى إسماعيل ؟ وتداركت رحمة اللّه تعالى الموقف، فأبلغ الوحى رسول اللّه ﷺ بما هموا به ، فمضى عائداً إلى المدينة ، موهماً اليهود أنه ماض لقضاء حاجة ، حتى لا يكون التصرف مفاجئاً ، فيثير انتباههم إلى كشف هدفهم ومخططهم ، ولحق به الصحابة الذين كانوا معه ، دون أن يعرف اليهود شيئاً عن جلية الأمر . إن القائد المسلم هدف ثمين للعدو ، وفى كثير من الأحيان لابد أن يعتمد على يقظته وانتباهه وحسن تصرفه فى اللحظة العصيبة ، كما لابد أن يكون للحركة الإسلامية رجالها فى صفوف العدو المحالف ، تكشف مخططاتهم واتجاهاتهم فى نقض العهد أو الوفاء به . فلقد انقطع الوحى بعد رسول اللّه ﷺ ، وأصبح تحسس أخبار العدو من مهمة الحركة الإسلامية ، ووقوع الدعاة إلى اللّه فى شرك أعدائهم أو حلفائهم من خلال غفلتهم ونيتهم الطيبة لا يعفيهم من المسؤولية أمام اللّه عز وجل ، ولا شىء أقوى للحركة الإسلامية من أن تتعامل مع حلفائها أو أعدائها

ببلاهة ظاهرية ، بحيث تعرف مخططاتهم وتتظاهر بجهلها لهذه المخططات ؛ لأن هذا التعامل هو الذى يكشف المخبوء من النوايا ، والمستور من الشر. ولا شىء أكثر ضرراً على الحركة الإسلامية من الاندفاعات العاطفية لمن يتحسسون أخبار أعدائهم . فلابد أن يكون من يكلف بمثل هذا الدور على مستوى من الهدوء وحضور البديهة واليقظة ، ما يطمس طبيعة مهمته ويبعد الشك عن دوره الذى يقوم به .

ولقد علَّمنا قائدنا عليه الصلاة والسلام سرية التخطيط وسرعة المبادهة من خلال هذا التظاهر بقضاء الحاجة ، وكيف مكث اليهود ينتظرون عودته لقتله ، تماماً كما رأينا ليلة الهجرة ، وقد أناب عليّا ﷺ فى النوم مكانه؛ ليجعل المشركين هانئين ينتظرون استيقاظه لقتله . أما نقض العهد دون دليل قاطع ، فليس من حق الحركة الإسلامية ، وكانت المنابذة فى خطاب رسول الله ﷺ لحيى على لسان محمد بن مسلمة : (أن اخرجوا من بلده، فإنكم قد نقضتم العهد بما هممتم به من الغدر) . فالهم بالغدر ثابت ، ولم يناقش اليهود به لأنهم يعلمون صدق نبوة محمد ﷺ ، ولم يعترضوا على الأصل ، بل كان ردهم سفيهاً فى الاستعداد للحرب ورفض الجلاء : (إنا لا نخرج فليصنع ما بدا له) .

وليس من شيمة المقاتل المسلم أن يوعد فلا يفى ، أو يهدد فلا ينفذ ، فيصبح كلامه لا وزن له، فما وصل رد اليهود فى الصبح حتى كان رسول الله محاصرهم عصراً ، وصلى العصر فى فضاء بنى النضير، وتحرك ـ الطابور الخامس ـ ليعلن ولاءه مرة ثانية لليهود ، ويؤكد لهم سراً على لسان عبد الله بن أبى : (أن أقيموا ولا تخرجوا فإن معى من قومى وغيرهم من العرب ألفين يدخلون معكم فيموتون من آخرهم دونكم) ، ولم يأتهم ابن أبى، واعتزلتهم قريظة فلم تعنهم بسلاح ولا رجال . وهذا درس للمؤمنين على مر العصور ، فالصف المسلم القوى يحرق النفاق وخططه ، ولا يجرؤ دعاة الشر والفتنة أن يتحركوا أمام وحدة الصف المسلم وقوته ، إنما يتحركون حين يجدون الصف مزعزعاً والعزيمة خائرة ، والنفوس خائرة الثقة بقيادتها ، وحين نجد فى صفنا الأرض الخصبة للإشاعة والتشكيك والدس الرخيص ، فعلينا أن نعيد بناء صفنا ونمتن لحمته من جديد، وليس المنافقون وحدهم هم الذين ذعروا وأووا إلى جحورهم ، بل بنو قريظة

كذلك ـ الفريق الثالث من اليهود.

وجرى أثناء الحصار ثلاث حوادث جلية وهامة :

الحدث الأول : النبل الذى كان ينزل على دار القيادة وهى القبة من أدم التى كان رسول اللّه ﷺ يقيم فيها ، وكان قائد النبالة وأمهرهم هو عزوك اليهودى ، فكمن له على ﷺ وقتله . وكان يود مرة ثانية أن يغتال رسول اللّه ﷺ مع عشرة معه . فلم يكتف رسول اللّه ﷺ بقتله بل أرسل أبا دجانة وسهل بن حنيف فى عشرة لاحقوا الكتيبة الفدائية اليهودية فقتلوها عن بكرة أبيها وأتوا برؤوسهم فطرحت فى الآبار ، وكان وجودهم رفعاً عظيماً لمعنويات المسلمين ، وهو درس لنا اليوم بضرورة بث الرعب فى صفوف العدو من خلال العمليات الفدائية الناجحة، فلم يجرؤ اليهود بعد ذلك على مغادرة حصونهم ورمى نبالهم؛ لأنهم يعلمون أن أرواحهم غدت فى خطر بعد ذبح أبطالهم .

الحدث الثانى : وهو التعرض لنخلهم الذى يعيشون عليه ، فها هم يرون النار تشتعل بمحصولاتهم وتمرهم ، والذى كلف بهذا الأمر أبو ليلى المازنى ، وعبد اللّه ابن سلام (حبر اليهود من قبل) ، فراحوا يطلبون برجاء أن يبقى لهم على نخيلهم فأبقاه ، وانبثقت فتنة جديدة تثير الشغب لهذا الحريق ، وتشكك فى تصرف القيادة ، فلابد أن يكون أحد التصرفين حق لأن كليهما متناقضان . فأكد القرآن صحة التصرفين ، وأعاد مخطط يهود إلى جحره بقوله تعالى : ﴿ **ما قطعتم مِن لِينة** (١) **أو تركتموها قائمةً على أصولها فبإذن اللّه وليُخزي الفاسقين** ﴾ [الحشر : ٦] . فلابد أن يفاجأ العدو بأعز ما يملك حتى يستسلم . وهو ما فعله عليه الصلاة والسلام بهم .

الحدث الثالث : حيث أدى الحدثان السابقان إلى طلب التسليم من رسول اللّه ﷺ معلنين استعدادهم للخروج بعد أن دام حصارهم ستة أيام ، وهنا اختلف الأمر ، فلقد كان طلب رسول اللّه ﷺ منهم أن يخرجوا، لكن الأمر الآن وبعد هذا الحصار لن يكون كما كان من قبل، والحساب بعد الحرب غير الحساب قبلها فقال عليه الصلاة والسلام لهم: « لا أقبله اليوم ، ولكن اخرجوا منها ولكم دماؤكم وما حملت الإبل إلا الحلقة (٢) ».

(١) لينة : نخلة . (٢) الحلقة : السلاح .

ويؤسفنا أن نقول : إن اليهود الذين يعيشون تاريخهم من آلاف السنين قد وعوا هذا الدرس القاسى وحفظوه، فطبقوه على المسلمين كما فعل بهم رسول الله عليه الصلاة والسلام ، فعندما اجتاح اليهود الأرض العربية عام سبعة وستين وتسعمائة وألف بقوة السلاح، قبل العرب العودة إلى قرار التقسيم الصادر عام سبعة وأربعين وتسعمائة وألف ، فرفض اليهود ذلك ، وأعلنوا أنهم لن يعودوا لحدود الرابع من حزيران .

إنها دروس استقاها اليهود من عدوهم الأول الذى أنهى وجودهم ، فتلمسوا أساليبه يطبقونها فى حربهم مع أتباعه ، أما جيل أمتنا المنكود الذى هجر قرآنه ونبيه كان يحارب اليهود وهو يحارب الله ورسوله فأذله الله تعالى وعاقبه. لقد عاش عشرين عاماً وهو يتصارع على السلطة ويتنافس على الحكم ، ويمتص حكامه دماء شعوبه باسم الحرب ، فلما جد الجد انهار البناء الفاسد دفعة واحدة ، كمثل شجرة خبيثة اجتثت من فوق الأرض مالها من قرار.

وبث رسول الله ﷺ فى صفوف اليهود أن الذى يسلم منهم سوف يأخذ ماله، فأسلم يامين بن عمر وأبو سعد بن وهب ونزلا فأحرزا أموالهما ، واستطاع أحدهما أن ينفذ عملية فدائية ضخمة فى قلب يهود . وهى اغتيال ابن عمه عمرو ابن جحش الذى أراد اغتيال رسول الله ﷺ ، وكانت عملية الاغتيال هذه على يد رجل من قيس جعل له عشرة دنانير أو خمسة أوسق من تمر على قتله ، وسر رسول الله ﷺ بذلك .

وهذه فسحة واسعة للدعاة المقاتلين كى يصلوا إلى أعدائهم عن أى طريق، فقد لا تتهيأ الظروف للمسلمين الوصول إلى أعدائهم نتيجة الحراسة عليهم وتحصنهم فى حصونهم ، فبالمال أو إغراء أفراد من قلب التنظيم الكافر يمكن القضاء على أولئك الأعداء، والحرب خدعة، فلا حرج من سلوك أية طريق تؤدى إلى الهدف مع هذا العدو الذى ناصبته العداء، وآذنته بالحرب، وأعلنت موقف المواجهة ضده، ومن خلال صفوفه الداخلية ، ومن خلال الرغبة فى المال يمكن تحقيق هذه الأهداف البعيدة فى القضاء عليه ، ولا أحد أدرى بمواطن الضعف والخلل فى العدو من أبناء صف العدو نفسه ، وإسلام يامين رضي الله عنه دفعه للثأر لرسول الله ﷺ ولما يمر على إسلامه اليوم واليومان ، وذلك بقتل ابن عمه وأقرب الناس إليه .

(وأقام على حصار يهود خمسة عشر يوماً حتى أجلاهم وولى إخراجهم محمد بن مسلمة ، وكانوا فى حصارهم يخربون بيوتهم بأيديهم مما يليهم ، والمسلمون يخربون ما يليهم ويحرقون حتى وقع الصلح ، فجعلوا يحملون الخشب، ويحملون النساء والذرية ، وشقوا سوق المدينة، والنساءُ فى الهوادج عليهن الحرير والديباج وحلى الذهب والمعصفرات، وهن يضربن الدفوف ويزمرن بالمزامير تجلداً ، وقد صف لهم الناس وهم يمرون، فكانوا على ستمائة بعير . فنزل أكثرهم بخيبر فدانت لهم ، وذهبت طائفة منهم إلى الشام ، فكان ممن صار منهم إلى خيبر أكابرهم كحيى بن أخطب ، وسلام بن أبى الحقيق ، وكنانة بن الربيع ابن أبى الحقيق ، وحزن المنافقون لخروجهم أشد حزن) (١) .

إنها أمة من أمم اليهود تهزم ويبلغ غيظها أن تهدم بيوتها بأيديها ، وترغم على الصلح بترك سلاحها كله غنيمة للمسلمين ، وتمضى فى محنتها مشردة فى الأرض جزاء نكالاً لنقضها العهد ، وطعنها بالمواثيق ، تحمل حليها ومتاعها ، وتترك شرفها وسلاحها غنيمة للمؤمنين كما وصفها اللّه تعالى : ﴿ **هُوَ الَّذِي أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِن دِيَارِهِمْ لأَوَّلِ الْحَشْرِ مَا ظَنَنتُمْ أَن يَخْرُجُوا وَظَنُّوا أَنَّهُم مَّانِعَتُهُمْ حُصُونُهُم مِّنَ اللَّهِ فَأَتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُم بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِي الْمُؤْمِنِينَ فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِي الأَبْصَارِ . وَلَوْلا أَن كَتَبَ اللَّهُ عَلَيْهِمُ الْجَلاءَ لَعَذَّبَهُمْ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الآخِرَةِ عَذَابُ النَّارِ . ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُّوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَمَن يُشَاقِّ اللَّهَ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ** ﴾

[الحشر : ٢ ـ ٤]

فلقد أخرجهم اللّه تعالى وقذف فى قلوبهم الرعب لأنهم شاقوا اللّه وحاربوا رسوله ، فما بالهم اليوم يعودون ظافرين إلى أرض الميعاد ـ كما يزعمون ـ ويكون الخروج والتهجير لأبناء الأرض الإسلامية ؟ من لاجئين إلى نازحين إلى وافدين بعد كل حرب مع اليهود يقع الجلاء لمن يسمون ـ مسلمين ـ وتصبح الأرض وراثة لليهود . إنه السبب نفسه الذى أجلى اليهود من أجله ، وذلك بأنهم شاقوا الله ورسوله ومن يشاق الله فإن الله شديد العقاب .

والثورة الفلسطينية اليوم التى تريد العودة إلى فلسطين ، إلى أرض الإسراء التى اغتصبها اليهود ، تريد أن تعود بنفس الراية ، راية مشاقة الله ورسوله ،

(١) إمتاع الأسماع للمقريزى ١/ ١٨١ .

فمنظمة التحرير الفلسطينية ـ التى لا يعترف العالم إلا بها ممثلة للشعب الفلسطينى ـ والثورة الفلسطينية تريد أن تعود إلى الأرض باسم العلمانية ، باسم اللادينية ، تريد أن تقيم دولة لا تنطلق من الدين ، بل من شريعة البشر ، وأهواء البشر ، وجهل البشر ، تريد أن يكون الحكم فيها لغير الله، فأى مشاقة لله ورسوله أكبر من هذه المشاقة ؟! ولهذا فما يزداد الأمر إلا عسراً، وما يزداد الدم المتفجر إلا بعداً عن هذه الأرض ، فقد لاحق اليهود مسلمى هذه الأرض من فلسطين إلى لبنان وشردوهم فى الأرض، وأبعدوهم لا عن الديار فقط، بل عن جوار الديار. فهل آن لهؤلاء التائهين أن يعودوا إلى الله، فينالوا نصره ، وأن يتوبوا إلى الله ، ويعطيهم مدده ؟! إن المشردين عن ديارهم لن يعودوا وهم شاردون تائهون عن الله، إنهم فى التيه ، تيه بنى إسرائيل ، وقارب التيه أربعين ، ولما يصح أبناء الإسلام على مكمن الخطر[1] ، ومكمن الداء ، إنه واحد لبنى إسرائيل ، وبنى إسماعيل ، وبنى الأرض جميعاً ﴿ **ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُّوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَمَن يُشَاقِّ اللَّهَ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ** ﴾ . أما سلاح يهود الذى غنمه المسلمون فكان : خمسين درعاً ، وخمسين بيضة ، وثلاثمائة وأربعين سيفاً . كان لها وزنها الكبير فى تسليح الجيش الإسلامى الناشئ، وكانت قوة للمؤمنين فى حربهم مع الكافرين.

بنـو قريظـة

لقد كانت نهاية بنى قينقاع بعد بدر .

وكانت نهاية بنى النضير بعد أحد [2] .

وكانت نهاية بنى قريظة بعد الخندق .

وكانت نهاية بنى قريظة من أسوأ النهايات ؛ لأن غدرهم كان أعظم الغدر ، وكان يمثل الطبيعة اليهودية أكبر تمثيل ، وكان الدور الأكبر فيه للزعيم المهزوم حيى ابن أخطب سيد بنى النضير الذى جلا إلى خيبر ، وعاد إلى مكة يشعل النار فيها

(١) ونحمد الله عز وجل أن صحا أبناء الإسلام فى فلسطين على الخطر وقامت حركة حماس بالانتفاضة ثم المواجهة. واتخذت من الإسلام منهجاً ومن الجهاد سبيلاً ومن التحرير هدفاً. راجين الله تعالى أن يتحقق فيهم موعود الله بنصره وتأييده .

(٢) هناك رأى مفاده : أن غزوة بنى النضير كانت بعد بدر بستة أشهر .

لتغزو محمدا فى عقر داره ، فتثأر له من محمد بن عبد الله .

فلقد كانت غزوة الأحزاب أثرا من آثار اليهودية (وسبب ذلك أنه ﷺ لما أجلى بنى النضير ساروا إلى خيبر ، وبها من يهود قوم أهل عدد وجلد ، وليس لهم من البيوت والأحساب ما لبنى النضير . فخرج سلام بن أبى الحقيق وحيى بن أخطب ، وكنانة بن أبى الحقيق ، وهوذة بن قيس الوائلى من الأوس وأبو عامر الراهب فى بضعة عشر رجلاً إلى مكة يدعون قريشا وأتباعها إلى حرب رسول الله ﷺ، فقالوا لقريش: نحن معكم حتى نستأصل محمداً ؛ جئنا لنحالفكم على عداوته وقتاله. فنشطت قريش لذلك ، وتذكروا أحقادهم ببدر، فقال أبو سفيان: مرحباً وأهلاً ، أحب الناس إلينا من أعاننا على عداوة محمد .

وأخرج خمسين رجلاً من بطون قريش كلها وتحالفوا وتعاقدوا ـ وقد ألصقوا أكبادهم بالكعبة وهم بينها وبين أستارها ـ ألا يخذل بعضهم بعضاً ، ولتكون كلمتهم واحدة على محمد ما بقى منهم رجل. ثم قال أبو سفيان: يا معشر يهود، أنتم أهل الكتاب الأول والعلم ، أخبرونا عما أصبحنا نختلف فيه نحن ومحمد ، أديننا خير أم دين محمد ؟ فنحن عمَّار البيت ، وننحر الكوم [1] ، ونسقى الحجيج ونعبد الأصنام !

فقالت يهود : اللهم أنتم أولى بالحق منه ؛ إنكم لتعظمون هذا البيت ، وتقومون على السقاية ، وتنحرون البدن ، وتعبدون ما كان عليه آباؤكم ، فأنتم أولى بالحق منه فأنزل الله تعالى فى ذلك : ﴿ **أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيباً مِّنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا هَؤُلاءِ أَهْدَى مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا سَبِيلاً** ﴾ [النساء : ٥١] ، واتعدوا لوقت وقَّتوه ، وخرجت يهود إلى غطفان ، وجعلت لهم ثمر خيبر سنة إن هم نصروهم . وتجهزت قريش ، وسيَّرت تدعو العرب إلى نصرها ، وألبوا أحابيشهم [2] ومن تبعهم وأتت يهود بنى سُلَيْم فوعدوهم السير معهم[3] .

وكان خروج بنى النضير بأحقادهم وذلهم دافعاً لهم على تغيير الحلف الذى

---

(١) الكوم : جمع كوماء ، وهى الناقة المشرفة السنان العالية .

(٢) الأحابيش : نسبة إلى جبل حبْشى بأسفل مكة ، وهم بنو المصطلق وبنو الهون بن خزيمة حلفاء قريش .

(٣) إمتاع الأسماع للمقريزى ١ / ٢١٦ ـ ٢١٨ .

نقضوه ، ليكون حلفهم الجديد مع عدو محمد ﷺ الأول قريش ، وقد استطاعوا بنشاطهم السياسى أن يؤلبوا معظم العرب على حرب رسول الله ﷺ ، فهم أقنعوا سليم وغطفان وقريش بحرب رسول الله ﷺ .

وواقع الحركة الإسلامية اليوم لابد من حربه مع اليهود عاجلاً أو آجلاً ، والتعرف على التخطيط اليهودى الماكر فى رغبته باستئصال شأفة المسلمين يفيدنا اليوم كثيراً فى هذه المعركة ، فبنو النضير الذين أحنوا رقابهم لفترة مؤقتة ، سرعان ما اشتعل مرجل الحقد فى قلوبهم بعد الهزيمة ، وراحوا يؤلبون العرب ضد الإسلام والمسلمين ، ويتحالفون معهم لا على هزيمة محمد ﷺ فقط ، إنما على استئصال شأفته ، واليهود اليوم يتحالفون مع الحكام العرب حلفاً غير معلن ، ومن وراء ستار فى ضرب الحركات الإسلامية فى بلادهم ضرباً يستأصل شأفتها وينهيها من جذورها .

وكثيراً ما تصمت إسرائيل وتحقق الأمن مع بعض جاراتها العربيات ريثما يتمكن الحكام من إبادة المجاهدين فى سبيل الله ، وما أحداث حماة ولبنان إلا نماذج من هذه النماذج حيث تدك المدن على أهلها وتدفن مساجدها بأهليها ؛ بترابها وركامها حتى لا يرتفع للإسلام صوت ، أو تقوم قائمة ، وما أشبه الليلة بالبارحة !

كما نفقه كذلك ما تبذله اليهودية من مال لذلك، وكم كان سلاح المال رائجاً عندها ، فلقد فكرت أن تشترى الخليفة المسلم بالمال مقابل السماح لها بالهجرة إلى فلسطين ، بل اشترت الإنكليز بالمال فى الحرب العالمية الأولى مقابل وعد بلفور بالسماح لها بإقامة وطن يهودى فى فلسطين ، فهى هنا تتبرع بثمر خيبر عاماً كاملاً مقابل دخول غطفان الحرب ضد المسلمين ، وهى تمد الأعداء بالبضائع ليحاربوا المسلمين ، فلقد كانت إفريقيا سوقاً يهودية ، وكان اعتراف سبع عشرة دولة إفريقية بإسرائيل هو الثمن .

وفى عالم السياسة لا وزن للمبادئ إلا عند المسلمين ، واليهود أكثر الناس تناقضاً مع مبادئهم حين يكون لهم مصلحة فى ذلك مثلهم مثل النصارى والمشركين، بل هم أشد عداوة ؛ ولذلك رأيناهم يفضلون المشركين الوثنيين على المسلمين الذين يؤمنون بالله وتحكيم كتابه وهم يعلمون أن محمداً نبى مرسل ، ومع ذلك

فهم يشهدون لقريش بصحة دينها الوثنى ، وعلينا ألا نغتر كثيراً بالقواسم المشتركة بيننا وبين حلفائنا ، فسرعان ما تتغير المصلحة فتسقط المبادئ ، ويرمى بها جانباً أمام مصلحتهم .

والتضليل الفكرى الذى يمارسه اليهود ضد المسلمين والإسلام فى العالم يكاد يسد الأفق، ومن خلال الأفكار المطروحة فى العالم تحت أى اسم لاجتثاث المسلمين من جذورهم، وما المحافل الماسونية والأفكار التحررية والوجودية والماركسية والعلمانية إلا صورة من صور هذا التضليل ، إنهم يؤمنون بالجبت والطاغوت ، ويقولون للذين كفروا : هؤلاء أهدى من الذين آمنوا سبيلاً .

ولئن كان دورهم فى البداية رهيباً ، فلم يرعووا عن ذلك ، بل راحوا يؤججون النار مع إخوانهم من بنى قريظة لنقض العهد ، وذلك فى قلب المعركة كما تروى السيرة عن زعيمهم حيى بن أخطب : (وكان حيى بن أخطب يقول لأبى سفيان بن حرب ولقريش فى مسيره معهم: إن قومى قريظة معكم، وهم أهل حلقة وافرة، وهم سبعمائة مقاتل وخمسون مقاتلاً. فلما دنوا قال له أبو سفيان: ائت قومك حتى ينقضوا العهد الذى بينهم وبين محمد ، فأتى بنى قريظة ـ وكان رسول الله ﷺ حين قدم المدينة صالح قريظة والنضير ومن معهم من يهود ألا يكونوا معه ولا عليه، ويقال: صالحهم على أن ينصروه ممن دهمه، ويقيموا على معاقلهم الأولى بين الأوس والخزرج ـ فأتى كعب بن أسد وكان صاحب عقد بنى قريظة وعهدها ، فكرهت قريظة دخول حيى بن أخطب إلى دارهم فإنه كان يحب الرئاسة والشرف عليهم، وكان يشبَّهُ بأبى جهل فى قريش، فلقيه عزَّال بن سموأل أول الناس، فقال له حيى: قد جئتك بما تستريح به من محمد ، هذه قريش قد دخلت وادى العقيق، وغطفان بالزغابة ! فقال عزَّال: جئتنا والله بذل الدهر، فقال: لا تقل هذا . . .) [1] (فلما سمع كعب حيى بن أخطب أغلق دونه باب حصنه ، فاستأذن عليه ، فأبى أن يفتح له ، فناداه حيى : ويحك يا كعب ! افتح لى ؛ قال : ويحك يا حيى ! إنك امرؤ مشؤوم ، وإنى قد عاهدت محمداً ، فلست بناقض ما بينى وبينه ، ولم أر منه إلا وفاءً وصدقاً ؛ قال: ويحك! افتح لى أكلمك ؛ قال : ما أنا بفاعل ؛ قال : والله إن أغلقت دونى إلا عن

(١) إمتاع الأسماع للمقريزى ١/ ٢٢٥ ، ٢٢٦ .

جشيشتك [1] أن آكل معك منها ؛ فأحفظ الرجل ، ففتح له ؛ فقال : ويحك يا كعب ، جئتك بعز الدهر، وببحر طام ، جئتك بقريش على قادتها وسادتها ، حتى أنزلتهم بمجتمع الأسيال من رومة ؛ وبغطفان على قادتها وسادتها ، حتى أنزلتُهم بذنب نقمى إلى جانب أحد ، قد عاهدونى وعاقدونى على ألا يبرحوا حتى نستأصل محمداً ومن معه . قال : فقال له كعب: جئتنى والله بذل الدهر، وبجهام[2] قد هَرَاق ماؤه ، فهو يرعد ويبرق ، ليس فيه شيء ، ويحك يا حيى . فدعنى وما أنا عليه ، فإنى لم أر من محمد إلا وفاءً وصدقاً ، فلم يزل حيى بكعب يفتله فى الذروة والغارب[3] حتى سمح له ، على أن أعطاه عهداً من الله وميثاقاً: لئن رجعت قريش وغطفان ولم يصيبوا محمداً أن أدخل معك فى حصنك حتى يصيبنى ما أصابك ، فنقض كعب بن أسد عهده ، وبرئ مما كان بينه وبين رسول الله ﷺ) [4].

(واستدعى رؤساءهم وهم : الزبير بن باطا ، ونباش بن قيس ، وعزَّال بن سموأل ، وعقبة بن زيد ، وكعب بن زيد ، وأعلمهم بما صنع من نقض العهد ؛ فلحمه الأمر لما أراد الله بهم من هلاكهم) [5] .

إننا كثيراً ما نسمع لدى دعاة القومية عن التفريق بين الصهيونية واليهودية ، وأنهم يحاربون الصهيونية ، أما اليهودية فلا ، بل يعتبرون كثيراً من اليهود أنصاراً لهم ، وهم يحصرون معركتهم مع الصهيونية فى فلسطين الأرض المغتصبة،فإذا حلت مشكلة الأرض، بتحرير أو اعتراف فلا خلاف بين القومية واليهودية ، ودعاة القومية علمانيون ليسوا ضد دين أو تجمع دينى ، بل هم ضد دعاة اغتصاب الأرض العربية وتسليمها لليهود ، بل يحالفون هذه النماذج كذلك .

لهؤلاء جميعا نسوق هذا النموذج الحى من انتهاء اليهود إلى معسكر واحد ، فى النهاية ، وقد يكون بعضهم أشد حقداً من بعض ، لكنهم أعداء فى النهاية محاربون ، وناكثون للعهد ناقضون كذلك ، وإن كان المسلمون وهم يتعاهدون أو يتحالفون لا يعاملون أعداءهم على ضوء تاريخهم فقط ،لكنها البلاهة التامة أن

---

(١) الجشيشة : طعام يصنع من الجشيش وهو البر . (٢) الجهام : السحاب الرقيق الذى لا ماء فيه .
(٣) مثل مأخوذ من البعير يضرب فى المراوغة والمخاتلة .
(٤) السيرة لابن هشام ٢ / ٢٢٠ ، ٢٢١ .
(٥) إمتاع الأسماع للمقريزى ١/ ٢٢٦ .

يغيب هذا التاريخ الأسود عن الذهن ، فلا يوضع فى الحسبان ، وبلغت البلاهة ببعض دعاة القومية حداً أنهم لا يعرفون شيئاً عن تاريخ اليهود مع المسلمين ، وحين يدرسونهم فى التاريخ ، يتحدثون عن تاريخهم فى أوربا وروسيا وأنحاء العالم، أما فى أرض العرب ، وفى حربهم مع المسلمين فلا ، وينسون أو يتناسون أو يتبالهون أن الشوكة اليهودية لم تنتزع من الأرض العربية إلا بالإسلام وعلى يد رسول الله ﷺ ، وانتهى وجودهم العسكرى أربعة عشر قرناً من الزمان ، ولم يعودوا للظهور إلا عندما غاب الإسلام عن الوجود والحكم ، وعادوا يثأرون لقريظة وخيبر .

لقد التقت كلمة اليهود جميعاً،النضير وقريظة وقينقاع الذين تبقوا فى خيبر على استئصال الوجود الإسلامى ، جيشوا الجيوش ، وحزبوا الأحزاب ، ووحدوا صفهم لحرب المسلمين.

والطبيعة اليهودية هنا تظهر فى حالة ضعف أعدائها : ﴿ **كَيْفَ وَإِن يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ لا يَرْقُبُوا فِيكُمْ إِلاً وَلا ذِمَّةً يُرْضُونَكُم بِأَفْوَاهِهِمْ وَتَأْبَىٰ قُلُوبُهُمْ وَأَكْثَرُهُمْ فَاسِقُونَ** ﴾ [التوبة : ٨] ، فهم وافون بالعهود طالما أنهم ضعاف أذلة ، وهم ناكثون للعهد حين يجدون الفرصة مواتية للانقضاض ، لقد كانوا يقولون :

من محمد ؟ لا عهد بيننا وبين محمد .

وذلك عندما ذكرهم السعدان بحلفهم مع رسول الله ﷺ .

ولم يمر على المسلمين ظروف أسوأ من ظروف الأحزاب يوم الأحزاب ، وما كان العهد إلا لذلك اليوم ، ومع ذلك نقضوا عهدهم فى اللحظة الحاسمة ، ورغم وجود بوادر الخير لدى زعيمهم كعب فهو فى النهاية يهودى غادر لا يرضيه شيء أكثر من إنهاء الوجود الإسلامى ، وتم له من يوافقه على ذلك . إنه الهدف النهائى لليهود والنصارى مهما أظهروا على الطريق من سلام وود :

﴿ **وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ الْيَهُودُ وَلا النَّصَارَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ قُلْ إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدَىٰ وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُم بَعْدَ الَّذِي جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلا نَصِيرٍ** ﴾ [البقرة: ١٢٠].

فهم يرفضون المعايشة مع الإسلام فكراً وواقعاً طالما أنهم قادرون على ذلك .

غزوة بنى قريظة

يقول ابن إسحاق : (فلما كانت الظهر ، أتى جبريل رسول الله ﷺ ـ كما حدثنى الزهرى ـ معتجراً بعمامة من إستبرق[1] ، على بغلة عليها رحالة [2] ، عليها قطيفة من ديباج فقال: أوقد وضعت السلاح يا رسول الله ؟ قال: « نعم »؛ فقال جبريل : فما وضعت الملائكة السلاح بعد ، وما رجعت إلا الآن من طلب القوم ، إن الله عز وجل يأمرك يا محمد بالمسير إلى بنى قريظة ، فإنى عامد إليهم فمزلزل بهم. فأمر رسول الله ﷺ مؤذناً ، فأذن فى الناس: « من كان سامعاً مطيعاً فلا يصلينَّ العصر إلا فى بنى قريظة ».

وقدَّم رسول الله ﷺ على بن أبى طالب برايته إلى بنى قريظة ، وابتدرها الناس ، فسار على بن أبى طالب ، حتى إذا دنا من الحصون سمع منها مقالة خبيثة لرسول الله ﷺ فرجع حتى لقى رسول الله بالطريق ، فقال : يا رسول الله ، لا عليك ألا تدنو من هؤلاء الأخابث،قال: « لمَ ؟ أظنك سمعت منهم لى أذى؟ » قال: نعم يا رسول الله، قال: « لو رأونى لم يقولوا من ذلك شيئاً » ، فلما دنا رسول الله ﷺ من حصونهم قال : « يا إخوان القردة ، هل أخزاكم الله وأنزل بكم نقمته ؟ » قالوا : يا أبا القاسم،ما كنت جهولا) [3].

(وتقدمت الرماة من المسلمين وقال ﷺ لسعد بن أبى وقاص: «يا سعد، تقدم فارمهم»، فرماهم والمسلمون ساعة ، ويهود ترامیهم ، ورسول الله ﷺ واقف على فرسه فيمن معه ، ثم انصرفوا إلى منازلهم ، وباتوا وقد بعث إليهم سعد بن عبادة بأحمال تمر فأكلوا ، وقال رسول الله ﷺ : « نعم الطعام التمر » ، واجتمع المسلمون عنده عشاء ، ومنهم من صلى، ومنهم من لم يصل حتى جاء بنى قريظة فما عاب على أحد من الفريقين ، ثم غدا سحراً وقدَّم الرماة وعبأ أصحابه فأحاطوا بحصون يهود ، ورموهم بالنبل والحجارة وهم يرمون من حصونهم حتى أمسوا ، فباتوا حول الحصون ، فنزل نباش بن قيس وكلم رسول الله ﷺ على أن ينزلوا على ما نزلت عليه بنو النضير : له الأموال والحلقة ، ويحقن دماءهم ،

---

(١) إستبرق : نوع من الديباج غليظ . (٢) الرحالة : السرج .

(٣) السيرة النبوية لابن هشام ١ / ٢٣٣ ، ٢٣٤ .

ويخرجون من المدينة بالنساء والذرارى ، ولهم ما حملت الإبل إلا الحلقة . فأبى رسول الله ﷺ إلا أن ينزلوا على حكمه ، وعاد نباش إليهم بذلك . . .) [1] .

هكذا كانت الجولة الأولى من الغزوة ، جبريل عليه السلام يقود الحرب ويزلزل الحصون ، ورسول الله ﷺ يعلن : « من كان سامعاً مطيعاً فلا يصلين العصر إلا فى بنى قريظة » ، وعلى بن أبى طالب يغرز الراية عند حصونهم ، وتتم تعبئة الجيش وتكامله عند الحصون ، وتبتدئ الرماية عنيفة ، وهكذا نجد اليهود فى كل مرة لا يقاتلون ، إنما يهزمون بالرعب ، ففى بنى قينقاع يخورون بعد الحصار ، وفى بنى النضير يخورون بعد الحصار ، وفى بنى قريظة يخورون بعد الحصار ، وحسب اليهود أن تكون هذه المحاصرة كأخواتها ، وينجون بأنفسهم ، ولكن لا نجاة هذه المرة ، فيرفض رسول الله ﷺ المفاوضات ، ولا يقبل إلا الاستسلام التام له ؛ لأن نقضهم للعهد كان أشنع نقض ، ولأنهم استغلوا أسوأ الظروف للبطش بالمسلمين ، ولو انتصروا لأبادوا المسلمين عن آخرهم ، وبلغ بهم السفه قبل أن يفاجؤوا بقوة المسلمين أن يسبوا الرسول ﷺ ويشتموه ، ثم هاهم الآن يتذللون ويتمسكنون ويودون النجاة بأشخاصهم وأموالهم ونسائهم ، مثل كل مرة ، ويتنازلون عن سلاحهم ، ولكن هيهات ، فلن يلدغ المؤمن من جحر مرتين ، وهل الخندق إلا ثمرة من ثمارهم المرة ، يوم نجوا بأرواحهم فراحوا يخططون لإبادة المسلمين فأين النجاة لهم بعد هذا الغدر والكيد . لقد وضعوا بين فكى الكماشة ، الاستسلام بدون قيد ولا شرط ، أو الموت جوعاً وعطشاً كما قال لهم حليفهم أسيد بن حضير : يا أعداء الله ، لا نبرح حصنكم حتى تموتوا جوعاً ، إنما أنتم بمنزلة ثعلب فى جحر . ولقد ذكروه بحلفه قائلين : يا بن الحضير ، نحن مواليك دون الخزرج ! وخاروا فقال : لا عهد بينى وبينكم ولا إلَّ . لقد بعثوا نباش بن قيس بالمهمة التالية : أن ينزلوا على ما نزلت عليه بنو النضير : له الأموال والحلقة ، ويحقن دماءهم ، ويخرجون من المدينة بالنساء والذرارى ، ولهم ما حملت الإبل إلا الحلقة ، ولعلها مشورة حيى بن أخطب زعيم بنى النضير ، الذى ظن أن الحيلة تتكرر ، وكان جواب رسول الله ﷺ حاسماً قاطعاً : أبى إلا أن ينزلوا على حكمه .

---

(١) إمتاع الأسماع ١/ ٢٤٣ .

وتتدارس يهود الأمر ؛ لقد كان كعب بن أسد زعيم بنى قريظة أقل حقداً من حيى بن أخطب ، ومن أجل ذلك كان فى بعض الأحيان لا يغلبه الحقد ويدرك مصلحته، ولقد كان ثاقب النظر حين قال لحيى : إنك امرؤ مشؤوم ، جئتنى بذل الدهر، وبجهام قد هراق ماؤه فهو يرعد ويبرق ، وأنى له الندم ولات ساعة مندم، وراح يراجع رصيد حياته قبل قدوم محمد وبعده ، ودعا قادة اليهود وأولى الرأى فيهم ، وعرض عليهم أمام إصرار محمد ﷺ حلولاً ثلاثة قائلاً لهم: (قد نزل بكم من الأمر ما ترون ، وإنى عارض عليكم خلالاً ثلاثاً فخذوا أيها شئتم ! قالوا: وما هى ؟ قال : نتابع هذا الرجل ونصدقه ، فوالله لقد تبين لكم أنه لنبى مرسل ، وأنه للذى تجدونه فى كتابكم فتأمنون على دمائكم وأموالكم وأبنائكم ونسائكم ، قالوا : لا نفارق حكم التوراة أبداً ، ولا نستبدل به غيره ، قال : فإذا أبيتم علىَّ هذه فهلمَّ فلنقتل أبناءنا ونساءنا ، ثم نخرج إلى محمد وأصحابه رجالاً مصلتين بالسيوف ، لم نترك وراءنا ثقلاً ، حتى يحكم الله بيننا وبين محمد ، فإن نهلك لم نترك وراءنا نسلاً نخشى عليه، وإن نظهر فلعمرى لنجدن النساء والأبناء، قالوا: نقتل هؤلاء المساكين ! فما خير العيش بعدهم ؟ قال : فإن أبيتم على هذه ؛ فإنَّ الليلة ليلة السبت ، وإنه عسى أن يكون محمد وأصحابه قد أمنونا فيها ، فانزلوا لعلنا نصيب من محمد وأصحابه غرة ، قالوا : نفسد سبتنا علينا ، ونحدث فيه ما لم يحدث من كان قبلنا إلا من قد علمت فأصابه ما لم يخف عليك من المسخ ! قال: ما بات رجل منكم منذ ولدته أمه ليلة واحدة من الدهر حازمًا) (١).

ها نحن نجد كعب بن أسد يدرك أبعاد المعركة ونتائجها ، ويعلم أن الموقف خاسر ، وأن نزوله على حكم محمد ﷺ يعنى الإبادة التامة ، والمقاومة يائسة خاسرة ، ويبحث عن طرق النجاة فلا يراها إلا فى الإسلام،والإسلام هو الذى يحقن دمه ودم بنى قريظة جميعاً ، فمحمد يقول : « أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا : لا إله إلا الله محمد رسول الله ، فإن قالوها عصموا منى دماءهم وأموالهم إلا بحق الإسلام وحسابهم على الله » (٢) .

وتفكير كعب بالإسلام ولو من باب المصلحة يدل على أنه أقل حقداً من حيى ابن أخطب وتفانيه فى الزعامة والرئاسة ، وطمس الحقد على بصره وبصيرته ،

---

(١) السيرة النبوية لابن هشام ٢ / ٢٣٥، ٢٣٦ . (٢) رواه مسلم . انظر : صحيح مسلم ١ / ٥٢، ٥٣ .

ولئن شبه حيى بأبى جهل فى حقده وكفره ، فكعب أشبه ما يكون بعتبة بن ربيعة وشيبة بن ربيعة زعيمى بنى أمية ، إذ كانوا يدركون المصلحة كثيراً ويعجزون عن تنفيذها خضعاناً لقومهم ، ولئن استطاع عبد الله بن سلام حبر اليهود ﷺ أن يتجاوز عصبيته ، ويستجيب لأمر ربه فكعب عاجز عن ذلك ؛ لأن الزعامة عنده كذلك هدف لا يفوت ، إنه يعرف أن محمداً حق ، وأن إصراره على التمسك باليهودية عناد وحقد ، لكن رآها فرصة سانحة أن يقود قومه للإسلام ولو كان من باب حقن دمائهم وأموالهم ونسائهم وأولادهم ، غير أن الأتباع ـ كثيراً من الأحيان ـ ما يكونون أسوأ عصبية من القيادات ، وبخاصة اليهود الذين وصفهم رب السموات والأرض بقوله : ﴿ **وَأُشْرِبُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ** ﴾ [البقرة : ٩٣] .

لقد دخلت عبادة العجل فى دمائهم وبطونهم فشربوها شربا ، وامتزجت بكل شرايينهم ، فكان جواب اليهود القاطع : لا نفارق حكم التوراة أبداً ، ولا نستبدل به غيره ، وكعب يعرف أن قضية اليهودية عندهم عصبية أكثر منها عقيدة ، ومن أجل ذلك حينما عرض عليهم الدخول فى الإسلام ورفضوا أراد أن يضعهم عند التزامات هذه العقيدة ، فعرض عليهم التضحية الخالصة،عرض عليهم قتل أبنائهم ونسائهم لتكون الحرب الطاحنة ، فلا يأسوا على مال أو زوج أو ولد ، فالقتل لا يخيفهم لاطمئنانهم أن ذراريهم لن تكون أسرى بيد المسلمين ، ولن تفتضح أعراضهم ، غير أن القوم حياتهم أغلى عليهم من أعراضهم وأولادهم فما لذة العيش بعدهم ؟ وهكذا لم يتخل بنو قريظة عن دينهم ، ولم يضحوا بنسائهم وأولادهم وأرواحهم من أجل هذا الدين ، فلم يعد إلا الحل الثالث : الهجوم المباغت على المسلمين ليلة السبت ، فاعتذروا أنهم لا يفسدون سبتهم ، وهكذا رفض الأتباع كل اقتراحات القيادة ، ويئس كعب من قومه ، فليس أمامهم إلا الموت جوعاً وعطشاً أو النزول على حكم محمد ، أما أن يقاتلوا بشرف ، أو يقاتلوا ببسالة ، أو يقاوموا ببطولة، فهذا فى منطق اليهود لا يقوم .

وما أحوجنا إلى أن نتعرف على هذه الطباع ، والمعركة بيننا **وبينهم قائمة** ، والحرب مستمرة . إن فقه نفسية العدو تعطينا كثيراً من **الإضاءات** على طبيعة مواجهته ، والغريب أننا نواجه اليوم ظاهراً بنماذج جديدة حتى أصبح العربى يخشى اليهودى ، وأصبح العرب وهم يناهزون المائة مليون ونصف عاجزين عن

المواجهة ، عاجزين عن الحرب ، هزموا نفسيا بعد حربين خاضوها وكانت الحربان خاسرتين . لقد أصبحوا جميعاً يتحدثون عن السلام ، وأصبحت قياداتهم تؤمن بالحل السلمى أو الاستسلامى أكثر من إيمانها بالله، وبعد حرب الـ ٧٣ مع اليهود، انتهت فكرة الحرب والمواجهة عند العرب ، وراحوا يحلمون باسترداد الأراضى بالطرق السلمية وتجمع مؤتمراتهم على ذلك [١] ، ويقدمون مشروع الحل السلمى، ولا يناقشون إطلاقاً الوجود اليهودى ، بل يطلبون استعادة الضفة الغربية لتكون وطناً للفلسطينيين ، وكفى الله العرب القتال .

إن قرننا قد شهد هذه المأساة ، مأساة الاستسلام المتخاذل ، مأساة اليقين عند حكام العرب وكثير من شعوبهم أن إسرائيل لن تقهر ، وأن العرب لن ينتصروا . إنهم يمثلون تماماً عرب الأوس والخزرج قبل الإسلام ، حين كان الكيان اليهودى فى المدينة يهدد الكيان العربى ويقول له : أظل زمان نبى نتبعه ، فنقتلكم به قتل عادٍ وإرم ، وكان العرب يقبلون من اليهود أحكامهم فيتماوتون على التحالف معهم ويتسابقون . وهؤلاء هم عرب اليوم ، لقد كان الرعب يجتاح الإنسان العربى فى الماضى من اليهود ؛ لأنهم أهل علم ، وأهل سلاح ، بل كان سلاح العرب فى المدينة من صنع اليهود ، فكيف يحاربونهم ، وعرب اليوم الذين غدوا بلا عقيدة وبلا دين قد أكلهم الرعب من اليهود لعلمهم وسلاحهم ، وعلم اليهود اليوم علم بشرى وسلاحهم اليوم صنع غربى أو محلى ، لم تنقلب الآية بعد ، ولم تتغير الطبائع ، ولم تتبدل النفوس .

لقد كان اليهود يهددون الكيان العربى بالنبى الذى سيبعث وقد أظل زمانه ، وكان العرب ينتظرون أن يأتى هذا النبى حتى يبادوا ، فهم يعرفون أن اليهود أهل الكتاب الأول وعندهم التوراة ، لكن عندما تبنى العرب هذا النبى ، وساروا وراءه عرفوا أنهم لابد قاتلو اليهود قتل عاد وإرم ، (إن هذا هو النبى الذى توعدكم به يهود ، فلا يسبقنكم إليه) ، وسبقوا اليهود ، إلى هذا النبى وآمنوا به ، وعرف اليهود فى قرارة نفوسهم أنهم مهزومون ما لم يتبعوا هذا النبى،ومع ذلك رفضوا، كما رأينا رفضهم مع كعب أن يدخلوا فى الإسلام حقداً وضغينة وعصبية ، لقد

---

(١) توج ذلك بمؤتمر مدريد الذى أعلن فيه الحكام العرب قبول الحل السلمى لاسترداد الأرض عن طريق المفاوضات. وهيهات هيهات .

كانوا يعلمون أنهم يخوضون معركة خاسرة ، وأنهم لو قتلوا عن بكرة أبيهم فلن ينتصروا على محمد النبى . وعرب اليوم حين يعودون إلى هذا النبى ، ويعودون إلى هذا الدين ، ويقاتلون به سوف تظهر طبائع اليهود ، وسوف يعرى اليهود فى جبنهم وتخاذلهم كما تعروا فى بنى قينقاع والنضير وقريظة .

إن الجديد فى المعادلة هو أن عنصر التفاعل لم يقع بعد ، وقاتل اليهود عرباً، ولم يقاتلوا مسلمين ، وحين يقاتلون المسلمين يظهر اليهود على حقيقتهم بلا خلاف . وكانت المحاولة اليائسة الأخيرة من اليهود فى استكناه طبيعة حكم محمد ﷺ من أحد حلفائهم أبى لبابة بن عبد المنذر ، فسمح له رسول الله ﷺ بالذهاب إليهم واستشاروه وسألوه عن حكم محمدٍ بهم فأشار إليهم أنه الذبح[1] .

وتحركت ضمائر ثلاثة من يهود ، ففروا ليلاً إلى معسكر المسلمين ، وأسلموا فعصموا دماءهم وأموالهم ، كما وُجد فيهم شريف واحد يرعى الذمام غادر معسكرهم يوم أعلنوا غدرهم برسول اللّه ﷺ قائلاً : لا أغدر بمحمد أبداً ، ومر على محمد بن مسلمة صاحب حرس رسول اللّه صلوات اللّه وسلامه عليه ، فهش له ابن مسلمة قائلاً : اللهم لا تحرمنى إقالة عثرات الكرام ، وخرج فلم يدر أحد أين توجه فقال عنه عليه الصلاة والسلام : «ذلك رجل نجاه اللّه بوفائه» . وكان الاستسلام الأخير : (فلما أصبحوا نزلوا على حكم رسول الله ﷺ ، فتواثبت الأوس فقالوا : يا رسول اللّه ، إنهم موالينا دون الخزرج ، وقد فعلت فى موالى إخواننا بالأمس ما قد علمت[2] ، فلما كلمته الأوس قال: « ألا ترضون يا معشر الأوس أن يحكم فيهم رجل منكم ؟ » قالوا: بلى، قال رسول اللّه ﷺ: « فذاك إلى سعد بن معاذ . . . »، فلما حكمه رسول اللّه ﷺ فى بنى قريظة أتاه قومه فحملوه على حمارٍ قد وطئوا له بوسادة من أدم، وكان رجلاً جسيماً جميلاً، ثم أقبلوا معه إلى رسول اللّه ﷺ وهم يقولون: يا أبا عمرو، أحسن فى مواليك، فإن رسول اللّه ﷺ إنما ولاك ذلك لتحسن فيهم ؛ فلما أكثروا عليه قال : لقد آن لسعد ألا تأخذه فى اللّه لومة لائم ، فرجع بعض من كان معه من قومه إلى دار بنى عبد الأشهل ، فنعى لهم رجال بنى قريظة، قبل أن يصل إليهم سعد ، عن

---

(١) ونعالج موقفه فى غير هذا المجال ؛ لأن الحديث هنا عن اليهود بالذات .

(٢) إشارة إلى استشفاع عبد الله بن أبى فى بنى قينقاع وقبول شفاعته .

كلمته التى سمع منه . فلما انتهى سعد إلى رسول اللّه ﷺ والمسلمين ، قال رسول اللّه ﷺ : « قوموا إلى سيدكم . . . » فقاموا إليه ، فقالوا : يا أبا عمرو ، إن رسول اللّه ﷺ قد ولاك أمر مواليك لتحكم فيهم ؛ فقال سعد بن معاذ : عليكم بذلك عهد اللّه وميثاقه أنَّ الحكم فيهم لما حكمت ؟ قالوا : نعم ، قال : وعلى من ها هنا ؟ فى الناحية التى فيها رسول اللّه ﷺ ، وهو معرض عن رسول اللّه إجلالاً له ؛ فقال رسول اللّه ﷺ : « نعم » ، قال سعد : فإنى أحكم فيهم أن تقتل الرجال ، وتقسم الأموال ، وتسبى الذرارى والنساء . فقال رسول اللّه ﷺ لسعد : « لقد حكمت فيهم بحكم اللّه من فوق سبعة أرقعة » .

قال ابن إسحاق : (ثم استنزلوا ، فحبسهم رسول اللّه ﷺ بالمدينة فى دار بنت الحارث ، امرأة من بنى النجار ، ثم خرج رسول اللّه ﷺ إلى سوق المدينة ، التى هى سوقها اليوم فخندق بها خنادق ، ثم بعث إليهم ، فضرب أعناقهم فى تلك الخنادق ، يخرج بهم إليه أرسالاً ، وفيهم عدو اللّه حيى بن أخطب ، وكعب بن أسد رأس القوم وهم ستمائة أو سبعمائة والمكثر لهم يقول : كانوا بين الثمانمائة والتسعمائة ، وقد قالوا لكعب بن أسد ـ وهم يُذهب بهم إلى رسول اللّه ﷺ أرسالاً : يا كعب ، ما تراه يصنع بنا ؟ قال : أفى كل موطن لا تعقلون ؟ ألا ترون الداعى لا ينزع ، وأنه من ذهب منكم لا يرجع ؟ هو واللّه القتل ! فلم يزل ذلك الدأب حتى فرغ منهم رسول اللّه ﷺ ، وأتى بحيى بن أخطب عدو اللّه وعليه حلة له فقاحية [1] قد شقها عليه من كل ناحية حتى لا يُسلبها ، مجموعة يداه إلى عنقه بحبل؛ فلما نظر إلى رسول اللّه ﷺ قال: أما واللّه ما لمت نفسى فى عداوتك ، ولكنه من يخذل الله يُخذل ، ثم أقبل على الناس فقال : يا أيها الناس ، إنه لا بأس بأمر اللّه ، كتاب وقدر وملحمة كتبها اللّه على بنى إسرائيل ثم جلس فضُربت عنقه . . .) [2] .

قال ابن إسحاق : (ثم إن رسول اللّه ﷺ قسَّم أموال بنى قريظة ونساءهم وأبناءهم على المسلمين ، وأعلم فى ذلك اليوم سُهمان الخيل ، وسهمان الرجال ، وأخرج الخمس ، فكان للفارس ثلاثة أسهم ، للفرس سهمان ولفارسه سهم ،

---

(١) فقاحية : تضرب إلى الحمرة ، وقال ابن هشام : ضرب من الوشى .

(٢) السيرة النبوية لابن هشام ٢/ ٢٣٦ ـ ٢٤٠ (مقتطفات) .

وللراجل من ليس له فرس سهم، وكانت الخيل يوم بنى قريظة ستة وثلاثين فرسا، وكان أول فيء وقعت فيه السهمان، وأخرج منها الخمس، فعلى سنتها وما مضى. ثم بعث رسول الله ﷺ سعد بن زيد الأنصارى أخا بنى عبد الأشهل بسبايا من بنى قريظة إلى نجد فابتاع لهم بها خيلاً وسلاحاً) (١) .

نزل اليهود على حكم رسول الله ﷺ ، ورفضوا كل اقتراحات زعيمهم كعب ابن أسد، وقرروا أن يتلقوا مصيرهم على يد من نكثوا عهدهم معه ، وهناك بصيص أمل عندهم أن يعفو عنهم رسول الله ، أو أن تتمكن الأوس من حمايتهم كما فعل عبد الله بن أبى بحلفائه من بنى قينقاع ، وكان تصورهم أن تسيطر العصبية على حلفائهم الأوس فينجوا بحياتهم على الأقل .

وطالب الأوس بحقهم فى الحماية كما فعل عبد الله بن أبى ، فكرامة الفريقين ـ الأوس والخزرج ـ واحدة غير أن اتجاه القيادة يخالف اتجاه القاعدة ، فكيف يفعل رسول الله ﷺ أمام هذا الحرج ، إنه يملك أن يحسم الأمر بالقتل وانتهى الأمر والأوس طوع بنانه ، غير أنه يحرص على ألا تصدم عواطف جنده من الأوس، فاختار هذا الحل الموفق: « ألا ترضون أن يحكم فيهم رجل منكم»، قالوا : بلى ، قال : « فذلك إلى سعد بن معاذ »، فلقد تساوى الحيان فى الحق، إذ حكم فى بنى قينقاع زعيم من الخزرج هو عبد الله بن أبى حليفهم ، فليحكم فى بنى قريظة زعيم الأوس سعد بن معاذ .

إن القيادة الحكيمة هى التى تتجنب دائماً الصدام مع عواطف شبابها ، وتحرص على أن تمثل قناعاتهم وتطلعاتهم ، بل تلبية رغباتهم ، وحين تصطدم رغبة القيادة مع القاعدة ، فالقيادة بحاجة إلى حلٍ مريحٍ يخفف جو الصدام .

إنهم جنودها بهم تقاتل ، ومن خلالهم سرُّ قوتها ونجاحها ، وكلما استطاعت أن تعطى لهم الكرامة والاعتبار ، كلما كان هذا أدعى إلى تلاحم الجانبين فى صف واحد ، بل راعى رسول الله ﷺ فى هذه الحرب رغبات كل فرد من أفراد هذا الصف ، فلقد كان لرجل من اليهود جميل فى عنق ثابت بن قيس خطيب رسول الله ﷺ ، فطلب ثابت حماية هذا الرجل من القتل من قيادته فوافقت

(١) السيرة النبوية لابن هشام ٢/ ٢٤٤ .

القيادة على ذلك غير أن الزبير بعد أن عفى من القتل وسلم له ماله وولده وأهله قال لثابت : فإنى أسألك يا ثابت بيدى عندك إلا ألحقتنى بالقوم ، فواللّه ما فى العيش بعد هؤلاء من خير (١) .

وقد راعى رسول الله ﷺ كرامة امرأة من المسلمين حين طلبت حماية رفاعة ابن سموأل القرظى قائلة : يا نبى الله، بأبى أنت وأمى هب لى رفاعة فإنه زعم أنه سيصلى ويأكل الجمل ؛ قال : فوهبه لها ، فاستحيته) (٢) .

إن القيادة العبقرية لا تعدم وسيلة تطمئن بها جنودها على احترام رأيهم وتقديره حتى ولو كانت خطتها تعاكس أهواء فريق من هؤلاء الجنود ، إنها لا تعطّل خطتها ، لكن لا تتحدى رغبات جنودها بل تحرص على قناعتهم وإشعارهم بأهمية رأيهم ووجاهته .

صحيح أن على القاعدة أن تطيع ، وصحيح كذلك أن السمع والطاعة ليسا كل شىء فى علاقة القواعد مع القيادة ، بل الحب والثقة والتفانى هو الأصل فى العلاقة ؛ ومن أجل ذلك كان حديث رسول اللّه ﷺ يؤكد الخيرية فى أمراء هذه الأمة من خلال الحب : « خيار أئمتكم الذين تحبونهم ويحبونكم وتصلون عليهم ويصلون عليكم ، وشرار أئمتكم الذين تبغضونهم ويبغضونكم ، وتلعنونهم ويلعنونكم » (٣) . وما أحوج قيادة الحركة الإسلامية أن تدرك هذا المعنى وتعمل من خلاله ! . وكان بعدها حكم سعد بن معاذ ، ورسول اللّه ﷺ يرعى قيادات الجماعة المسلمة، ويعطيها الأهمية الكبرى ، فسعد جريح فى خيمة رفيدة، وكان بإمكان رسول اللّه ﷺ أن يمضى أمره بدون رأى سعد ، لكنه التكريم العظيم لقائد من قادات هذه الأمة ، فلا يحكم بأمر حلفائه إلا بحضوره ، بل يوجه الجميع إلى إكبار هذا القائد : « قوموا إلى سيدكم » ، فقاموا له . ويأتى دور سعد ، ورسول اللّه ﷺ مطمئن إليه، واثق باختياره، وعارف مدى تفانيه بحب اللّه ورسوله ، وترفعه عن العصبية أو الهوى أو حظ النفس ، وكم أراده قومه على ذلك فقال : آن لسعد ألا تأخذه فى اللّه لومة لائم ، بل لسعد ثأر عند يهود بنى قريظة حين واجهوه بالسباب والشتيمة ، وذكرهم بعهدهم لرسول اللّه ﷺ فهزئوا

---

(١) السيرة النبوية لابن هشام ٢/ ٢٤٢ ، ٢٤٣ . (٢) المصدر السابق ٢/ ٢٤٤ .

(٣) رواه مسلم عن عوف بن مالك ٣/ ١٤٨١ ح (٦٥/ ١٨٥٥) .

به ، وحين أصابه سهم غادر من أحدهم فناجى ربه قائلاً فى دعاء طويل : ولا تمتنى حتى تشفنى من بنى قريظة . وها هو أمرهم كله له ، فأخذ العهد على قومه أولاً بقبول حكمه ، ثم على المهاجرين وأصدر حكمه بذبحهم لخيانتهم وغدرهم.

إن الذى يدرك مرامى المعركة وأبعادها هم القادة الذين يعيشون جوها ، ومن أجل هذا وجدنا اتجاه سعد ﷺ يمثل اتجاه الرسول تماماً ، لمعرفته ببواطن الأمور وخفاياها بينما كان الأوس يدركون فقط فى هذا المجال شرفهم وتساويهم فى هذا الشرف مع الخزرج ، ولا نقول الأوس جميعاً ، إنما نقول : هو تيار قوى فيهم ، لكن الذى حدد الموقف تماماً هو سيدهم سعد بن معاذ ، وهذا يدعونا إلى القول : إن على القيادة العليا أن تعطى ثقتها الكبرى للقيادات الوسطى التى هى سبيلها إلى الجنود ، ونافذتها عليها ، وحين تعجز القيادة أن تقنع هذه القيادات الوسط فلن تصل إلى قلوب جنودها، وستكبر الهوة بين الفريقين ، ويتمزق الصف شذر مذر، بل يتمحور حول هذه القيادات الوسطى ، ويشكل عقبة كؤوداً فى وجه القيادات ومخططاتها .

أما اليهود ، وما أدراك ما اليهود ، فها هم يساقون إلى مصارعهم ، ولا يعرفون فيسألون زعيمهم كعب بن أسد عن الأمر فيقول لهم : أفى كل مرة لا تعقلون ! أما ترون الداعى لا ينزع ، وأنه من ذهب منكم لا يرجع ؟ هو واللّه القتل ، لقد أدرك ببصره الثاقب هذا المصير المروع ، ونصحهم بمنعرج اللوى ، فلم يستبينوا النصح إلا ضحى الغد ، وهاهى رجالهم تذبح ، ونساؤهم تسبى ، وأموالهم تقسم ، ويأتى زعيم الغدر والخيانة حيى بن أخطب ليمثل الجبلة اليهودية فى كل جيل كما وصفها القرآن الكريم : ﴿ **أَفَكُلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَىٰ أَنفُسُكُمُ اسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ** ﴾ [البقرة : ٨٧] . إن حيى بن أخطب ليدرك حظه من أوله ، فهو يحارب اللّه ورسوله ، وهو يعلم أن محمداً حق ، ولكنها عنجهية الجاهلية .

إنه أبو جهل الذى رفض الإيمان حتى لا يسبقه بنو عبد مناف ، وحيى يرفض حتى لا يسبقه بنو إسماعيل ، أولاد هاجر الجارية ، إنه الحقد الأسود ، والكيد الأعمى ، والحرب للّه ورسوله ، ولا يشتفى من ذلك كله . . واللّه ما لمت نفسى فى عداوتك . إنه ليعلم أن حقده أكبر من دينه ، ويعلم أنه يحارب اللّه ورسوله

ولكنه من يخذل الله يخذل ، إنها كلمات أبى جهل: أخبرنى لمن الغلبة ؟ وكان الجواب : « الغلبة للّه ورسوله ، ولقد أبقى اللّه لك ما يخزيك » ، ويجيب : وهل أعمد من رجل قتلتموه ! إنه عميد القوم ، وسيد البطحاء يقتل، وهو يرى الخزى فلا ينسى شرفه ، ولا ينسى حقده ، إن فرعون خير منه حين رأى الغرق فقال : آمنت بالذى آمنت به بنو إسرائيل .

وتعود هذه الجبلة اليهودية اليوم من جديد لتزكم الأفق ، وتظهر من خلال آلاف الحوادث منها هذه الحادثة . وقف أحد المنافقين فى الشام فى حرب حزيران عام ٦٧ يخطب على منبر الجامع الأموى والإذاعة تنقل خطبته ليحرف حديث رسول اللّه ﷺ بقوله : لا تقوم الساعة حتى يقاتل العرب اليهود فيقتل العرب اليهود، فيقول الحجر والشجر: يا عربى، يا عبد اللّه، ورائى يهودى تعال فاقتله ، إلا الغرقد فإنه من شجر اليهود . وتخرج إذاعة إسرائيل فى اليوم الثانى لتصحح للشيخ المنافق الحديث ، وتذكر له رواية ، وتذكره به : « لا تقوم الساعة حتى يقاتل المسلمون اليهود فيقتلهم المسلمون حتى يختبئ اليهود وراء الحجر والشجر، فيقول الحجر والشجر : يا مسلم ، يا عبد اللّه ، هذا يهودى خلفى تعال فاقتله إلا الغرقد فإنه من شجر اليهود » (١) .

والذى يعنينا من الحديث هو معرفة اليهود بمصيرهم المشؤوم ، أو قيادتهم على الأقل، ومعرفتهم أن النصر للمسلمين ، لكنهم واثقون كذلك أنهم يقاتلون عرباً بدون عقيدة وبدون إسلام. وهم مطمئنون إلى نصرهم فى هذه الحالة لما يبذلون من جهد، ويخططون من كيد؛ ولأنهم حين يحاربون المسلمين فهم منهزمون ، ومع ذلك فهم يقاتلون ، ويقولون كما قال زعيمهم حيى : إنه لا بأس بأمر اللّه كتاب وقدر وملحمة كتبها اللّه على بنى إسرائيل .

أما الآن فكما قال اللّه تعالى عنهم : ﴿ **ولن ترضى عنك اليهود ولا النصارى حتى تتبع ملتهم ...** ﴾ [البقرة : ١٢٠] ، وكما قال اللّه تعالى : ﴿ **ولا يزالون يقاتلونكم حتى يردوكم عن دينكم إن استطاعوا...** ﴾ [البقرة : ٢١٧] ، وهم مطمئنون اليوم أن الحرب الحقيقية لم تقم بعد ، وأنهم حين يواجهون عنفاً فى حرب فإنما يكون وراءه مسلمون حقيقيون ، إنها نماذج بطولات فردية ، وهاهم العرب اليوم كلهم

(١) رواه مسلم ٤/٢٢٣٩ ح (٨٢ / ٢٩٢٢) .

يعلنون سلمهم مع يهود ويطلبون منها الصلح ، ونهاية اليهود التى كانت فى بنى قريظة ستكون نهايتهم إن شاء الله على أرض فلسطين ، الأرض المباركة التى وعد الله تعالى فيها بنصر جنده المؤمنين ، وكانت أسلحتهم وأموالهم غنيمة للمسلمين.

يقول المقريزى فى إمتاع الأسماع : (وجمعت أمتعتهم وما وجد فى حصونهم من الحلقة والأثاث والثياب ، فوجد فيها ألف وخمسمائة سيف وثلاثمائة درع ، وألفا رمح ، وألف وخمسمائة ترس وجحفة ، وأثاث كبير ، وآنية كثيرة وخمر وجرار سكر فهرق ذلك كله ، ولم يخمس ، ووجد من الجمال النواضح عدة ، ومن الماشية شىء كثير فجمع هذا كله . . .) [1] ، ولم يكتف رسول الله ﷺ بذلك، بل ابتاع بسبايا بنى قريظة الخيل والسلاح من نجد. لقد كانت المعركة شوكة كبيرة للمسلمين وهزيمة ماحقة لليهود، وإنهاء لوجودهم فى المدينة بعد ست سنوات من التعايش القلق ، وهذا ما قاله سلام بن مشكم زعيم بنى النضير بعد حيى بن أخطب،والذى أقام فى خيبر، وتلقى مع بقية اليهود نبأ مقتل بنى قريظة صبراً بالسيف : (هذا كله عمل حيى بن أخطب، لا قامت يهودية بالحجاز أبداً) [2] . ولكن هذا الحكم العادل ، لم يكن غضباً لنفس أو إهانة لآدمية ، فلقد حرص عليه الصلاة والسلام على ألا يكون التشفى والثأر هو الذى يسيطر على الموقف ، (فلقد جابذ نباش بن قيس الذى جاء به ـ لقتله ـ حتى قاتله ودق أنفه فأرعفه ، فقال ﷺ للذى جاء به : « لم صنعت به هذا ؟ أما كان السيف كفاية ! » ثم قال : « أحسنوا إسارهم ، وقيِّلوهم واسقوهم ، لا تجمعوا عليهم حر الشمس وحرَّ السلاح » ، وكان يوماً صائفاً ، فقيَّلوهم وسقوهم وأطعموهم ، فلما أبردوا راح رسول الله ﷺ فقتل من بقى منهم. . .) [3] .

إنها عظمة النبوة التى تحترم آدمية الإنسان ، ولو كان يهودياً حكم الله تعالى فيه القتل ، واليوم وفى أقبية سجون من يسمون (بالمسلمين) من المآسى وفنون التعذيب والتجويع والإهانة والسحق ما يشيب من هوله الولدان ، والأصل هو إهانة كرامة الإنسان وتمريغه بالتراب، وتجريعه غصص العذاب الذى يترفع عنه الوحوش ، وكما يقول سيد ـ رحمه الله : إن الوحوش تأكل لتقتات ، أما هؤلاء

---

(١) إمتاع الاسماع للمقريزى ١/ ٢٤٥ .
(٢) المصدر السابق ١/ ٢٥٣ .
(٣) المصدر السابق ١/ ٢٤٨ .

فيتلذذون بالعذاب ، ويبقى الإسلام الذى يكرم الإنسان بصفته إنساناً فيعاقبه بما يستحق دون شهوة غضب وحقد وتشفٍ تذيقه أشد مما يستحق .

ويطالعنا فى نهاية المطاف التجاوب العميق بين الأوس وبين قرار سيدهم سعد رضي الله عنه بعد أن قال له رسول الله ﷺ : « لقد حكمت بحكم الله من فوق سبع سموات » والتسابق فى التنفيذ . فجاء أسيد بن حضير السيد الثانى للأوس فقال : (يا رسول الله ، لا تبقين دارٌ من دور الأوس إلا فرقتهم فيها ، ففرقهم فى دور الأنصار فقتلوهم) ، وأعلن سعد أن الكاره لهذا القرار هو خارج عن الخيرية والهدى : ما كرهه أحد من الأوس فيه خير ، ومن كرهه فلا أرضاه الله، وهكذا انتهت اليهودية فى المدينة على تلك المراحل المتلاحقة حيث تلقى كل فريق جزاءه من جنس عمله ، قينقاع والنضير وقريظة ، وأعطانا هذا الحكم حرية القيادة فى مواجهة العدو بما يناسب ظروف المعركة، وإمكانيات المسلمين ، وجريمة العدو، دون قيود تغل حركة القيادة ، إلى أن يأذن الله تعالى بالفتح المبين للمسلمين مع أعدائهم ﴿ تُقَاتِلُونَهُمْ أَوْ يُسْلِمُونَ ... ﴾ [الفتح : ١٦] .

السمة السادسة عشرة
ليل المحنة الطويل وخطره

لقد لقى المسلمون فى مكة شدة ، وتمت تربية الجيل الأول من المهاجرين من خلال المحنة ، أما الأنصار فلقد عاشوا ميلاد الدولة الجديدة ، وتوج هذا الميلاد الجديد بالنصر المؤزر يوم بدر ، وطارت القلوب فرحاً بهذا النصر ، حتى حسب المسلمون أنه لا هزيمة بعد اليوم ، خاصة وقد قاتلت الملائكة ووقعت المعجزة الحسية ، وانتصر المسلمون العزل القلة على الكفار الكثرة المدججين بالسلاح ، ومن أجل ذلك عندما لاحت بوارق حرب جديدة تسارع المسلمون زرافات ووحداناً على دخولها ، ولم يتمالكوا أنفسهم من الانضواء فيها ، وعندما بدا لهم أن رسول الله ﷺ يرغب البقاء فى المدينة للدفاع عنها ما تمالكت أعصابهم هذا الأمر، واندفعوا ـ بوعى وبغير وعى ـ يطالبون بالخروج لملاقاة العدو، ولم لا يكون ذلك؟ فالعدو كافر، وهم مؤمنون ، ونصر الله تعالى قائم للمؤمنين على الكفار ، يقول المقريزى:

(. . . فقال فتيان أحداث لم يشهدوا بدراً ، وطلبوا الشهادة ، وأحبوا لقاء العدو : اخرج بنا إلى أعدائنا . وقال حمزة ، وسعد بن عبادة ، والنعمان بن مالك فى طائفة من الأنصار : إنا نخشى يا رسول الله أن يظن عدونا أنا كرهنا الخروج إليهم جبناً عن لقائهم، فيكون هذا جرأة منهم علينا ، وقد كنت فى بدر فى ثلاثمائة رجل فظفرك الله عليهم ، ونحن اليوم بشر كثير ؛ قد كنا نتمنى هذا اليوم وندعو الله به ، فساقه الله إلينا فى ساحتنا، ورسول الله ﷺ لما يرى من إلحاحهم كاره ، وقد لبسوا السلاح . وقال حمزة : والذى أنزل عليك الكتاب بالحق لا أطعم اليوم طعاماً حتى أجالدهم بسيفى خارجاً من المدينة ، وكان يوم الجمعة صائماً ويوم السبت صائماً ، وتكلم مالك بن سنان ، وإياس بن أوس بن عتيك فى معنى الخروج للقتال ، فلما أبوا إلا ذلك صلى رسول ﷺ الجمعة بالناس ، وقد وعظهم ، وأمرهم بالجد والجهاد ، وأخبرهم أن النصر لهم ما صبروا)[1] . ولقد وصف القرآن الكريم هذه الحالة النفسية العالية فقال : ﴿ **وَلَقَدْ كُنتُمْ تَمَنَّوْنَ الْمَوْتَ مِن قَبْلِ أَن تَلْقَوْهُ فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ** ﴾ [آل عمران : ١٤٣] .

من هذه الذروة فى الثقة بالنصر ، والجيش يمضى بمعنويات عالية ، كانت المفاجأة الأولى فى انسحاب ثلث الجيش عائداً إلى المدينة، ومع ذلك فلم يفت هذا الأمر فى أعضاد الناس، وتسارع الصبيان للانضمام للجيش، فأعادهم رسول الله ﷺ إلى المدينة ، وتحقق النصر الأول كما قال القرآن الكريم كذلك : ﴿ **وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللَّهُ وَعْدَهُ إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِ ...** ﴾ [آل عمران: ١٥٢] . واستطاع سبعمائة مقاتل أن يحققوا نصراً ساحقاً على ثلاثة آلاف من المشركين ، كما يقول المباركفورى عن هذا النصر : (هكذا دارت رحى الحرب الزبون ، وظل الجيش الإسلامى الصغير مسيطراً على الموقف كله ، حتى خارت عزائم أبطال المشركين ، وأخذت صفوفهم تتبدد عن اليمين والشمال والأمام والخلف ، كأن ثلاثة آلاف مشرك يواجهون ثلاثين ألف مسلم لا بضع مئات قلائل ، وظهر المسلمون فى أعلى صور الشجاعة واليقين .

وبعد أن بذلت قريش أقصى جهدها لسد هجوم المسلمين أحست بالعجز والخور ، وانكسرت همتها ، حتى لم يجترئ أحد منها أن يدنو من لوائها الذى

---

(١) إمتاع الأسماع للمقريزى ١ / ١١٧ .

سقط ـ بعد مقتل صؤاب ـ فيحمله ليدور حوله القتال، فأخذت فى الانسحاب، ولجأت إلى الفرار، ونسيت ما كانت تتحدث به فى نفوسها من أخذ الثأر والوتر والانتقام ، وإعادة العز والمجد والوقار) [1].

وقال ابن إسحاق : (ثم أنزل الله نصره على المسلمين ، وصدقهم وعده ، فحسوهم بالسيوف حتى كشفوهم عن المعسكر ، وكانت الهزيمة لا شك فيها . روى عبد الله بن الزبير عن أبيه أنه قال: والله لقد رأيتنى أنظر إلى خدم ـ سوق ـ هند بنت عتبة وصواحبها مشمرات هوارب ما دون أخذهن قليل ولا كثير) [2] ، ومن هذه القمة السامقة تبدأ الابتلاءات والمحن .

أ ـ محنة أحد :

يصف المقريزى هذه المحنة بقوله : (وكانت الريح أول النهار صبا ، فصارت دبورا ، وبينا المسلمون قد شغلوا بالنهب والغنائم ؛ إذ دخلت الخيل تنادى فرسانها بشعارهم (يا للعزى ، يا لهبل) ووضعوا فى المسلمين السيوف وهم آمنون ، وكلّ منهم فى يديه أو فى حضنه شىء قد أخذه ، فقتلوا فيهم قتلاً ذريعاً ، وتفرق المسلمون فى كل وجه ، وتركوا ما انتهبوا ، وخلّوا من أسروا ، وكسر خالد بن الوليد وعكرمة بن أبى جهل فى الخيل إلى موضع الرماة ، فرماهم عبد الله بن جبير بمن معه حتى قتل ، فجردوه ومُثِّل به أقبح المُثل ، وكانت الرماح قد شرعت فى بطنه حتى خرقت ما بين سرته إلى خاصرته إلى عانته وخرجت حُشوته ، وجرح عامة من كان معه ، وانتقضت صفوف المسلمين ، ونادى إبليس عند جبل عينين ـ وقد تصور فى صورة جعال بن سراقة ـ إن محمداً قد قتل ، ثلاث صرخات ؛ فما كانت دولة أسرع من دولة المشركين ، واختلط المسلمون وصاروا يقتلون ويضرب بعضهم بعضاً ما يشعرون من العجلة والدهش ، وجرح أسيد بن حضير جرحين ضربه أحدهما أبو بردة بن نيار وما يدرى ؛ وضرب أبو زَعنة أبا بردة ضربتين وما يشعر ، والتقت أسياف المسلمين على اليمان وهم لا يعرفونه حين اختلطوا وحذيفة يقول : أبى ! أبى !! حتى قتل ، فقال حذيفة : يغفر الله لكم وهو أرحم الراحمين ، فزادته عند رسول الله ﷺ خيراً ، وأمر رسول الله بديته أن تخرج ، فتصدق حذيفة بن اليمان بديته على المسلمين .

---

(١) الرحيق المختوم ص ٢٩٣ .

(٢) السيرة النبوية لابن هشام ٢ / ٧٧ .

وأقبل الحباب بن المنذر بن الجموح يصيح : يا آل سلمة فأقبلوا إليه عُنُقاً واحدة : لبيك داعى الله ! فيضرب يومئذ جبار بن صخر فى رأسه وما يدرى ، حتى أظهروا الشعار بينهم فجعلوا يصيحون : أمت أمت فكف بعضهم عن بعض، وقتل مصعب بن عمير وبيده اللواء . . . وتفرق المسلمون فى كل وجه ، وأصعدوا فى الجبل لما نادى الشيطان : قتل محمد . . . وصار أبو سفيان بن حرب يقول : يا معشر قريش، أيكم قتل محمداً ؟ فقال ابن قميئة : أنا قتلته ! قال : نسوِّرك [1] كما تفعل الأعاجم بأبطالها ، وجعل يطوف بأبى عامر الفاسق فى المعرَك ، هل يرى محمداً ؟ وتصفح القتلى فقال : ما نرى مصرع محمد ؛ كذب ابن قميئة ، ولقى خالد بن الوليد فقال : هل تبين عندك قتل محمد ؟ قال: رأيته قبل فى نفر من أصحابه مصعدين فى الجبل ، قال أبو سفيان : هذا حق ، وجعل رسول الله ﷺ ـ وقد انكشف الناس إلى الجبل وهم لا يلوون عليه ـ يقول: « إلىَّ يا فلان، أنا رسول الله ! » فما عرَّج واحد عليه . هذا والنبل يأتيه ﷺ من كل ناحية ، وهو فى وسطها ، والله يصرفها عنه .

وكان أربعة من قريش قد تعاهدوا وتعاقدوا على قتل رسول الله ﷺ وعرفهم المشركون بذلك ، وهم : عبد الله بن شهاب ، وعتبة بن أبى وقاص ، وعمر بن قميئة ، وأبى بن خلف ، ورمى عتبة يومئذ رسول الله ﷺ بأربعة أحجار فكسر رباعيته ، وشج فى وجنتيه حتى غاب حَلَقُ المِغفر [2] فى وجنته ، وأصيبت ركبتاه وجحشتا [3] .

وقتل من المسلمين بأحد أربعة وسبعون : أربعة من قريش وسائرهم من الأنصار . . . وجعل عبد الله بن أبى والمنافقون يشمتون معه ، ويسرون بما أصاب المسلمين ، ويظهرون أقبح القول ، فيقول ابن أبى لابنه عبد الله ـ وهو جريح قد بات يكوى جراحه بالنار : ما كان خروجك معه إلى هذا الوجه برأى ! عصانى محمد وأطاع الولدان ، والله لكأنى كنت أنظر إلى هذا ؛ فقال ابنه : الذى صنع الله لرسوله وللمسلمين خير . . . وأظهرت اليهود القول السيئ فقالوا : ما محمد إلا طالب ملك! ما أصيب هكذا نبى قط، أصيب فى بدنه ، وأصيب فى أصحابه!

---

(١) نسوِّرك : نلبسك الأساور كسوارى كسرى .

(٢) المغفر : حلق وزرد ينسج من الدروع على قدر الرأس .

(٣) جحشتا : خدشتا خدشاً شديداً .

وجعل المنافقون يخذلون عن رسول الله ﷺ أصحابه ، ويأمرونهم بالتفرق عنه ، ويقولون : لو كان من قتل منكم عندنا ما قتل ، وسمع عمر بن الخطاب رضي الله عنه ذلك فى أماكن ، فمشى إلى رسول الله ﷺ يستأذنه فى قتل من سمع ذلك منه من يهود والمنافقين ، فقال عليه السلام : « يا عمر ، إن الله مظهر دينه ، ومعز نبيه ، ولليهود ذمة فلا أقتلهم » ؛ قال : فهؤلاء المنافقون !! قال : « أليس يظهرون شهادة أن لا إله إلا الله، وأنى رسول الله ؟ » قال : بلى ، يا رسول الله ! وإنما يفعلون ذلك تعوذاً من السيف ، فقد بان لنا أمرهم ، وأبدى الله أضغانهم عند هذه النكبة ! فقال: «نهيت عن قتل من قال لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، يا بن الخطاب، إن قريشاً لن ينالوا منا مثل هذا اليوم حتى نستلم الركن) (١) .

لقد كانت المعركة كما نرى انعطافة خطيرة فى سلم النصر ، ولم يعهد المسلمون مثل هذا أبداً ، ولقد أوضح القرآن الكريم فى الآيات التى نزلت فى أحد هذه المعانى والأوضاع النفسية التى عاناها المسلمون ما هو أكبر من الوصف البشرى القاصر، ولقد تناول الحديث الوضع والوهن الذى أصاب المسلمين عامة، ثم الأوضاع الخاصة للمنافقين منهم ، ثم الأوضاع الخاصة للربانيين منهم : ﴿ **إن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُ وَتِلْكَ الأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَاءَ وَاللَّهُ لا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ . وَلِيُمَحِّصَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَمْحَقَ الْكَافِرِينَ . أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ . وَلَقَدْ كُنتُمْ تَمَنَّوْنَ الْمَوْتَ مِن قَبْلِ أَن تَلْقَوْهُ فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ . وَمَا مُحَمَّدٌ إِلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ انقَلَبْتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ ...** ﴾ [آل عمران : ١٤٠ ـ ١٤٤] . فلقد كان خبر مقتل رسول الله ﷺ زلزلة عامة للصفوف ، وكان الانقلاب على الأعقاب على أثره ظاهرة عامة لم ينج منها إلا القليل ، وهم الربانيون الذين قاتلوا معه .

وأن يكون الحديث عن صف النبوة بهذه الصرامة ليدل أعمق الدلالة على عظم هذه المحنة .

إننا كثيراً ما نندفع فى التقليل من شأن القائد بحجة أننا أصحاب فكرة ، ونغالى فى هذا الأمر ، حتى لكأن القائد للجماعة لا يعدو أن يكون جنديا عاديا ،

---

(١) مقتطفات من غزوة أحد للمقريزى : إمتاع الأسماع ١/ ١٢٧ ـ ١٦٦ .

ونرى حب القائد والتفانى فى سبيله والتعلق به وثنية، فنكرر الجملة المعهودة : إذا غابت الفكرة ، برز الصنم . وإن كنا فى هذا الموقف أمام رسول رب العالمين ، وليس قائدا بشريا فقط ، لكن هذا يعنى من طرف آخر أهمية القائد الذى تلتقى القلوب عليه، ودوره فى تلاحم الصف وتآخيه، ولكم رأينا خالد بن الوليد ﷺ فى المعارك التى خاضها كيف كان يدفع بالصف كله إلى التضحية حين يكون أول من يخرج للمبارزة .

القرآن الكريم يقرر أن المسلمين الصحابة من الجيل الأول تزلزلوا لخبر مقتل رسول الله صلوات الله عليه ـ وإن كان لا يعذرهم بهذا الموقف ـ لكنه فى الوقت نفسه يثنى الثناء العطر على الذين ذادوا عنه وقاتلوا بجواره : ﴿ **وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيٍّ قَاتَلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ** ﴾ [آل عمران : ١٤٦] .

إننا بحاجة ونحن نربى هذه الجماعة المسلمة أن نوازن بين هذين الأمرين دون طغيان :

الأمر الأول : ربط الجنود بقائدهم ربطاً وثيقاً ، ربط حياة وموت ، واندفاعاً إلى الاستشهاد وراءه ، وتلبية لأمره وذوداً عنه .

الأمر الثانى : أن يكون عمق العقيدة وحبها أكبر من حب القائد فى القلب ، فلو سقط القائد فلابد من الموت على ما مات عليه ، والسير على نهجه ، ولئن تزعزع فلتكن العقيدة أكبر منه ، وما حبه والتفانى ذوداً عنه ، إلا لأنه يمثل الاستقامة على منهج الله ، ولابد أن نشير كذلك إلى عذر الشباب حين يفقدون القائد الذى يرون به المثل الأعلى ، ويتحركون من خلاله ، وما أحوج الجماعة المسلمة إلى هذا النموذج ، وهذه النماذج .

﴿ **وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللَّهُ وَعْدَهُ إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِ حَتَّىٰ إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَازَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَعَصَيْتُم مِّن بَعْدِ مَا أَرَاكُم مَّا تُحِبُّونَ مِنكُم مَّن يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ الْآخِرَةَ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ وَلَقَدْ عَفَا عَنكُمْ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ . إِذْ تُصْعِدُونَ وَلَا تَلْوُونَ عَلَىٰ أَحَدٍ وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِي أُخْرَاكُمْ فَأَثَابَكُمْ غَمًّا بِغَمٍّ لِّكَيْلَا تَحْزَنُوا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا مَا أَصَابَكُمْ وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ . ثُمَّ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّن بَعْدِ الْغَمِّ أَمَنَةً نُّعَاسًا يَغْشَىٰ طَائِفَةً مِّنكُمْ وَطَائِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ يَقُولُونَ هَل لَّنَا مِنَ الْأَمْرِ مِن شَيْءٍ قُلْ إِنَّ** ﴾

الأمر كُلَّهُ للهِ يُخفُونَ في أنفُسهم مَّا لا يُبدُونَ لَكَ يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لنا من الأمْرِ شيءٌ مَا قُتلْنا ها هُنا قُل لَّوْ كُنتُمْ في بُيُوتكُمْ لَبرزَ الَّذينَ كُتبَ عَلَيْهمُ الْقَتْلُ إلىٰ مَضَاجعهمْ وَليَبْتَليَ اللهُ ما في صُدُوركُمْ وَليُمحّصَ ما في قُلُوبكُمْ واللهُ عَليمٌ بذَات الصُّدُور . إنَّ الَّذينَ تَولَّوْا منكُمْ يومَ الْتقى الْجَمْعَان إنَّما استَزلَّهُمُ الشَّيْطَانُ ببَعْض ما كَسَبُوا وَلَقَدْ عَفَا اللَّهُ عَنْهُمْ إنَّ اللَّهَ غَفُورٌ حَليمٌ . يا أيُّها الَّذينَ آمَنُوا لا تَكُونُوا كَالَّذينَ كَفَرُوا وَقَالُوا لإخْوَانهمْ إذَا ضَربُوا في الأَرْضِ أَوْ كَانُوا غُزًى لَوْ كَانُوا عندَنَا مَا مَاتُوا وَمَا قُتلُوا ليَجْعَلَ اللَّهُ ذَلكَ حَسْرَةً في قُلُوبهمْ وَاللَّهُ يُحْيي وَيُميتُ وَاللهُ بما تَعْملُونَ بَصيرٌ . وَلَئن قُتلْتُمْ في سَبيل اللَّه أَوْ مُتُّمْ لَمَغْفرَةٌ منَ اللَّه وَرَحْمَةٌ خَيْرٌ مَمَّا يَجْمَعُونَ . وَلَئن مُّتُّمْ أَوْ قُتلْتُمْ لإلَى اللَّه تُحْشَرُونَ . فبمَا رَحْمَةٍ منَ اللَّه لنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَليظَ الْقَلْب لانفَضُّوا منْ حَوْلكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفرْ لَهُمْ وَشَاورْهُمْ في الأَمْرِ فَإذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ على اللَّه إنَّ اللَّهَ يُحبُّ الْمُتَوَكّلينَ ﴾ [آل عمران : ١٥٢ ـ ١٥٩] .

يقول المقريزى واصفاً هذه الحالة : (ولكن المسلمين أُتوا من قبل الرماة ، فإن المشركين لما انهزموا وتبعهم المسلمون يضعون السلاح فيهم حيث شاؤوا ووقعوا ينتهبون عسكرهم ، قال بعض الرماة لبعض: لم تقيمون هاهنا فى غير شىء ؟ قد هزم الله العدو ، وهؤلاء إخوانكم ينتهبون عسكرهم ! فادخلوا عسكر المشركين فاغنموا مع إخوانكم. فقال بعضهم: ألم تعلموا أن رسول الله ﷺ قال لكم : « احموا ظهورنا ، ولا تبرحوا مكانكم ؛ وإن رأيتمونا نقتل فلا تنصرونا ، وإن غنمنا فلا تشركونا. احموا ظهورنا » فقال الآخرون :لم يرد رسول الله هذا . وانطلقوا ، فلم يبق منهم مع أميرهم عبد الله بن جبير إلا دون العشرة ، وذهبوا إلى عسكر المشركين ينتهبون) (١) .

نحن أمام صورة حددها القرآن الكريم بقوله : ﴿ حَتَّىٰ إذَا فَشلْتُمْ وَتَنَازَعْتُمْ في الأمْرِ وَعَصَيْتُم مَّنْ بَعْدِ مَا أَرَاكُم مَّا تُحبُّونَ منكُم مَّن يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمنكُم مَّن يُرِيدُ الآخرَةَ... ﴾ . فلقد حدث طارئ جديد قلب موازين القوى فى قلب المعركة ، هذا الطارئ هو الفشل والتنازع فى الأمر، والميل إلى الدنيا . والفشل هنا ضعف ووهن أمام إغراء الدنيا وزينتها ، واختلفت الآراء حول الموضوع بين من يرى اللحوق بالغنائم ومن يرى الثبات فى الجبل ، يقول الشهيد سيد ـ رحمه الله ـ فى التعليق على هذه الآية :

---

(١) إمتاع الأسماع ١/١٢٧ ، ١٢٨ .

(وهو تقرير لحال الرماة ، وقد ضعف فريق منهم أمام إغراء الغنيمة ، ووقع النزاع بينهم وبين من يرون الطاعة المطلقة لأمر رسول الله ﷺ ، وانتهى الأمر إلى العصيان بعدما رأوا بأعينهم طلائع النصر الذى يحبونه ، فكانوا فريقين: فريقاً يريد غنيمة الدنيا، وفريقاً يريد ثواب الآخرة، وتوزعت القلوب فلم يعد الصف وحدة، ولم يعد الهدف واحداً . وشابت المطامع جلاء الإخلاص والتجرد الذى لابد منه فى معركة العقيدة ، فمعركة العقيدة ليست ككل معركة ، إنها معركة فى الميدان ومعركة فى الضمير ، ولا انتصار فى معركة الميدان دون الانتصار فى معركة الضمير، إنها معركة الله، فلا ينصر الله فيها إلا من خلصت نفوسهم لله وما داموا يرفعون راية الله وينتسبون إليها ، فإن الله لا يمنحهم النصر إلا إذا محصهم ومحضهم للراية التى رفعوها؛ كى لا يكون هناك غش ولا دخل ولا تمويه بالراية، ولقد يغلب المبطلون الذين يرفعون راية الباطل صريحة فى بعض المعارك ـ لحكمة يعلمها الله ـ أما الذين يرفعون راية العقيدة ولا يخلصون لها إخلاص التجرد ، فلا يمنحهم الله النصر أبدًا، حتى يبتليهم فيتمحصوا ويتمحضوا . . . وهذا ما يريد القرآن أن يجلوه للجماعة المسلمة بهذه الإشارة إلى موقفهم فى المعركة ، وهذا ما أراد الله ـ سبحانه ـ أن يعلمه للجماعة المسلمة، وهى تتلقى الهزيمة المريرة، والقرح الأليم ثمرة لهذا الموقف المضطرب المتأرجح : ﴿ **منكُم مَن يُريدُ الدُّنيا ومنكُم مَن يُريدُ الآخرة** ﴾ . والقرآن يسلط الأضواء على خفايا القلوب ، التى ما كان المسلمون أنفسهم يعرفون وجودها فى قلوبهم . . . عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال : ماكنت أرى أن أحداً من أصحاب رسول الله ﷺ يريد الدنيا حتى نزل فينا يوم أحد : ﴿ **منكُم مَن يُريدُ الدُّنْيا ومنكُم مَن يُريدُ الآخرة** ﴾ . وبذلك يضع قلوبهم أمامهم مكشوفة بما فيها ؛ ويعرف من أين جاءتهم الهزيمة ليتقوها ! وفى الوقت ذاته يكشف لهم عن طرف من حكمة الله وتدبيره وراء هذه الآلام التى تعرضوا لها ؛ ووراء هذه الأحداث التى وقعت بأسبابها الظاهرة : ﴿ **ثُمَّ صرفكُم عنهُم ليبتليكُم** ﴾ .

لقد كان هناك قدر الله وراء أفعال البشر ، فلما أن ضعفوا وتنازعوا وعصوا صرف الله قوتهم وبأسهم وانتباههم عن المشركين، وصرف الرماة عن ثغرة الجبل، وصرف المقاتلين عن الميدان ، فلاذوا بالفرار . وقع كل هذا مرتباً على ما صدر منهم ، ولكن مدبراً من الله ليبتليهم بالشدة والخوف والهزيمة والقتل والقرح ،

وما يتكشف عنه هذا كله من كشف مكنونات القلوب ، ومن تمحيص النفوس ، وتميز الصفوف)[1] .

ويقف المسلم أمام قول الله عز وجل مرة ثانية : ﴿ **حَتَّىٰ إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَازَعْتُمْ فِي الأَمْرِ وَعَصَيْتُم مِّنْ بَعْدِ مَا أَرَاكُم مَّا تُحِبُّونَ مِنكُم مَّن يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ الآخِرَةَ...** ﴾ فمن الذى فشل وتنازع وأحب الدنيا ؟

ظاهر الأمر أن هذا الكلام منصب على الرماة السبعين ، وهم عشر الصف الإسلامى ، هم عشر الجيش ، والتنازع قد وقع بينهم بين من يريد أن ينفذ أمر رسول الله ﷺ ويريد الآخرة ،وبين من نازعته نفسه إلى الغنيمة فى الدنيا ، خطيئة يقع بها أقل من عشر الجيش ـ لأنه بقى على الجبل حوالى العشر ـ فتنزل العقوبة بالجيش الإسلامى كله ، وينتزع منه النصر بأمر الله ـ سبحانه ـ وقائد الجيش محمد رسول الله ـ فما هو الميزان فى ذلك ؟

إن الله تعالى العليم بما فى القلوب ، يعرف من هم من غير الرماة يريدون الدنيا ، فالظاهرة ليست محصورة فيهم ، ولا شك فى ذلك ؛ لأن المنافقين الذين هاجمهم القرآن الكريم لتخاذلهم أمام المحنة لم يكونوا من الرماة، ولا نشك فى إرادتهم للدنيا وحبهم لها، لكننا نقول كذلك : إن فى جيش محمد ﷺ ، غير الرماة وغير المنافقين ، من يحبون الدنيا يركنون لها وإرادة الله تعالىً سبحانه أن يعاقب جيش فيه أمثال هؤلاء . ولا شك أن معصية واحدة واضحة صريحة صدرت من عشر الجيش انعكس أثرها على الجيش نفسه ، بل على قائده محمد ﷺ ، وقد شج وجهه ، وكسرت رباعيته وأدميت شفته ، ونقارن بين قضيتين :

لقد كان المنافقون المنسحبون فى بداية الأمر ثلث الجيش ، ومع هذا العدد الضخم فلم يحرم المؤمنون النصر،أو يستحقوا العقوبة وثلثهم من المنافقين،ويشير القرآن كذلك إلى وجود المنافقين فى الجيش بعد الثلث الذى انفصل، وذلك فى الحديث عنهم : ﴿ **وَطَائِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ...** ﴾ وذلك فى الحديث عنهم كذلك : ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَكُونُوا كَالَّذِينَ كَفَرُوا وَقَالُوا لإِخْوَانِهِمْ إِذَا ضَرَبُوا فِي الأَرْضِ أَوْ كَانُوا غُزًّى لَّوْ كَانُوا عِندَنَا مَا مَاتُوا وَمَا قُتِلُوا...** ﴾ . والمنافقون هم إخوان الكافرين من اليهود بلا شك ، ومن هؤلاء المنافقين من مات

(١) فى ظلال القرآن ، سورة آل عمران ، ص ١٠٦ ـ ١٠٨ المجلد ٢، ط دار إحياء التراث العربى .

أو قتل فى المعركة فى أحد .

مع وجود المنافقين فى الجيش ، ومع انفصال المنافقين عنه ، مع هذا العدد الضخم كله لم يحرم المؤمنون النصر ، وفيهم قرابة النصف ؛ لأن الله تعالى قال: ﴿ وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللَّهُ وَعْدَهُ إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِ ﴾ . فلقد استحقوا موعود الله بالنصر رغم انفصال ثلث الجيش ، وانكشاف البقية من المنافقين ، إنما كانت العقوبة من أجل هذا العشر الذى عصى بوضوح أمر رسول الله ﷺ وقد رأى ما يحب من موعود الله ، من أجل هذا العشر ومن معه من الذين أحبوا الدنيا وأرادوها فكانت العقوبة : ﴿ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ ﴾ وهذا الابتلاء عفو من الله ، وهذه المحنة عفو من الله ، ولقد عفا عنكم والله ذو فضلٍ على المؤمنين .

إن معصية الصف المؤمن ، والخلل فيه أضخم بكثير من معصية المنافقين المدسوسين فى الصف ، فالمؤمنون أعظم عند الله تعالى من أن يعاقبهم لوجود المنافقين والمندسين فيهم بغير علمهم ، إنما يستحقون العقوبة عندما ينحدرون هم أو ينحدر بعضهم فيعصى أمر قيادته ، ويعصى أمر رسول الله ﷺ فيعاقب بهم الجيش كله ، وحسبنا هذا الدرس العنيف ليكون أمام الحركة الإسلامية ولتعرف من أين تؤتى ، إنها لا تؤتى مما هو أكبر من طاقتها ، من المنافقين المتسللين المندسين فى الصف ، فالله تعالى يصرف بلاءهم وكيدهم ، إنما تؤتى من ضعف التربية فى هذا الصف ، فيكون الجندى المسلم أدنى من المستوى المطلوب ، ولو كان هؤلاء قلة فى الجيش .

وليس بعيداً عنا ما وقع للحركة الإسلامية فى بعض معاركها مع الطاغوت، فلقد كانت المخالفة الصريحة من جندى خرج على قيادته بعد أن كان منها مع المجموعة التى معه، ومع التوجيهات التى أصدرها للداخل باسم هذه القيادة أن وقعت مأساة القرن فى حماة ومحاولة إبادة البلد بما فيها وبمن فيها من العدو الطاغية ، وكانت المحنة الرهيبة التى ذهب ضحيتها الألوف من المقاتلين ومن الرجال والنساء والأطفال الذين لا يستطيعون حيلة ولايهتدون سبيلاً ، ولا شك أن لهذه المحنة أسباباً أخرى غير هذه المخالفة ، ولكن السبب المباشر لها هو هذا الموقف ، كما كان السبب المباشر لمحنة أحد هو موقف الرماة الستين .

ونستطيع أن نؤكد أن هذه الأمور التى تم الامتحان من أجلها من الفشل

والتنازع وحب الدنيا ليست خاصة بهؤلاء المخالفين ، إنما هى ظاهرة عامة تشمل الصف كله قاعدة وقيادة . فمن هذا الصف من يريد الدنيا ، ومن هذا الصف من يريد الآخرة ، فكان قدر الله تعالى أن يصرف المؤمنين عن الكفار ، ويكون الابتلاء للمؤمنين ، ويكون عفو الله وفضله عليهم ألا ينالهم المحق كما نال الكافرين ، وأن يتخذ منهم شهداء ، والله لا يحب الظالمين .

ولقد كان حكم الله تعالى على الصف الإسلامى فى أحد أن أوضح الفرق كذلك بين الفريقين من المؤمنين : ﴿ ثُمَّ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنۢ بَعْدِ الْغَمِّ أَمَنَةً نُّعَاسًا يَغْشَىٰ طَائِفَةً مِّنكُمْ ﴾ . فالذين يريدون الآخرة جاهدوا وصبروا ، وسكب الله تعالى فى قلوبهم السكينة والأمن إلى درجة لا يكاد يصدقها العقل لو كانت فى غير كتاب الله وسيرة رسوله ، أن يبلغ الأمن حد النعاس يغشى المؤمنين فى قلب المعركة ، والسيوف كالصواعق تنصب من كل جانب والنبال تنهمر كالمطر ، وخيل المشركين تقتحم الصفوف ، والمؤمنون أثبت من الجبال فى قلوبهم كما يقول أبو طلحة : (رفعت رأسى يوم أحد ، وجعلت أنظر ، وما منهم يومئذ أحد إلا يميل تحت جحفته من النعاس)[1] . وفى رواية أخرى عنه : غشينا النعاس ونحن فى مصافنا يوم أحد ، فجعل سيفى يسقط من يدى وآخذه ، ويسقط وآخذه) .

والفريق الآخر وصل به الضعف والوهن إلى عودة النفسية الجاهلية لديه ودخل الخلل إلى تصوراته العقيدية كذلك : ﴿ وَطَائِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ يَقُولُونَ هَل لَّنَا مِنَ الْأَمْرِ مِن شَيْءٍ قُلْ إِنَّ الْأَمْرَ كُلَّهُ لِلَّهِ يُخْفُونَ فِي أَنفُسِهِم مَّا لَا يُبْدُونَ لَكَ يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ مَّا قُتِلْنَا هَاهُنَا قُل لَّوْ كُنتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمْ وَلِيَبْتَلِيَ اللَّهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴾ [آل عمران: ١٥٤] .

والفريق الثالث لم يتمالك فى المعركة فلاذ فى الفرار : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ تَوَلَّوْا مِنكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ إِنَّمَا اسْتَزَلَّهُمُ الشَّيْطَانُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا وَلَقَدْ عَفَا اللَّهُ عَنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴾ [آل عمران : ١٥٥]. لاذوا بالفرار ولما يمر عليهم سنتان من الزمان بل سنة واحدة حين نزل عليهم قول الله عز وجل: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا زَحْفًا فَلَا تُوَلُّوهُمُ الْأَدْبَارَ. وَمَن يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِّقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِئَةٍ فَقَدْ بَاءَ

(١) رواه الترمذى والنسائى والحاكم .

بغضب مّن الله ومأواهُ جهنّمُ وبئسَ المصير﴾ [الأنفال: ١٥ ، ١٦] . ورسول الله ﷺ في المعركة ، فليس فئتهم حتى يتحيزوا إليه فى المدينة، ولقد عفا الله عنهم لشدة الهول الذى لاقوه ، حين أطبق عليهم الكفار .

إن ضخامة المحنة تظهر فى الوضع الذى انتهى إليه جيش النبوة ، بين النماذج الإيمانية العالية التى تمثلت فى :

١ ـ الربانيين : ﴿ وكأيّن مّن نّبيٍّ قاتل معهُ ربّيّون كثيرٌ فما وهنُوا لما أصابهُمْ في سبيل الله وما ضعُفُوا وما استكانُوا والله يُحبُّ الصّابرين . وما كان قولهُم إلاّ أن قالُوا ربّنا اغفرْ لنا ذُنُوبنا وإسْرافنا في أمْرنا وثبّتْ أقْدامنا وانصُرْنا على القوم الكافرين ﴾

[آل عمران : ١٤٦ ، ١٤٧]

٢ ـ الذين أصابهم النعاس أمنة منه : ﴿ ثُمّ أنزل عليْكُم مّنْ بعْد الْغمّ أمنةً نُّعاسا يغْشى طائفةً منكُمْ ...﴾ [آل عمران : ١٥٤] .

٣ ـ الذين ثبتوا بعد المحنة : ﴿ الّذين قال لهُمُ النّاسُ إنّ النّاس قدْ جمعُوا لكُمْ فاخْشوْهُمْ فزادهُمْ إيمانا وقالُوا حسْبُنا اللهُ ونعْم الْوكيلُ . فانقلبُوا بنعْمةٍ مّن الله وفضْلٍ لّم يمْسسْهُمْ سُوء... ﴾ [آل عمران : ١٧٣ ، ١٧٤] .

٤ ـ الذين قضوا شهداء فى المعركة : ﴿ ولا تحْسبنّ الّذين قُتلُوا في سبيل الله أمْواتًا بلْ أحْياءٌ عند ربّهمْ يُرْزقُونَ . فرحين بما آتاهُمُ اللّهُ من فضْله ويستبْشرُونَ بالّذين لمْ يلْحقُوا بهم مّنْ خلْفهمْ ألاّ خوْفٌ عليْهمْ ولا هُمْ يحْزنُونَ . يسْتبْشرُونَ بنعْمةٍ مّن اللّه وفضْلٍ... ﴾

[آل عمران : ١٦٩ ـ ١٧١]

٥ ـ الذين استجابوا للنداء رغم القرح والجراح : ﴿ الّذين اسْتجابُوا لله والرّسُول منْ بعْد ما أصابهُمُ الْقرْحُ للّذين أحْسنُوا منهُمْ واتّقوْا أجْرٌ عظيمٌ ﴾ [آل عمران : ١٧٢] .

ثم النماذج الضعيفة التى هزتها المحنة من الأعماق وهى التى تحدثنا عنها من قبل ، لكن الصف كله قد نالته المحنة بصورة من الصور ، إضافة إلى الجو العام، والرأى العام العربى الذى وصل إليه أنباء هذه المحنة ، وأن قريشاً قد انتقمت من رسول الله ﷺ وقتلت زهرة أصحابه ، ولم يكن مقتل حمزة ذا أثر قليل فى هذه الأجواء ، خاصة وهند بنت عتبة تملأ الدنيا ضجيجاً فى محافل العرب بثأرها لأبيها وعمها وأخيها وبكرها فى هذه المعركة . والمعركة الشعرية الإعلامية التى اشتعلت

بين المسلمين والمشركين بعد أحد تناقلتها المحافل فى كل مكان من الأرض العربية ، وحققت الغاية التى كان يحلم بها أبو جهل فى بدر أن يرد بدراً ويهزم محمداً ، ويقيم عليها عشرة أيام تعزف عليه القيان ويشرب الخمر ، وينحر الجزر حتى تسمع العرب بمسيره فلا تزال تهابه أبداً ، وهذا الذى جرى اليوم ، فانقلبت الكفة لصالح قريش ، وبدأ العرب يهمون بغزو المدينة .

يقول المباركفورى حول هذه المرحلة : (كان لمأساة أحد أثر سيئ على سمعة المؤمنين، فقد ذهبت ريحهم ، وزالت هيبتهم عن النفوس وزادت المتاعب الداخلية والخارجية على المؤمنين ، وأحاطت الأخطار بالمدينة من كل جانب ، وكاشف اليهود والمنافقون والأعراب بالعداء السافر ، وهمت كل طائفة منهم أن تنال من المؤمنين، بل طمعت فى أن تقضى عليهم، وتستأصل شأفتهم، فريح المسلمين التى كانت قد ذهبت فى معركة أحد تركت المسلمين ـ إلى حين ـ يهددون بالأخطار، ولكن تلك هى حكمة محمد ﷺ التى صرفت وجوه التيارات ، وأعادت للمسلمين هيبتهم المفقودة ، وأكسبت لهم العلو والمجد من جديد، وأول ما أقدم عليه بهذا الصدد هى حركة المطاردة التى قام بها إلى حمراء الأسد ، فقد حفظ بها مقداراً كبيراً من سمعة جيشه ، واستعاد بها من هيبتهم ومكانتهم ما ألقى اليهود والمنافقين فى الدهش والذهول ، ثم قام بمناورات أعادت للمسلمين هيبتهم بل زادت فيها ، وفى الصفحة الآتية شىء من تفاصيلها .

ب ـ سرية أبى سلمة :

أول من قام ضد المسلمين بعد نكسة أحد هم بنو أسد بن خزيمة، فقد نقلت استخبارات المدينة أن طلحة وسلمة ابنى خويلد قد سارا فى قومهما ومن أطاعهما يدعون بنى أسد بن خزيمة إلى حرب رسول اللّه ﷺ ، فسارع رسول اللّه ﷺ إلى بعث سرية قوامها مائة وخمسون رجلاً مقاتلاً من المهاجرين والأنصار ، وأمر عليهم أبا سلمة وعقد له لواء ، وباغت أبو سلمة بنى أسد بن خزيمة فى ديارهم قبل أن يقوموا بغارتهم ، فتشتتوا فى الأمر، وأصاب المسلمون إبلاً وشاءً لهم فاستاقوها وعادوا إلى المدينة سالمين غانمين لم يلقوا حرباً . وكان مبعث هذه السرية حين استهل هلال المحرم سنة ٤ للهجرة ـ أى أن بينها وبين أحد شهرين ونيفاً فقط .

ج ـ بعث عبد الله بن أنيس :

وفى اليوم الخامس من نفس الشهر ـ المحرم سنة ٤ هـ ـ نقلت الاستخبارات أن خالد بن سفيان الهذلى يحشد الجموع لحرب المسلمين ، فأرسل إليه النبى ﷺ عبد الله بن أنيس ليقضى عليه .

د ـ بعث الرجيع :

وفى شهر صفر من نفس السنة ـ أى الرابعة من الهجرة ـ قدم على رسول الله ﷺ وفد من عضل والقارة ، وذكروا أن فيهم إسلاماً ، وسألوا أن يبعث معهم من يعلمهم الدين، ويقرئهم القرآن ، فبعث معهم ستة نفر ـ فى قول ابن إسحاق وفى رواية البخارى أنهم عشرة . . . فذهبوا معهم فلما كانو بالرجيع ـ وهو ماء لهذيل بناحية الحجاز بين رابغ وجدة ـ استصرخوا عليهم حيا من هذيل يقال لهم بنو لحيان ، فتبعهم ما يقرب من مائة رام، واقتصوا آثارهم حتى لحقوهم ، فأحاطوا بهم ـ وكانوا قد لجؤوا إلى فدفد ـ وقالوا : لكم العهد والميثاق إن نزلتم إلينا ألا نقتل منكم رجلاً ، فأما عاصم فأبى النزول ، وقاتلهم فى أصحابه ، فقتل منهم سبعة بالنبل ، وبقى خبيب وزيد بن الدثنة ورجل آخر فأعطوهم العهد والميثاق مرة أخرى ، فنزلوا إليهم ، ولكنهم غدروا بهم وربطوهم بأوتار قسيهم ، فقال الرجل الثالث : هذا أول الغدر ، وأبى أن يصحبهم ، فجرروه وعالجوه على أن يصحبهم فلم يفعل فقتلوه ، وانطلقوا بخبيب وزيد وباعوهما بمكة .

هـ ـ مأساة بئر معونة :

وفى نفس الشهر الذى وقعت فيه مأساة الرجيع وقعت مأساة أخرى أشد وأفظع من الأولى وهى التى تعرف بوقعة بئر معونة . وملخصها أن أبا براء عامر ابن مالك المدعو بملاعب الأسنة قدم على رسول الله ﷺ بالمدينة ، فدعاه إلى الإسلام فلم يسلم ولم يبعد ، فقال : يا رسول الله ، لو بعثت أصحابك إلى أهل نجد يدعونهم إلى دينك ، لرجوت أن يجيبوهم ، فقال : « إنى أخاف عليهم أهل نجد » ، فقال أبو براء : أنا لهم جار ، فبعث معه أربعين رجلاً فى قول ابن إسحاق ، وفى الصحيح أنهم كانوا سبعين ، وأمر عليهم المنذر بن عمرو ـ وكانوا من خيار المسلمين وفضلائهم وساداتهم وقرائهم ـ فساروا يحتطبون النهار يشترون به الطعام لأهل الصفة ، ويتدارسون القرآن ، ويصلون بالليل حتى نزلوا

بئر معونة ، ثم بعثوا حرام بن ملحان أخا أم سليم بكتاب رسول الله ﷺ إلى عدو الله عامر بن الطفيل فلم ينظر فيه ، وأمر رجلاً فطعنه بالحربة من خلفه . فلما أنفذها فيه ورأى الدم قال حرام : فزت ورب الكعبة .

ثم استنفر عدو الله لفوره بنى عامر إلى قتال الباقين ، فلم يجيبوه لأجل جوار أبى براء ، فاستنفر بنى سليم ، فأجابته عصية ورعل وذكوان ، فجاؤوا حتى أحاطوا بأصحاب رسول الله ﷺ ، فقاتلوا حتى قتلوا عن آخرهم إلا كعب ابن زيد بن النجار فإنه ارتث من بين القتلى ، فعاش حتى قتل يوم الخندق . . . ورجع عمرو بن أمية الضمرى إلى النبى ﷺ حاملاً معه أنباء المصاب الفادح ، مصرع سبعين من أفاضل المسلمين ، تذكر نكبتهم الكبيرة بنكبة أحد إلا أن هؤلاء ذهبوا فى قتال واضح ، وأولئك ذهبوا فى غدرة شائنة ، وقد تألم النبى ﷺ لأجل هذه المأساة ولأجل مأساة الرجيع اللتين وقعتا خلال أيام معدودة تألماً شديداً، وتغلب عليه الحزن والقلق [1] حتى دعا على هؤلاء الأقوام والقبائل التى قامت بالغدر والفتك فى أصحابه [2] .

و ـ غدر بنى النضير :

قد أسلفنا أن اليهود كانوا يتحرقون غيظا على الإسلام والمسلمين ، ولكنهم بعد وقعة أحد تجرؤوا فكاشفوا بالعداوة والغدر ، وأخذوا يتصلون بالمنافقين وبالمشركين من أهل مكة سرا ، ويعملون لصالحهم ضد المسلمين، وصبر النبى ﷺ حتى ازدادوا جرأة وجسارة بعد وقعة الرجيع وبئر معونة حتى قاموا بمؤامرة تهدف القضاء على النبى ﷺ ، وبيان ذلك أنه ﷺ خرج إليهم فى نفرٍ من أصحابه وكلمهم أن يعينوه فى دية الكلابيين اللذين قتلهما عمرو بن أمية الضمرى ـ وكان ذلك يجب عليهم حسب بنود المعاهدة ـ فقالوا: نفعل يا أبا لقاسم، اجلس ها هنا حتى نقضى حاجتك، فجلس إلى جنب جدار من بيوتهم ينتظر وفاءهم بما وعدوا، وجلس معه أبو بكر وعمر وعلى وطائفة من أصحابه ، وخلا اليهود بعضهم إلى بعض، وسول لهم الشيطان الشقاء الذى كتب عليهم، فتآمروا بقتله ﷺ، وقالوا: أيكم يأخذ هذه الرحى ويصعد فيلقيها على رأسه يشدخه بها ؟ فقال أشقاهم

---

(١) ذكر الواقدى : أن خبر أصحاب الرجيع وخبر أصحاب بئر معونة أتى النبى ﷺ فى ليلة واحدة .

(٢) كانت غزوة بنى النضير فى ربيع الأول سنة ٤ من الهجرة .

عمرو ابن جحاش: أنا ، فقال لهم سلام بن مشكم : لا تفعلوا فواللّه ليخبرن بما هممتم به ، وإنه لنقض العهد الذى بيننا وبينه ، لكنهم عزمو على تنفيذ خطتهم.

ز ـ غزوة نجد (١) :

قبل أن يقوم النبى بتأديب أولئك الغادرين ـ الأعراب الذين آذوا المسلمين بعد أحد ـ نقلت إليه استخبارات المدينة بتحشد جموع البدو والأعراب من بنى محارب وبنى ثعلبة من غطفان ، فسارع النبى ﷺ إلى الخروج ، يجوس فيافى نجد ، ويلقى بذور الخوف فى أفئدة أولئك البدو القساة ، حتى لا يعاودوا مناكرهم التى ارتكبوها مع المسلمين ، وأضحى الأعراب الذين مردوا على النهب والسطو لا يسمعون بمقدم المسلمين إلا حذروا وتمنعوا فى رؤوس الجبال ، وهكذا أرهب المسلمون هذه القبائل المغيرة وخلطوا بمشاعرهم الرعب ، ثم رجعوا إلى المدينة آمنين .

ح ـ غزوة بدر الثانية :

(. . . ففى شعبان سنة ٤ هـ خرج رسول اللّه ﷺ لموعده فى ألف وخمسمائة وكانت الخيل عشرة أفراس ، وحمل لواءه على بن أبى طالب ، واستخلف على المدينة عبد اللّه بن رواحة وانتهى إلى بدر ، فأقام بها ينتظر المشركين ، وأما أبو سفيان فخرج فى ألفين من المشركين ومعهم خمسون فرساً ، حتى انتهى إلى مر الظهران على بعد مرحلة من مكة ، فنزل بمجنة ـ ماء فى تلك الناحية ـ فاحتال للرجوع وقال لأصحابه : يا معشر قريش ، إنه لا يصلحكم إلا عام خصب ترعون فيه الشجر ، وتشربون فيه اللبن ، وإن عامكم هذا عام جدب، وإنى راجع فارجعوا) (٢) ، ويبدو أن الخوف والهيبة كانت مستولية على مشاعر الجيش أيضاً ، فقد رجع الناس ولم يبدوا أى مصادمة لهذا الرأى وأى إصرار على مواصلة السير للقاء المسلمين ، وأما المسلمون فأقاموا ببدر ثمانية أيام ينتظرون العدو ، وباعوا ما معهم من التجارة . فربحوا بدرهم درهمين ، ثم رجعوا إلى المدينة ، وقد انتقل زمام المفاجأة إلى أيديهم ، وتوطدت هيبتهم فى النفوس ، وسادوا على الموقف .

---

(١) وكانت غزوة نجد فى ربيع الثانى أو جمادى الأولى .

(٢) السيرة النبوية لابن هشام ٢/ ٢٠٩ .

ط ـ غزوة دومة الجندل :

عاد رسول اللّه ﷺ من بدر ، وقد ساد المنطقة الأمن والسلام ، واطمأنت دولته ، فتفرغ للتوجه إلى أقصى حدود العرب حتى تصير السيطرة للمسلمين على الموقف ، ويعترف بذلك الموالون والمعادون .

مكث بعد بدر الصغرى فى المدينة ستة أشهر ، ثم جاءت إليه الأخبار بأن القبائل حول دومة الجندل ـ قريباً من الشام ـ تقطع الطريق هناك ، وتنهب ما يمر بها ، وأنها قد حشدت جمعاً كبيراً تريد أن تهاجم المدينة ، فاستعمل رسول اللّه ﷺ على المدينة سباع بن عرفطة الغفارى ، وخرج فى ألف من المسلمين لخمس ليال بقين من ربيع الأول سنة ٥ للهجرة ، وأخذ رجلاً من بنى عذرة دليلاً للطريق يقالُ له : مذكور ، خرج يسير الليل ويكمن النهار ، حتى يفاجئ أعداءهم وهم غارون ، فلما دنا منهم إذا هم مغربون ، فهجم على ماشيتهم ورعائهم فأصاب من أصاب وهرب من هرب .

ى ـ غزوة الأحزاب :

خرجت من الجنوب قريش وكنانة وحلفاؤهم من أهل تهامة ، وقائدهم أبو سفيان فى أربعة آلاف، ووافاهم بنو سليم بمر الظهران ، وخرجت من المشرق قبائل غطفان ، واتجهت هذه الأحزاب وتحركت نحو المدينة على ميعاد كانت قد تعاقدت عليه ، وبعد أيام تجمع حول المدينة جيش عرمرم يبلغ عدده عشرة آلاف مقاتل ، جيش ربما يزيد عدده عن جميع من فى المدينة من النساء والصبيان والشباب والشيوخ ، ولو بلغت هذه الأحزاب المحزبة والجنود المجندة إلى أسوار المدينة بغتة لكانت أعظم خطرًا على كيان المسلمين مما يقاس ، ربما تبلغ إلى استئصال الشأفة وإبادة الخضراء ، وسارع رسول اللّه ﷺ إلى عقد مجلس استشارى أعلى ، تناول فيه موضوع خطة الدفاع عن كيان المدينة ، وبعد مناقشات جرت بين القادة وأهل الشورى اتفقوا على قرار قدمه الصحابى النبيل سلمان الفارسى رضي الله عنه ، قال سلمان : يا رسول اللّه ، إنا كنا بأرض فارس إذا حوصرنا خندقنا علينا ـ وكانت خطة حكيمة لم تكن تعرفها العرب قبل ذلك . وأسرع رسول اللّه ﷺ إلى تنفيذ هذه الخطة ، فوكل إلى كل عشرة رجال أن يحفروا من الخندق أربعين ذراعاً .

وأخذ المشركون يدورون حول الخندق غضاباً يتحسسون نقطة ضعيفة ، لينحدروا منها، وأخذ المسلمون يتطلعون إلى جولات المشركين ، يرشقونهم بالنبل حتى لا يجترئوا على الاقتراب منه ، ولا يستطيعوا أن يقتحموه أو يهيلوا عليه الترب ليبنوا به طريقاً يمكنهم من العبور ، وقد حاول المشركون فى بعض الأيام محاولة بليغة لاقتحام الخندق ، أو لبناء الطريق فيها . ولكن المسلمين كافحوا مكافحة مجيدة ، ورشقوهم بالنبل وناضلوهم أشد النضال حتى فشل المشركون فى محاولتهم ؛ ولأجل الاشتغال بمثل هذه المكافحة الشديدة فات بعض الصلوات عن رسول اللّه ﷺ والمسلمين، وقد استاء رسول اللّه ﷺ لفوات هذه الصلاة حتى دعا على المشركين . ففى البخارى : أنه قال يوم الخندق : « ملأ الله عليهم بيوتهم وقبورهم ناراً كما شغلونا عن الصلاة الوسطى حتى غابت الشمس » . وفى مسند أحمد والشافعى : أنهم حبسوه عن صلاة الظهر والعصر والمغرب والعشاء فصلاهن جميعاً ، قال النووى : وطريق الجمع بين هذه الروايات أن وقعة الخندق بقيت أياماً فكان هذا فى بعض الأيام ، وهذا فى بعضها .

ومن هنا يؤخذ أن محاولة العبور من المشركين ، والمكافحة المتواصلة من المسلمين دامت أياماً ، إلا أن الخندق لما كان حائلاً بين الجيشين لم يجر بينهما قتال مباشر، وحرب دامية بل اقتصروا على المراماة والمناضلة . . . وبينما كان المسلمون يواجهون هذه الشدائد على جبهة المعركة ، كانت أفاعى الدس والتآمر تتقلب فى جحورها تريد إيصال السم داخل أجسادهم ، انطلق كبير مجرمى بنى النضير إلى ديار بنى قريظة فأتى كعب بن أسد القرظى ـ سيد بنى قريظة ، وصاحب عقدهم وعهدهم ـ فلم يزل حيى بكعب يفتله فى الذروة والغارب . . . حتى نقض كعب ابن أسد عهده وبرئ مما كان بينه وبين المسلمين ، ودخل مع المشركين فى المحاربة ضد المسلمين ، وقد كان أحرج موقف يقفه المسلمون فلم يكن يحول بينهم وبين قريظة شىء يمنعهم من ضربهم من الخلف ، بينما كان أمامهم جيش عرمرم لم يكونوا يستطيعون الانصراف عنه ، وكانت ذراريهم ونساؤهم بمقربة من هؤلاء الغادرين فى غير منعة وحفظ ، وصاروا كما يقول اللّه تعالى: ﴿ **وَإِذْ زَاغَتِ الأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا . هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالاً شَدِيداً** ﴾ [الأحزاب : ١٠ ، ١١] ، ونجم النفاق من بعض المنافقين حتى قال : كان محمد يعدنا أن نأكل كنوز كسرى وقيصر ، وأحدنا اليوم لا يأمن على نفسه أن يذهب إلى

الغائط ، أما رسول اللّه ﷺ فتقنع بثوبه حين أتاه غدر بنى قريظة فاضطجع ومكث طويلاً حتى اشتد على الناس البلاء، ثم غلبته روح الأمل [1] فنهض يقول: « اللّه أكبر أبشروا يا معشر المسلمين بفتح اللّه ونصره ». ثم أخذ يخطط لمجابهة الظرف الراهن . . . وكانت غزوة الخندق سنة خمس من الهجرة فى شوال على أصح القولين، وأقام المشركون محاصرين رسول اللّه ﷺ والمسلمين شهراً أو نحو شهر . إن معركة الأحزاب لم تكن معركة خسائر ، بل كانت معركة أعصاب ، لم يجر فيها قتال مرير إلا أنها كانت من أحسم المعارك فى تاريخ الإسلام تمخضت عن تخاذل المشركين، وأفادت أن أية قوة من قوات العرب لا تستطيع استئصال القوة الصغيرة التى تنمو فى المدينة لأن العرب لم تكن تستطيع أن تأتى بجمع أقوى مما أتت به فى الأحزاب ، ولذلك قال رسول اللّه ﷺ حين أجلى الله الأحزاب : «والآن نغزوهم ولا يغزونا ، نحن نسير إليهم »)[2] [3] .

* * *

تجمع هذه الأحداث التى استمرت سنتين متتاليتين خطوط عريضة تمثل طبيعة هذه المرحلة ، وتوضح جوها العام :

الخط الأول :

تدهور السمعة الضخمة التى ارتفعت للمسلمين بعد بدر ، وكيف استطاع ثلاثمائة مقاتل أن ينتصروا على ألف مدججين بالسلاح ، كما أعقب بدراً النصر على بنى قينقاع، فالمسلمون مرفوضون فى البيئة الوثنية ، وهم منشقون عن قريش حامية الحرم ، وجاؤوا بدين جديد ، فما أن لاح للأعراب والقبائل المجاورة بوادر ضعف عند المسلمين حتى راحوا جميعاً يتهيؤون لغزو المدينة أو الغدر بالمسلمين على طبيعة الأعراب فى ذلك وطبيعة اليهود فى ذلك ، وإذا كان هذا البحر الزاخر من الأعداء هادئاً قبل الهجوم كله ، ولو كان أى شخصية غير نبى اللّه ، أو عقيدة غير الإسلام ، لانتهى وأصبح كأمس الدابر ، لكنه الرسول والرسالة .

---

(١) ليست القضية عند رسول اللّه ﷺ قضية أمل أو يأس ، بل هى قضية ثقة باللّه لا تحد ، أو تخطيط لمواجهة حاسمة ، أو تلق لوحى اللّه ، وكنا نود من علامتنا المباركفورى ألا يرى هذا التعليل لهذا الموقف .

(٢) عن صحيح البخارى ٢ / ٥٩١ .

(٣) أخذنا هذا التلخيص الجيد من العلامة المباركفورى من الصفحات ٣٢٥ ـ ٣٥١ ، فهو من أدق ما كتب فى هذا الموضوع وأوثقه . فجزاه اللّه عنا وعن المسلمين خير الجزاء .

الخط الثانى :

فلو نظرنا فى كل تحركات المسلمين العسكرية ، خلال هذه المرحلة لوجدناها تعتمد الهجوم كأقوى وسيلة من وسائل الدفاع ، وهو هجوم مركز مدروس مخطط له مهمته أن يضرب العدو قبل أن يتحرك نحوه، ولم يكن خط فتح الجبهات كله، أو ضرب عدو هادئ هو المحرك لهذه العمليات ، إنما كان الهدف منها إحباط التجمعات المضادة للإسلام ، والتى تعد لغزوه ، والمسلمون يحسبون فى كل يوم حساباً جديداً يمكن أن ينقض عليهم من الشمال أو الجنوب أو الشرق .

الخط الثالث :

لم يكن هدف الدعوة لينسى أبداً على الطريق، إنه دائماً الهدف الأول، وفى الوقت الذى رأى فيه رسول اللّه ﷺ فرصة سانحة لهذه الدعوة أن تنتشر لم يتوان أبداً عن بث الدعاة لذلك، وما المحنتان الضخمتان اللتان حلتا بالمسلمين فى الرجيع وبئر معونة إلا بسبب ذلك ، وكان هذا بعد أشهر قليلة من محنة أحد ، ولا شك أن انتشار الدعوة فى أرض جديدة ، يعنى كسب أنصار جدد لها ، وهذا ما حدا برسول اللّه ﷺ أن يبعث عشرة إلى عضل والقارة وأن يبعث أضخم تجمع دعوى إلى نجد قوامه سبعون من قراء المسلمين وفضلائهم وساداتهم . فنجاح هؤلاء فى دعوتهم يعنى أن تنضم نجد كلها لدولة الإسلام، ويأذن اللّه بالفتح من عنده فى أرض جديدة قد تكون أهم من المدينة ذاتها عاصمة الإسلام، وقبائل نجد تشكل خطراً ضخماً على الإسلام، وبالتالى ستكون أقوى أسلحته يوم تنضم له، وحتى ندرك بأس قبائل نجد نذكر موقف عامر بن الطفيل . يوم هدد رسول اللّه ﷺ بغزو المدينة وذلك فى المرحلة الثانية للدولة المسلمة وقال : (أما واللّه لأملأنها عليك خيلاً ورجالاً ، فلما ولى قال رسول اللّه ﷺ : « اللهم اكفنى عامر بن الطفيل »)[1]. وكانت رسالة رسول اللّه ﷺ إلى هذا الطاغية على أمل أن يسلم، وتدخل قواته كلها فى حظيرة الإسلام والجهاد ، وهذا ما يحسن أن تذكره الحركة الإسلامية دائماً وفى كل وقت . إنها دعوة قبل أن تكون ثورة ، وإنها مسؤولة عن نشر هذه العقيدة وإبلاغها إلى الناس فى أى ظرف وألا تتحول إلى شباب يحملون السلاح ويحلمون بالنصر ، فهذه نقطة قاتلة بالنسبة لها ، ولن تصل إلى

(١) السيرة النبوية لابن هشام ٢ / ٥٦٨ .

النصر حين تنسى الدعوة ، وتنسى بناء رجالها على ضوء هذا الدين بله دعوة الناس إليه .

الخط الرابع :

ولكن الواقع العملى كان على غير ما خطط وقدر له رسول اللّه ﷺ ، فقد ذهب العشرة الأوائل غدراً فى الرجيع ، وذهب القراء السبعون كذلك غدراً فى بئر معونة وقضوا شهداء جميعاً ، ولم تكن محنة بئر معونة بأقل من محنة أحد من حيث حجم الخسائر ، ونوعية الشهداء ، وكانت ضخامة المحنة أن قضوا فى شهرٍ واحد، ولم يملك رسول اللّه ﷺ لهم أكثر من استمطار الرحمة عليهم، والدعاء على الغادرين بهم فى قنوته، ولم يكن قادراً على الثأر لهم من أعدائهم ، وأهمية هذا الخط بالنسبة للحركة الإسلامية اليوم يحتاج له شباب الدعوة ورجالها حين يفاجؤون بفشل مخطط أقدمت عليه القيادة.

إن ضعف التربية فى صفوف الحركة الإسلامية سرعان ما يدفع شبابها إلى توجيه النقمة على القيادة ، وتوجيه السباب والاتهام لها ، والطعن فى صلاحيتها وإخلاصها ونيتها ، وإذا بنا أمام فاجعتين :

الأولى : فشل مخطط أو خسارة معركة .

الثانية : تأزم الثقة فى الصف المسلم وفقدانها أحياناً ، وتخلخل هذا الصف وضعفه وهو أخطر من الفاجعة الأولى .

ونود من شباب الدعوة ألا يجدوا الغرابة أو يستهجنوا ضعفاً أو خسارة ؛ لأن هذه سنة الأنبياء فى حربهم مع أعدائهم: ﴿ **إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُ وَتِلْكَ الأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ** ﴾ [آل عمران : ١٤٠] ، وكما قال أبو سفيان بين يدى هرقل : الحرب بيننا وبينه سجال ، ينال منا وننال منه ، كما يشير الأمر كذلك إلى إمكانية الثقة بمشرك والتعامل معه بأعرافه. فأبو براء مع أنه لم يدخل فى الإسلام، فقد قبل رسول اللّه ﷺ جواره للسبعين من صحبه ، ولم يخفر أبو براء ذمته ؛ لأن بنى عامر حافظوا على جواره ، إنما غدرت بنو سليم بهم بدعوة عامر بن الطفيل .

الخط الخامس :

ونود أن نشير إلى نقطة ثانية :

إن شباب الدعوة كثيراً ما يحكمون بسقوط القيادة لأنها خدعت من عدو ؛ ولأنها لم تستطع كشف هويته، وهذا ما جرى فى وقتنا الحاضر مع بعض قيادات الجماعة المسلمة حين دُخِل عليها من بعض أعدائها، فليطامن الشباب من غلوائهم، وهم يرون سيد الخلق الموحى إليه من السماء يخدع بالله فينخدع، ويرسل الشباب العشرة يدعون للإسلام، فإذا بهم يسلَّمون للأعداء من هؤلاء الغادرين .

الخط السادس :

صبر وثبات الشباب على هول المحنة وضخامتها ، فرغم مرور سنتين على تتابع المحن دون تحقيق نصر حربى يذكر ، فما فت ذلك فى أعضاد المسلمين ، وما ألان قناتهم ، ولا نقول الصف كله، بل غالبية الصف، ولم يتخلف جندى عن أمر يوكل إليه سواءٌ أكان وحده ليدخل جيش عدو ، أم يغتال قائد جيش ، أم يمضى فى سرية صغيرة يواجه بها جيشاً عرمرماً أم يلاحقه . لقد كانت صفة الالتزام والطاعة هى السمة الأساسية فى قلب هذه المحنة ، وما قصة حذيفة عنا ببعيدة حين انتدب رسول الله ﷺ رجلاً يأتيه بخبر القوم أيام الخندق ، فلم يستجب أحد من الخوف والجوع والبرد رغم أن رسول الله ﷺ اشترط لمن يخرج ليأتيه بالخبر السلامة، ورفقته فى الجنة، لكن عندما نادى حذيفة باسمه ما تردد حذيفة لحظة واحدة فى تلبية الأمر؛ لأنه أمر محدد لشخصه دون أن يعبأ بالجوع والبرد والخوف.

الخط السابع :

إن هذا التحرك العسكرى خلال السنتين لم يرافقه مواجهة مع العدو،لقد كان كله فض تجمع أو محاصرة موقع ، حتى غزوة بنى النضير التى رفعت معنويات المسلمين إلى الأوج. لم يقع فيها حرب تذكر، كما يقول تعالى: ﴿ **وَمَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ مِنْهُمْ فَمَا أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلَا رِكَابٍ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يُسَلِّطُ رُسُلَهُ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ** ﴾ [الحشر : ٦] .

فاللّه تعالى ألقى الرعب فى قلوبهم كما قال تعالى: ﴿ **وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُم بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِي الْمُؤْمِنِينَ فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِي الأَبْصَارِ** ﴾ [الحشر : ٢] .

الخط الثامن :

ويقظة القيادة واضحة تماماً خلال هذه المرحلة التى تراقب الجو كله من كل جهاته . من جهة مكة فى الجنوب ، ومن جهة نجد فى الشرق ، ومن جهة الشام فى الشمال ، وأى تجمع تسمع به يود أن ينقض على المدينة تباغته قبل أن يتحرك وتلاحقه . فتحطم أعصابه وأعصاب حلفائه . وإذا كنا نجد العذر للقيادة أن تخدع مرة واحدة ، فليس هذا يعنى أن تكون دائماً كذلك ، أو أن تبرر غفلتها وسذاجتها تحت هذا الستار ، فلئن وقعت المأساة والمحنة مرة أو مرتين ، لكن اليقظة النبوية العجيبة حطمت عشرات المحن التى يمكن أن تحل بالمسلمين لو ركنت مرة واحدة أو هدأت أو انشغلت بنفسها عن المعركة .

الخط التاسع :

وبهذا التحرك خلال هذه المرحلة ، وإن لم يتحقق نصر عسكرى حاسم ، فقد تحقق نصر معنوى مؤزر ، وذلك من خلال سرعة الحركة ودراستها المستأنية وتخطيطها المحكم ، ولم تمكن قريشاً من أن تتغنى بأمجادها كثيراً خاصة عندما تم تحدى المسلمين لقريش التى نكلت عن موعدها فى بدر الثانية ، وتعلل أبو سفيان بالجدب ، الذى لا يصلح للنفير ، واستطاع المسلمون فى نزولهم ببدر مكاناً وزماناً أن يؤكدوا قوة معنوياتهم وتخاذل أعدائهم ، كما أن جلاء بنى النضير عن المدينة، أعطى سمعة معنوية عالية لهم ، وأدخل الرعب فى صفوف أعدائهم ، والحركة الإسلامية مسؤولة دائماً عن بث الروح المعنوية العالية فى نفوس شبابها بالوسائل المكافئة ، كما أنها مسؤولة عن تفتيت صف أعدائها ، وهزيمتهم معنوياً كذلك، بحيث يحسون أن يد الحركة الإسلامية قادرة على أن تطالهم فى أى أرض فيحسبون لها ألف حساب ، وإلا فالمحنة تذبح الصف من الداخل قبل أن تذبحه من الخارج ، والنفوس ما لم تفتح أمامها آفاق العمل ، لن تسلك غير طريق اليأس، إن المسؤولية التى تحملها القيادة فى هذا المجال مسؤولية ضخمة ، ولا يكفى أبداً الكلام ما لم يرافقه عمل ملموس يؤكد ثبات واستمرار الجهاد دون وهنٍ أو توانٍ أو يأس.

الخط العاشر :

وهو الذى حدد نهاية هذه المرحلة بالانتقال من موقع الدفاع إلى موقع الهجوم وذلك فى نهاية المطاف ، بعد انتهاء غزوة الأحزاب حين قال رسول اللّه ﷺ : «الآن نغزوهم ولا يغزونا ، نحن نسير إليهم » ، إن هذه الكلمة لتؤكد المرحلية الضخمة فى هذه الدعوة ، وتؤكد التخطيط المنهجى ، والمنهجية الحركية التى تنتقل من خطوة إلى خطوة ، مبصرة مواقع خطواتها، عارفة منازل سيرها ، وأى عمل بدون خطة هو عمل فاشل ، لقد قال رسول اللّه ﷺ كلمته [1] بعد أضخم هجوم شهدته المدينة، من أضخم جيش شهدته الجزيرة فى تاريخها كله ، وجدير بمثل هذا الهجوم أن ينهى الإسلام، ويخضد شوكته، ويقطع أوصاله، غير أن الثبات فى وجه الإعصار، وعبقرية التحرك للمواجهة رد الذين كفروا بغيظهم ، لم ينالوا خيراً ، وكفى اللّه المؤمنين القتال. ولا شك أن الإرادة الربانية بنصر هذا الدين هى التى كشفت الغمة والمحنة عن المؤمنين ، وهذا جانب فى سنن اللّه لا يأتى إلا لمن يستحقه ولمن هو أهل له ، وصبر المؤمنين ، وثباتهم خلف قيادتهم ، وتحركهم لنصرة دينهم ، رغم الجوع القاتل ، والبرد القاتل ، والعدو الشرس الذى أحاط بهم إحاطة السوار بالمعصم ، جعل هؤلاء مؤهلين لنصر اللّه تعالى وعونه، ومؤهلين لأن يعطيهم النصر بدون قتال، ومؤهلين لأن يتحقق بهم موعود اللّه ، فلقد صدقوا ما عاهدوا اللّه عليه بشهادة اللّه : ﴿ **من الْمُؤْمنين رجَالٌ صدقُوا ما عاهدُوا اللهَ عليه فمنْهُم مَن قضىٰ نحْبَهُ ومنْهُم مَن ينتظرُ وما بدَّلُوا تبْديلاً** ﴾ [الأحزاب : ٢٣] ، ولم يضرهم وجود المنافقين فى صفوفهم، ووجود من يقول فى هذا الصف: ما وعدنا اللّه ورسوله إلا غروراً ، ووجود (من ينظر إليك نظر المغشى عليه من الموت) ووجود من يلوذ بالفرار متسكعاً وراء : ﴿ **إنَّ بُيُوتَنا عورَة** ﴾ [الأحزاب : ١٣] . لم يضر المؤمنين وجود هذه النماذج كلها أمام الذين صدقوا ما عاهدوا اللّه عليه وما بدلوا تبديلاً، فجاءهم نصر اللّه ، بعد أن زلزلوا زلزالاً شديداً. وكان هذا الثبات العظيم ، ليس من ثمرته فقط أن يرد اللّه الكافرين بغيظهم دون أن ينالوا خيراً ، بل كان وراء ذلك ابتداء عهد جديد كل الجدة ؛ عهد الهجوم على الكافرين وغزوهم ، « الآن نغزوهم ولا يغزونا ، نحن نسير إليهم » . **فإذا** ما اشتدت

---

(١) « الآن نغزوهم ولا يغزونا ».

المحنة ، ونزل الغم، ووقع الكرب ، فنصر الله قادم لمن ثبت وأخلص ، ولم يرج إلا الله تعالى وذكر الله كثيراً. ونستطيع أن نحدد طبيعة المعركة وأبعادها من خلال الرسالتين التاليتين المتبادلتين بين رسول الله ﷺ وأبى سفيان : فقد كتب أبو سفيان إلى رسول الله ﷺ يقول: (باسمك اللهم ، فإني أحلف باللات والعزى لقد سرتُ إليك فى جمعنا ، وإنا نريد ألا نعود حتى نستأصلكم ، فرأيتك قد كرهت لقاءنا ، وجعلت مضايق وخنادق ، فليت شعرى من علمك هذا ؟ فإن نرجع عنكم فلكم منا يوم كيوم أحد). فقرأه أبىّ بن كعب على رسول الله ﷺ فى قبته، وكتب إليه (« من محمد رسول الله إلى أبى سفيان بن حرب ، أما بعد ، فقديماً غرك بالله الغرور ، أما ما ذكرت أنك سرت إلينا فى جمعكم ، وأنك لا تريد أن تعود حتى تستأصلنا فذلك أمر يحول الله بينك وبينه ، ويجعل لنا العاقبة حتى لا تذكر اللات والعزى . وأما قولك: من علمك الذى صنعنا من الخندق ؟ فإن الله ألهمنى ذلك لما أراد من غيظك وغيظ أصحابك ، وليأتين عليك يوم تدافعنى بالراح ، وليأتين عليك يوم أكسر فيه اللات والعزى وإساف ونائلة وهبل، حتى أذكرك ذلك »)[1] . فالرسالتان تحددان تماماً إخفاق أبى سفيان وجمعه الأحزاب كلها دون تحقيق هدفه ، وتوضح الغيظ الذى نزل به من جراء الخندق ، وأنه عاد كما قدم دون أن يحقق شيئاً من أهدافه ، كما تحدد الرسالة الثانية الفشل الذريع الذى حل بهجوم الأحزاب ، والثقة العميقة بنصر الله ، وتحطيم الطواغيت .

الخط الحادى عشر :

وعلى ما لقى المسلمون من هول هذه المحنة وضخامتها ، لم يرض رسول الله ﷺ أن يضم إلى جيشه جندياً واحداً مشركاً يستعين به على العدو ، على الرغم من كثرة العروض التى عرضت عليه من اليهود وغيرهم ، وحرص على أن يكون جيشه نقياً من الشوائب ، لا يقاتل تحت لوائه إلا من آمن بأهدافه ، بل خسر فى أحد ثلث جيشه إضافة إلى الكتيبة الحسنة التسليح من اليهود التى أرادت أن تنضم إلى الجيش الإسلامى ، لقد كان التميز واضحاً تماماً فى الجيش المسلم ، وأعلن رسول الله ﷺ رأيه صريحاً لليهود :« مروهم فليرجعوا فإنا لا ننتصر بأهل الكفر على أهل الشرك ». ورغم المعاهدات والعقود التى عقدها عليه الصلاة والسلام

(١) إمتاع الأسماع للمقريزى ١/ ٢٣٩ ، ٢٤٠ .

مع خصوم الإسلام ، وفتح فى هذه العهود إمكانية طلب النصرة منهم ، إلا أن تلك العقود والأحلاف لم تكن تتجاوز الجانب السياسى فى الكف عن حرب المسلمين ، أو إمدادهم بالمال والسلاح ، أو تخذيل العدو عنهم . لكن هذا لم يصل إلى مرحلة الاشتراك فى الحرب ، والذى نعلمه أن هذا الأمر لا يدخل فى نطاق الحرام ؛ لأن الفقه الإسلامى قال كلمته بهذا الصدد وجمهور الفقهاء على جوازه ، ولكن الحرص يجب أن يكون على أعلى صورة لدى الحركة الإسلامية فى هذا المجال ، دون أن تشرك ولو جندياً واحداً فى صفها غير مؤمن بعقيدتها وأهدافها حتى لا يفسد الصف ويبث فيه الوهن والضعف.

السمة السابعة عشرة

تباشير النصر فى قلب المحنة

لقد كان شخص رسول اللّه ﷺ يمثل أعظم قوة بشرية فى التاريخ. فما عرف رجل يستطيع أن يؤثر فى صفوف جيشه وجنده مثل شخص رسول اللّه، لقد كان دائماً فى المحنة رجلها الأول، وبكلمات قلائل ينفخ فى جيشه روح الاستبسال والجهاد، ويتحدث عن النصر حين يفقد الناس أملهم بالنصر، ويضرع إلى اللّه تعالى يجأر بالدعاء حين يثق الناس بقدرتهم على النصر . ولنشهده عليه الصلاة والسلام فى هذه المواقف العصيبة :

ها هو فى بدر يستمع لقول سعد بن معاذ رضي الله عنه : لعلك تخشى أن تكون الأنصار ترى حقاً عليها ألا تنصرك إلا فى ديارهم، وإنى أقول عن الأنصار وأجيب عنهم ، فاظعن حيث شئت ، وصل حبل من شئت ، واقطع حبل من شئت ، وخذ من أموالنا ما شئت ، واعطنا ما شئت ، وما أخذت منا كان أحب إلينا مما تركت ، وما أمرت فيه من أمر فأمرنا تبع لأمرك ، فواللّه لئن سرت حتى تبلغ البرك من غمدان لنسيرن معك ، واللّه لئن استعرضت بنا هذا البحر فخضته لخضناه معك (١) .

إن القول العظيم لسعد ليؤكد الولاء التام من الأنصار لرسول اللّه ﷺ

(١) شرح المواهب للزرقانى ١ / ٤٧٩ .

واستعدادهم للتضحية والموت مع رسول الله ، لكنه يؤكد من طرف آخر أن الأمل بالنصر غير قائم ، فخوض البحر يعنى الاستشهاد أكثر مما يعنى النصر، وأمام هذه الروح العالية كان جواب رسول الله ﷺ : « سيروا وأبشروا فإن الله تعالى قد وعدنى إحدى الطائفتين ، والله لكأنى الآن أنظر إلى مصارع القوم » (١).

ويقول المقريزى : (ثم أراهم مصارعهم يومئذ، هذا مصرع فلان ، وهذا مصرع فلان. فما عدا كل رجل مصرعه ، فعلم القوم أنهم يلاقون القتال وأن العير تفلت) (٢).

ويحدثنا المقريزى عن موقف النبى ﷺ يوم أحد ، وفى أحرج اللحظات وأشدها هولا :(وخرج محمد بن مسلمة يطلب مع النساء ماءً. . . وكان رسول الله ﷺ قد عطش عطشاً شديداً ، فذهب محمد إلى قناة حتى استقى من حسى(٣) ، فأتى بماء عذب فشرب رسول الله ﷺ ، ودعا له بخير . وجعل الدم لا ينقطع - من وجه رسول الله ﷺ - وجعل النبى ﷺ يقول : « لن ينالوا منا مثلها حتى تستلموا الركن ») (٤) .

فالجيش المحطم، والوجه الجريح، والعدو الطاغى، والشهداء السبعون، ومع ذلك يؤكد لجيشه العظيم أن المسلمين لن تنالهم مثل هذه المحنة حتى يستلموا الركن، وهذا يعنى أن النصر قادم لا محالة له بإذن الله، والنصر لهذه العصبة بالذات التى تدخل مكة وتستلم ركن الكعبة المشرفة .

وهذا موقفه عليه الصلاة والسلام يوم المحنة الكبرى، يوم الخندق. فقد روى البخارى عن جابر رضي الله عنه قال: (إنا يوم الخندق نحفر فعرضَت كدية شديدة فجاؤوا النبى ﷺ فقالوا: هذه كدية عرضت فى الخندق فقال: « أنا نازل » ، ثم قام وبطنه معصوب بحجر- ولبثنا ثلاثة أيام لا نذوق ذواقاً - فأخذ النبى ﷺ المعول، فضرب فعاد كثيباً أهيل أو أهيم) (٥) ، أى صار رملاً لا يتماسك . (وقال البراء : لما كان يوم الخندق عرضت لنا فى بعض الخندق صخرة لا تأخذ منها المعاول ، فاشتكينا ذلك لرسول الله ﷺ ، فجاء وأخذ المعول فقال : « بسم الله » ، ثم

---

(١) شرح المواهب للزرقانى ١ / ٤٧٩ .
(٢) إمتاع الأسماع ١/ ٧٥ .
(٣) رمل متراكم أسفله صخر صلد ينبع منه ماء عذب .
(٤) إمتاع الأسماع ١/ ١٣٨ .
(٥) البخارى ٢/ ٥٨٨، ٥٨٩ .

ضرب ضربة وقال : « الله أكبر أعطيت مفاتيح الشام ، والله إنى لأنظر قصورها الحمر الساعة»، ثم ضرب الثانية فقطع آخر فقال: «اللّه أكبر أعطيت فارس، واللّه إنى لأبصر قصر المدائن الأبيض الآن ». ثم ضرب الثالثة فقال: « بسم اللّه »، فقطع بقية الحجر . فقال : « اللّه أكبر أعطيت مفاتيح اليمن ، واللّه إنى لأبصر أبواب صنعاء من مكانى ») [1] . لقد بشر عليه الصلاة والسلام بذلك ، والمسلمون يكادون يهلكون جوعاً فلم يذوقوا منذ ثلاثة أيام ذواقاً ، والعدو مصبحهم وممسيهم ، وتتناسب البشائر مع مراحل المعركة .

فالبشارة الأولى فى أول لقاء مع العدو ، منصبة على مصرع كبار قادته ، وانتصار فى معركة على وشك أن تقع .

والبشارة الثانية بعد خسارة ضخمة فى معركة مع هذا العدو، تؤكد أن النصر سيكون على هذا العدو فى نهاية المطاف،مهما امتدت المعارك فستعود الكعبة للمسلمين وينتهى الوجود الوثنى فى جزيرة العرب .

والبشارة الثالثة قريب هجوم يود استئصال شأفة المسلمين وإبادة خضرائهم ، بأن النصر سيتجاوز حدود معركة قائمة ، وسيتجاوز حدود أرض العرب ، وعدو محدد ، بل سيشمل الأرض كلها حيث يقبع العدو فى الشام وفارس واليمن ، فى الشمال والشرق والجنوب ، وستدين الأرض كلها للّه .

السمة الثامنة عشرة

عمليات الاغتيال وأثرها فى بث الرعب فى صفوف العدو

أ ــ مقتل عصماء بنت مروان :

عاد المسلمون من بدر ، ولا يزال بعض المتحدين للإسلام يجاهرون فى عدائه (وكانت عصماء بنت مروان تحت يزيد بن زيد الخطمى ، وكانت تؤذى رسول اللّه ﷺ وتعيب الإسلام ، وتحرض على النبى ﷺ وقالت شعراً ، فنذر عمير بن عدى الخطمى، لئن رَدَّ رسول اللّه ﷺ من بدر إلى المدينة ليقتلنها،فلما رجع رسول اللّه ﷺ من بدر جاءها عمير ليلاً حتى دخل عليها بيتها ، ووضع سيفه فى صدرها

(١) سنن النسائى ٢/٥٦ ، وأحمد فى مسنده ٤/٣٠٣.

حتى أنفذه من ظهرها ، وأتى فصلى الصبح مع النبى ﷺ ، فلما انصرف نظر إليه وقال: « أقتلت ابنة مروان؟ » قال: نعم يا رسول الله، فقال : « نصرت الله ورسوله يا عمير » ، فقال : هل على شيء من شأنها يا رسول الله ؟ فقال : « لا ينتطح فيها عنزان » . فكانت هذه الكلمة أول ما سمعت من رسول الله ﷺ ، وقال لأصحابه : « إذا أحببتم أن تنظروا إلى رجل نصر الله ورسوله بالغيب ، فانظروا إلى عمير بن عدى » ، فقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه : انظروا إلى هذا الأعمى الذى تشرى فى طاعة الله تعالى فقال: « لا تقل الأعمى ولكنه البصير »، فلما رجع عمير وجد بنيها فى جماعة يدفنونها فقالوا : يا عمير ، أنت قتلتها ؟ قال : نعم ، فكيدونى جميعاً ثم لا تنظرون ، فوالذى نفسى بيده لو قلتم بأجمعكم ما قالت لضربتكم بسيفى هذا حتى أموت أو أقتلكم . فيومئذ ظهر الإسلام فى بنى خطمة ، فمدح حسان عمير بن عدى ، وكان قتل عصماء لخمس بقين من رمضان مرجع النبى ﷺ من بدر على رأس تسعة عشر شهراً) (١) .

إنها امرأة استطاعت بكيدها للإسلام أن تحول بينه وبين بنى خطمة ، وخوف المؤمنين فيهم من سلاطة لسانها جعلهم يخفون إسلامهم ، فكان شعرها كلسع النار على ظهر المؤمنين ، وتحرك الإيمان فى قلب عمير ، الذى رأى من تبجحها وسفاهتها فى غيبة رسول الله ﷺ فى بدر ما جعله ينذر قتلها إن عاد عليه الصلاة والسلام . وأقدم على قتلها بحمية إيمانية عجيبة، ودون أن يستأذن قيادته، وصلى الصبح مع رسول الله ﷺ فى المدينة ، وفى قلبه بعض الخوف من أن يكون قد أساء بقتلها فطمأنه عليه الصلاة والسلام ، وأثنى عليه بقوله : « إذا أحببتم أن تنظروا إلى رجل نصر الله ورسوله بالغيب ، فانظروا إلى عمير بن عدى » . ولا عجب أن يدهش عمر فى إيمانه فيشير إليه عمر أمام الناس أنه الذى يشرى نفسه ابتغاء مرضاة الله ، والذى أذهل عمر أنه أعمى وتمكن من البحث عن هذه الحية الرقطاء فقتلها فى بيتها ، فصحح له عليه الصلاة والسلام قوله : « إنه البصير » . ولم يكن عمير فى قتله هذا بعد إجازة رسول الله ﷺ له يخشى أحداً فى هذه الأرض ، لم يجمجم ولم يتلعثم حين سأله بنوها عن القاتل ، فأكد لهم أنه قتلها، وسيقتلهم جميعاً لو قالوا مثل قولها ، وتحداهم : ﴿ **فكيدُوني جميعاً ثُمَّ لا تُنظرُون** ﴾ [هود : ٥٥] .

---

(١) إمتاع الأسماع للمقريزى ١/ ١٠١ ، ١٠٢ .

وكان لهذا الموقف الصلب من الأثر والقوة أكبر من مقتل ابنة مروان . فلابد أن يغدو الكفر صاغراً ذليلاً أمام المؤمنين ، وأنقذ رقاب إخوانه جميعاً من الأذى ، وصارت العزة لهم ، والذل والصغار لمن خالف أمرهم ، وظهر الإسلام فى بنى خطمة .

ب ـ مقتل أبى عفك اليهودى :

وفى الطريقة نفسها ، وللأهداف ذاتها تم مقتل أبى عفك اليهودى بعد شهر واحد من مقتل عصماء بنت مروان . (وكان شيخاً من بنى عمرو بن عوف وقد بلغ عشرين ومائة سنة ، وكان يحرض على عداوة النبى ﷺ ، ولم يدخل فى الإسلام ، وقال شعراً ، فنذر سالم بن عمير الأنصارى ـ أحد البكائين من بنى النجار ـ ليقتلنه أو يموت دونه ، وطلب له غرة ، حتى كانت ليلة صائفة ، ونام أبو عفك بالفناء فى بنى عمرو بن عوف فأقبل سالم فوضع السيف على كبده فقتله ، والذى يربط بين الحادثتين أنهما تمتا بدون إذن من القيادة ، وأقرتهما القيادة النبوية بعد ذلك وهذا يعنى أن من يستحق القتل فى حربه المسعورة ضد الإسلام ، وليس هو مجال شبهة فى هذا العداء ، وأقدم شاب على قتله ، فى الحرب المعلنة بين دولة الإسلام ودولة هذا الطاغية فهو نصر للإسلام بظهر الغيب ، فزعماء الطاغوت اليوم الذين أشعلوا الحرب على المسلمين قتلوا رجالهم ، ولم يستحيوا نساءهم ، بل تجاوزوا فرعون الذى طغى ، هؤلاء يتقرب إلى الله تعالى بدمائهم . وما فعله شباب الإسلام فى الحاكم الذى تحدى المسلمين فى الأرض فصالح عدوهم اليهود فى يوم عيدهم ، حين قتلوا هذا الطاغية إنما غسلوا عار المسلمين جميعاً فى أرض الكنانة ، بل فى كل مكان من الأرض الإسلامية ونصروا الله تعالى ورسوله بالغيب وشروا أنفسهم لله كما قال تعالى : ﴿ **ومن النَّاس من يشْري نَفْسَهُ ابْتغَاءَ مَرْضَات اللَّه واللَّهُ رَءُوفٌ بالْعبَاد** ﴾ [البقرة : ٢٠٧] .

جـ ـ مقتل كعب بن الأشرف :

مر عام كامل بعد بدر ، وأجلى بنو قينقاع عن المدينة . وكعب بن الأشرف لا يزال مشهراً لسانه فى أعراض المسلمين ومنشباً سهامه فى نحورهم ، وازداد جرأة وحقداً وتحدياً بعد جلاء بنى قينقاع عن المدينة . (فقال رسول الله ﷺ : « من

لى بابن الأشرف فقد آذانى ». فقال محمد بن مسلمة : أنا لك به يا رسول الله ، وأنا أقتله قال : « فافعل » وأمره بمشاورة سعد بن معاذ، فاجتمع محمد بن مسلمة ونفر من الأوس منهم عباد بن بشر، وأبو نائلة ملكان بن سلامة ، والحارث بن أوس ، وأبو عبس بن جبر . فقالوا : يا رسول الله ، نحن نقتله فأذن لنا فلنقل، قال : « قولوا » . فأتاه أبو نائلة وهو فى نادى قومه ـ وكان هو ومحمد بن مسلمة أخويه من الرضاعة ـ فتحدثا وتناشدا الأشعار حتى قام القوم فقال له : كان قدوم هذا الرجل علينا من البلاء ، حاربتنا العرب ورمتنا عن قوس واحدة ، وتقطعت السبل عنا حتى جهدت الأنفس ، وضاع العيال ؛ فقال كعب : قد كنت أحدثك بهذا أن الأمر سيصير إليه ، قال أبو نائلة : ومعى رجال من أصحابى على مثل رأيى ، وقد أردت أن آتيك بهم فنبتاع منك طعاماً وتمراً ، ونرهنك ما يكون لك فيه ثقة ، واكتم عنا ما حدثتك من ذكر محمد ؛ قال: لا أذكر منه حرفاً ، لكن اصدقنى ، ما الذى تريدون فى أمره ؟ قال: خذلانه والتخلى عنه، قال : سررتنى ، فماذا ترهنوننى ؟ قال : الحلقة [1] . فرضى . وقام أبو نائلة من عنده على ميعاد، فأتى أصحابه فأجمعوا أن يأتوه إذا أمسى لميعاده، وأخبروا النبى ﷺ، فمشى معهم ووجههم من البقيع وقال : « امضوا على بركة الله وعونه » ، وذلك بعد أن صلوا العشاء فى ليلة مقمرة مثل النهار . فأتوا ابن الأشرف فهتف به أبو نائلة وكان حديث عهد بعرس ، فوثب ونزل من حصنه إليهم . فجعلوا يتحادثون ساعة ، ثم مشوا قبل شرج العجوز [2] ليتحادثوا بقية ليلتهم ؛ فأدخل أبو نائلة يده فى رأس كعب وقال : ما أطيب عطرك هذا !! ثم مشى ساعة وعاد لمثلها وأخذ بقرون رأسه فضربه الجماعة بأسيافهم ، ووضع محمد بن مسلمة مغولا [3] معه فى سرة كعب حتى انتهى إلى عانته . فصاح صيحة أسمعت جميع أطام اليهود فأشعلوا نيرانهم ، واحتز الجماعة رأس كعب واحتملوه ، وأتوا رسول الله ﷺ ـ وقد قام يصلى ليلته بالبقيع ـ فلما بلغوه كبروا فكبر رسول الله ﷺ. ثم قال: « أفلحت الوجوه » فقالوا : ووجهك يا رسول الله ، ورموا برأس كعب بين يديه ، فحمد الله على قتله وتفل على جرح الحارث بن أوس، وكان قد جرح ببعض سيوف أصحابه فبرأ من وقته ، وأصبح رسول الله ﷺ من الليلة

(١) الحلقة : السلاح عامة والدروع خاصة . (٢) شرج العجوز : موضع بقرب المدينة .
(٣) مغول . سيف دقيق قصير ماض يكون فى جوف سوط ليشده القاتك على وسطه ليغتال به الناس .

التى قتل فيها ابن الأشرف فقال : « من ظفرتم به من رجال يهود فاقتلوه » ؛ فخافت اليهود فلم يطلع عظيم من عظمائهم ولم ينطقوا) [1] .

د ـ مقتل ابن سنينة :

(وكان ابن سنينة من يهود بنى حارثة حليفاً لحويصة بن مسعود ، فعدا أخوه محيصة بن مسعود على ابن سنينة فقتله،فجعل أخوه حويصة يضربه ويقول: أى عدو الله أقتلته !! أما واللّه لرُبَّ شحم فى بطنك من ماله ، فقال محيصة : واللّه لو آمرنى بقتلك الذى أمرنى لقتلتك. قال: أواللّه لو أمرك محمد بقتلى لقتلتنى ؟ قال : نعم ، واللّه لو أمرنى بضرب عنقك لضربتها ، قال : واللّه إن دينا بلغ بك هذا لعجب ، فأسلم حويصة . فجاءت يهود إلى النبى ﷺ يشكون ذلك، فقال: « إنه لو قرَّ كما قرَّ غيره ممن هو على مثل رأيه ما اغتيل ، ولكنه نال منا الأذى وهجانا بالشعر ، ولم يفعل هذا أحد منكم إلا كان السيف » . ودعاهم إلى أن يكتب بينه وبينهم كتاباً ينتهون إلى ما فيه فكتبوا بينهم وبينه كتاباً ، وحذرت يهود وخافت وذلت من يوم قتل ابن الأشرف) [2] .

هاتان الحادثتان الجديدتان قد وقعتا فى وقت متقارب قبيل غزوة أحد، هما اغتيال كعب بن الأشرف وابن سنينة كما نرى، ويجمع بينهما تقارب الوقت أولا، وأنهما كانتا بإذن من القيادة ثانياً ـ وإن اختلفت طبيعة الإذن والتكليف ـ وبسبب واحد هو الموقف العدائى من الإسلام والمسلمين وشخص رسول اللّه ﷺ ، ولعل ضخامة جريمة كعب بن الأشرف كانت أكبر من جريمة ابن سنينة ، فلقد مضى كعب إلى مكة ، والتقى بزعماء قريش ، ورثا أصحاب القليب فى بدر منهم ، وأعلن حلفه الصريح معهم ، وراح يرد على شعراء المسلمين فى الهجاء ويعلن تعاطفه الصريح القلبى والعلنى معهم ، ومشكلة كعب بن الأشرف وابن سنينة أنهما من يهود يثرب ، فهما يعيشان بين ظهرانى المسلمين ورغم أن العهد بين رسول اللّه ﷺ وبينهم على التحالف والتناصر ، إلا أن هؤلاء الزعماء اتخذوا موقفاً عدائياً من المسلمين ، وتناسوا صحيفة العهد معهم ، وراح كعب بن الأشرف يشبب بنساء المسلمين، وهو متمنع فى حصنه، فكان أن انتدب رسول اللّه ﷺ المسلمين لقتله ، فتطوع محمد بن مسلمة ، واختار أربعة من الفدائيين

(١) إمتاع الأسماع للمقريزى ١/ ١٠٩ ـ ١١٠ . (٢) المصدر السابق ١/ ١١٠ .

يشاركونه فى عملية الاغتيال ، من بينهم أبو نائلة أخو كعب بن الأشرف من الرضاعة .

وهذا يعنى أن أقدر الناس على تنفيذ عمليات الاغتيال ، أبعدهم عن الشك فيه ، ومن يمتّ بقرابة أو صلة رحم أو صداقة من هذا المجرم ، وهذا السبب نفسه هو الذى مكن محيصة بن مسعود ﷺ من قتل ابن سنينة ؛ لأن ابن سنينة حليف أخيه حويصة فهو يتردد دائماً عليه . وإنها لمسؤولية ضخمة لأولئك الإخوة المنبثين فى صفوف العدو حيث يأمن العدو جانبهم للقرابة أو موقع الوظيفة ، وهم أقدر من غيرهم آلاف المرات على الثأر من أولئك الطغاة .

كما نلاحظ صورة جديدة فى هذه العملية لم نشهدها من قبل ، وهى صورة الخديعة التى تقتضى الكذب واختلاق الحوادث لتحقيق الهدف ؛ لأن العملية من العسير جداً أن تتم بغير هذه الصورة ، ولن يسلم كعب نفسه بسهولة وهو يعرف خطورة عدائه للعصبة المسلمة وسيكون دائماً فى حذر شديد من الغيلة . فكان لابد من التحايل عليه ، واقتضى هذا التحايل النيل من شخص رسول الله ﷺ ومن الإسلام ليركن الطاغية إليهم ، وهو درس جديد نفقهه كذلك. إن اتخاذ مظاهر الكفر ، وإعلان الكفر ، والنيل من الإسلام والمسلمين لتحقيق مثل هذه المهمة أمر لا حرج فيه ، حيث قد تم بإذن رسول الله ﷺ وإذا كان اغتيال عصماء بنت مروان قد تم بالوضوح الإسلامي الكامل والتحدى الإيمانى السافر لها ولبنيها ولقومها : ﴿ **فكيدوني جميعا ثم لا تنظرون** ﴾ [هود : ٥٥] ، فليس بالإمكان أن يتم هذا الأمر وللعدو حصونه وقوته وشراسته ، ولكن هذا الأمر لا يتم بدون إذن فى الأصل حين يرتبط المسلم بقيادته .

إننا نلاحظ كثيراً من ضعاف النفوس ينافقون للطغاة والكفرة ويعايشونهم خوفاً من بطشهم ، وهذا أمر نهى الإسلام عنه ، واعتبره ركوناً للكفار : ﴿ **ولا تركنوا إلى الذين ظلموا فتمسكم النار وما لكم من دون الله من أولياء ثم لا تنصرون** ﴾ [هود: ١١٣] . الفرق واضح تماماً بين هذا النوع من الركون والمسارعة فى الكفار ، وبين من يفعل هذا الأمر بمهمة من قيادته المسلمة أو إذن منها على الأقل، أو تصميم على تنفيذ مهمة اغتيال أو تجسس لصالح المسلمين حين يعجز عن الصلة بالقيادة والتنسيق معها ، ولقد استطاع أبو نائلة ﷺ أن يجعل الثقة بينه وبين كعب فى

الأوج حين نال من محمد ﷺ وشهّر به ، وهؤلاء أحب الناس إلى قلوب الطغاة، وهم الذين يرتدون عن دينهم سخطة له وتشهيراً به .

وكانت الخطة من الدقة والإحكام بحيث لا يوجد فيها ثغرة واحدة، فهدف هذه المجموعة الفدائية أن تكون بكامل سلاحها ، ولو جاءت هكذا لشراء البر والتمر لكانت موطن شك وألقى القبض عليها ، غير أن إحكام الخطة بأن هذه المجموعة جاءت بسلاحها تسلمه لكعب ابن الأشرف رهينة للبر والتمر ، فهو أمر مقبول ومستساغ ، بل سال لعاب كعب له أن يحصل على سلاح خمسة من المسلمين يضمه إلى مخازن سلاحه التى عنده ويلهيهم بالتمر والبر . إن أقوى ما يكون فى الخطة هى أن تبدو ساذجاً مغفلاً مع خصمك ، وتظهر له انخداعك به حتى تتابع خطتك .

ولا نزال نذكر موقف تلك الأخت المسلمة التى قبضت عليها المخابرات وهى تحمل وثائق للقيادة، ومن خلال وثيقة السفر التى تحملها تم التأكد من علاقتها مع الحركة، واستعملت معها أساليب التهديد العجيبة، ونقلت إلى مركز مخابرات العاصمة وراح يحقق معها شخصيتان كبيرتان من قادة المخابرات وضباطهم الكبار، واستمر التحقيق معها ساعات طويلة، أقنعتهم فيه أنها ستتعامل معهم لصالحهم ضد الجماعة المسلمة، فاحتفوا بها أيما احتفاء ونقلوها إلى أرقى فنادق العاصمة، وأعطوها دفعة دسمة من المال، وأركبوها فى السيارة معززة مكرمة إلى القيادة . فإحكام الخطة الذى يزيل الشبهة عنصر أساسى من نجاح المهمة . ومن أجل هذا راح كعب مع المجموعة الفدائية يتمشى دون حرج وهم مدججون بسلاحهم .

كما أن أداة الفتك لابد أن تكون متطورة متناسبة مع طبيعة المهمة ، فالمغول الذى استعمله محمد بن مسلمة كان ضرورياً للتأكد من مقتل الطاغية، والابتعاد بكعب عن حصنه أمر ضرورى جداً حتى لا يقبض عليهم عند الحصن ، والمحاولة الأولى من أبى نائلة ليشم عطر كعب الطيب ضرورية كذلك حيث يحكم القبض عليه فى المرة الثانية دون أن يفلت منه ، ودون أن تتحرك الريبة فى قلبه لو وجدهم محيطين به أثناء الاندفاع فى الحديث .

لقد أثبت الإخوة المجاهدون فى بعض فصائل الحركة الإسلامية المعاصرة كفاءة عالية جداً فى اغتيال شخصيات العدو وطغاته وذلك على هدى هذه

المجموعة الفدائية ، لدرجة أن هذه العمليات استمرت قرابة ثلاث سنوات وعجزت الدولة بمخابراتها وسلطاتها أن تتعرف على هوية المنفذين ، وكانت تحسبهم من حركة قومية غير الحركة الإسلامية .

وأخيراً نلحظ الأثر العظيم لهذا الاغتيال ، فلقد قضى على التحرك المعادى للمسلمين فى عقر دارهم ، وخفتت الأصوات الإعلامية المعادية ، وكتب اليهود كتاباً وميثاقاً بذلك يعلنون تراجعهم عن هذا العداء السافر ، ودخل الرعب فى قلب العدو لدرجة أنه لم يجرؤ أحد من قادتهم على الخروج وحده .

وكانت الصورة التى أعلنها محيصة بن مسعود لأخيه أنه على استعداد أن يضرب عنقه لو أمره رسول الله بذلك إيذاناً بتعرف العدو على الاستبسال المنقطع النظير لدى هؤلاء المجاهدين ، وأن دينهم أقوى من كل شىء فى حياتهم، وهم على استعداد للإطاحة بآبائهم وإخوانهم وأولادهم فى سبيل هذا الدين.

لقد حقق الاغتيال هدفه ، حين أحكمت خطته ، ونفذت تمام التنفيذ ، ومهمتنا نحن اليوم أن نتقن هذا الفن ، ونحكمه ، ولا مانع من الاعتراف بالحقيقة. إن هذا الموضوع حين ابتذل من بعض فصائل الحركة ، وغدا ينصب على الناس العاديين ، من المخبرين ، وقد يقع أحياناً على متهمين لا مجرمين ، فقد قيمته ، وَوَلَّد جوّا من التململ والضيق من الناس المحايدين وكان سبباً من أسباب فوات النصر. فلابد أن تكون عمليات الاغتيال هادفة محققة لعنصر بث الرعب فى صفوف المجرمين وكفهم عن التمادى فى حرب المسلمين .

هـ ـ مقتل سفيان بن خالد الهذلى بعد أحد :

(كان قد بلغ رسول الله ﷺ أن سفيان بن خالد نزل عرنة [1] وما حولها فى ناس فجمَّع لحربه [2] ، وضوى إليه بشر كثير من أفناء العرب ، فبعث عبد الله بن أنيس وحده ليقتله وقال له : « انتسب إلى خزاعة » ، فقال عبيد الله بن أنيس : يا رسول الله ، انعته لى حتى أعرفه قال : « إذا رأيته هبته وفرقت منه وذكرت الشيطان ، وآية ما بينك وبينه أن تجد له قشعريرة إذا رأيته » ، وأذن له أن يقول ما بدا له ، وكان ابن أنيس لا يهاب الرجال فأخذ سيفه وخرج حتى إذا كان ببطن

---

(١) واد بين عرفات ومكة .

(٢) أى جمع سفيان لحرب رسول الله ﷺ .

عـرنة لقى سـفيان يمشى وراءه الأحـابيش فهابـه ، وعرفه بالنعت الـذى نعت له رسول الله ﷺ ، وقد دخل وقت العصر فصلى وهو يمشى يومئ إيماء برأسه ، فلما دنا منه قال : من الرجل ؟ قال : رجل من خزاعة سمعت بجمعك لمحمد فجئتك لأكون معك ، ومشى معه يحادثه وينشده ، وقال : عجباً لما أحدث محمد من هذا الدين المحدث فارق الآباء وسفه أحلامهم ! فقال سفيان : لم يلق محمد أحداً يشبهنى ! حتى انتهى إلى خبائه وتفرق عنه أصحابه فقال : هلم يا أخا خزاعة . فدنا منه وجلس عنده حتى نام الناس ، فقتله وأخذ رأسه واختفى فى غار والخيل تطلبه من كل وجه . ثم سار الليل وتوارى فى النهار إلى أن قدم المدينة ورسول الله ﷺ فى المسـجد فقال : « أفلح الوجـه » قال : أفلح وجـهك يا رسول الله ! ووضع الرأس بين يديه ، وأخبره الخبر ، فدفع إليه عصا وقال : «تخصر بهذه فى الجنة ، فإن المتخصرين فى الجنة قليل » . وكانت عنده حتى أدرجت فى أكفانه بعد موته [1] .

أما عملية الاغتيال هذه التى قام بها عبد الله بن أنيس وحده ، فقد أنهت معركة ، وقضت على عدو ، وكان لابد من هذا ؛ فلم تجف الدماء بعد من أحد، والتحرك بجيش جديد للمدينة ، يعنى خطراً كبيراً ، ولا تزال الجراحات تنزف من الجيش المؤمن، واستطاع عبد الله وحده بعون الله أن ينفذ مهمته كاملة، واختباؤه فى غار حتى يهدأ الطلب ، ومسيره فى الليل وكمونه فى النهار ، يدل على عبقرية تخطيطه اقتداء بهدى قائده محمد ﷺ يوم الهجرة . وبطن عرنة هو قرب مكة بين عرفات ومزدلفة . وهذا يعنى أن المهمة قرب مكة ، فهى ذات أثر معنوى ضخم أن تصل قوة محمد إلى حدود مكة ، وهو يقض مضاجع قريش بذلك.

إن حسن اختيار الأشخاص للمهمات شىء مهم جدا . فابن أنيس وحده أمة يمضى إلى بطن عرنة ويقتل قائد جيش العدو فى خبائه، ويختفى فى أرضه، بعد أن يحتز رأسه ويعود به إلى المدينة ، إنها لبطولة خارقة ، ولا شك تذكرنا ببعض العمليات الفدائية التى قام بها الشباب المجاهدون بالشام وفى فلسطين على أيدى شباب حماس المجاهدة ، إذ كان أخ واحد فى سيارته الملغومة يمضى فيفجر أكبر تجمعات العدو دون أن يعثر له على أثر ويقضى على أكبر شخصياته.

---

(١) إمتاع الأسماع للمقريزى ١/ ٢٥٤ ، ٢٥٥ .

و ـ مقتل أبى رافع بعد الخندق :

(كان مما صنع اللّه به لرسوله ﷺ أن هذين الحيين من الأنصار الأوس والخزرج كانا يتصاولان مع رسول اللّه ﷺ تصاول الفحلين ، لا تضع الأوس شيئاً فيه عن رسول اللّه ﷺ غناءً إلا قالت الخزرج : والله لا تذهبون بهذه فضلاً علينا عند رسول الله ﷺ وفى الإسلام، قال : فلا ينتهون حتى يوقعوا مثلها، وإذا فعلت الخزرج شيئاً قالت الأوس مثل ذلك. ولما أصابت الأوس كعب بن الأشرف فى عداوته لرسول اللّه ﷺ ، قالت الخزرج : واللّه لا تذهبون بها فضلاً علينا أبداً ، قال : فتذاكروا من رجل لرسول اللّه ﷺ فى العداوة كابن الأشرف ؟ فذكروا سلام بن أبى الحقيق ، وهو بخيبر، فاستأذنوا رسول اللّه ﷺ فى قتله فأذن لهم . فخرج إليه من الخزرج من بنى سلمة خمسة نفر عبد اللّه بن عتيك ، ومسعود بن سنان وعبد اللّه بن أنيس ، وأبو قتادة الحارث بن ربعى، وخزاعى بن أسود حليف لهم من أسلم ، فخرجوا وأمر عليهم رسول اللّه ﷺ عبد اللّه بن عتيك ونهاهم أن يقتلوا وليداً أو امرأة) [1] . قال عبد اللّه بن عتيك لأصحابه : (اجلسوا مكانكم فإنى منطلق ومتلطف للبواب لعلى أن أدخل ، فأقبل حتى دنا من الباب ثم تقنع بثوبه كأنه يقضى حاجته ، وقد دخل الناس فهتف به البواب : يا عبد اللّه ، إن كنت تريد أن تدخل فادخل ، فإنى أريد أن أغلق الباب.

قال عبد اللّه بن عتيك : فدخلت فكمنت، فلما دخل الناس أغلق الباب ، ثم علق الأغاليق على ود [2] قال : فقمت إلى الأقاليد فأخذتها ، ففتحت الباب، وكان أبو رافع يُسمر عنده ، وكان فى علالىّ له ، فلما ذهب عنه أهل سمره صعدت إليه ، فجعلت كلما فتحت باباً أغلقت على من داخل ، قلت : إن القوم لو نذروا بى لم يخلصوا إلىّ حتى أقتله ، فانتهيت إليه ، فإذا هو فى بيت مظلم وسط عياله لا أدرى أين هو من البيت ، قلت : أبا رافع ، قال : من هذا ؟ فأهويت نحو الصوت فأضربه ضربة بالسيف وأنا دهش، فما أغنيت شيئاً ، وصاح فخرجت من البيت ثم دخلت إليه ، فقلت : وما هذا الصوت يا أبا رافع ؟ فقال: لأمك الويل ، إن رجلاً فى البيت ضربنى قبل بالسيف ، قال: فأضربه ضربة أثخنته ولم أقتله ، ثم وضعت ضبيب السيف فى بطنه حتى أخذ فى ظهره ،

---

(١) السيرة النبوية لابن هشام ٢ / ٢٧٤ .

(٢) الأغاليق على ود: المفاتيح على وتد .

فعرفت أنى قتلته فجعلت أفتح الأبواب باباً بابا حتى انتهيت إلى درجة له ، فوضعت رجلى وأنا أرى قد انتهيت إلى الأرض، فوقعت فى ليلة مقمرة فانكسرت ساقى، فعصبتها بعمامة، ثم انطلقت حتى جلست على الباب ، فقلت : لا أخرج الليلة حتى أعلم أقتلته ؟ فلما صاح الديك صاح الناعى على السور فقال : أنعى أبا رافع تاجر أهل الحجاز ، فانطلقت إلى أصحابى فقلت النجاء فقد قتل الله أبا رافع. فانتهيت إلى النبى ﷺ فحدثته. فقال : ابسط رجلك ، فبسطت رجلى ، فمسحها فكأنما لم أشتكها) (١).

نموذج فذ فريد مثل عبد الله بن أنيس الذى كان أحد الخمسة الفدائيين، هو اليوم ابن عتيك ، ولئن كان ابن أنيس قد قتل سفيان فى خبائه، فابن عتيك قد اقتحم على سلام بن أبى الحقيق حصنه ، واغتاله فى فراشه ، وهو أعلى مستوى يمكن أن تصل إليه عبقرية الاغتيال ، فى فراشه وبين أهله ، وتصبح مفاتيح الحصن والبيت بيده وهو فى خيبر ، فى قلب حصون العدو، حيث أمضى المسلمون فيما بعد قرابة شهر وهم يفتحون هذه الحصون.

وتذكر بعض الروايات أن أم عبد الله بن عتيك كانت فى خيبر وهى التى هيأت له ولسريته الدخول إلى حصونها، ولا يبعد ذلك غير أن رواية البخارى لم تذكر ذلك. والجرأة العجيبة التى لدى ابن عتيك تحير اللب وتذهل العقل، لقد غامر أولاً بإغلاق الأبواب. وحسب أسوأ الاحتمالات أن يصل العدو إليه، لكنه لن يمكن أهل خيبر من الوصول إليه قبل أن يصل إلى عدو الله أبى رافع فيجهز عليه، ثم غامر ثانياً فاختبأ، وأصبح الخطر جاثماً حوله لأنه لم يحقق هدفه بعد ، وتقدم نفسه يسأل أبا رافع عن الصوت ليتأكد من مكانه فيه، ثم غامر ثالثاً، بأن كمن حتى تأكد من مقتل أبى رافع، علماً بأن ساقه قد كسرت، فنسى ساقه من أجل تحقيق مهمته ، ثم مضى إلى رفاقه ، فغادروا خيبر متجهين إلى المدينة ، ولم يتخل عن مهمته حتى أنفذ السيف فى بطنه إلى أن خرج من ظهره .

إنها أمثولة خالدة نضعها بين يدى المجاهدين نموذجاً حيّا لتنفيذ المهمات الموكلة إليه . وتطالعنا كذلك صورة التنافس الكبير بين الحيين العظيمين فى القضاء على أعداء الله، وهو تنافس محبب يحسن أن يتحرك بين المجاهدين حرصاً على مرضاة

(١) صحيح البخارى ٢ / ٥٧٧ .

الله ، ويتسابقون فى القضاء على خصوم الإسلام وهم يحاربون هذه الدعوة ، وسيان كانت هذه المنافسة من خلال المجموعات أو البلدان أو الأحياء، فهى تنتهى فى حرب الطغاة وإبادة رؤوس الكفر. وتطالعنا كذلك الآثار الضخمة لهذه العملية التى أشعلت الرعب فى صفوف اليهود فى خيبر، وعرفوا أن يد المسلمين تطالهم فى مضاجعهم ، وتجتثهم من بين أحضان نسائهم وتجتالهم من منيع حصونهم .

إن حرب الرعب حرب إسلامية يحدثنا رسول الله ﷺ عنها بقوله: « نصرت بالرعب مسيرة شهر » (١) ، ويوم نخسر هذه الحرب نخسرها عقوبة كذلك ، كما حدثنا رسول الله ﷺ : « ولينزعن من قلوب أعدائكم المهابة منكم » (٢) . فحين نخلص فى الغاية ، ونحسن التخطيط فى الوسيلة ، تنفتح أمامنا مغاليق العدو ، ويصبح منالاً سهلاً وهدفاً حيوياً بمتناول اليد ، وحين تختل الغاية ، وتختل الوسيلة ، فيصبح هذا السلاح بيد العدو .

لقد رأينا عبد الله بن عتيك رضي الله عنه يقوم بكل هذه العمليات الضخمة جهداً جسديا ، وجهداً عبقريا مفكراً ، وينال أكبر رأس من رؤوس الطغاة ، ومع ذلك يأتى ليقول لإخوانه: النجاء فقد قتل الله أبا رافع ، ولم يقل لهم : النجاء ، فقد قتلت أبا رافع . إن عظمة العبودية لله عز وجل عنده ألا ينسب القتل إليه مع أنه هو الذى خطط ونفذ وتأكد من نجاح مهمته ، وأصيبت رجله. نحن بحاجة لمثل هذه النفسيات التى تخلص الغاية لله ، وتحسن الوسيلة وتحكمها وتهيئ لها وسائلها ليتاح لنا النصر على أعدائنا ، ولا حرج عندئذ فى التنافس فى الجهاد فى سبيل الله، فلم يبحث الخزرج عن رجل عادى يقتلونه نفاسة للأوس، بل بحثوا عن رأس من رؤوس الطغاة على مستوى كعب بن الأشرف ، ونود ألا يدفعنا التنافس إلى هم الفتك فقط، بل لابد من البحث عن طاغية جبار عنيد يكافئ الجهد المبذول لذلك ، فالتوفيق الإلهى يوم يتم فى مثل هذه الأمور المعقدة لا يتم جزافاً، إنما يتم ضمن سنن جارية سنها الله تعالى لتوفيقه، ويوم نجد ضخامة فى الجهود المبذولة وفشلاً كبيراً فى التنفيذ، فإن هذا يعنى أن خللاً ضخماً كذلك قد وقع فى نياتنا، وفى إخلاصنا وفى قلوبنا، ففاتنا الهدف ، ﴿ وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجًا .

---

(١) متفق عليه ، وهوعند مسلم ١ / ٣٧١ح (٥٢١/ ٣) .

(٢) أبو داود ٤/ ١١١ (٤٧٩٧) .

ويرزقه من حيث لا يحتسب ومن يتوكل على الله فهو حسبه إن الله بالغ أمره قد جعل الله لكل شيء قدرا ﴾ [الطلاق : ٢،٣]. ﴿ ومن يتق الله يجعل له من أمره يسرا ﴾ [الطلاق: ٤].

السمة التاسعة عشرة
الحرب الإعلامية ودورها فى المعركة

كانت بوادر الحرب الإعلامية قد ابتدأت منذ الهجرة، غير أن ملامحها بدأت تتضح رويداً رويداً فى بعض السرايا قبيل بدر ، لكنها انفجرت انفجاراً ضخماً بعد بدر ؛ لأن الجانب الإعلامى للقبائل المجاورة كان هدفاً مهما من أهداف الفريقين، ويظهر أن الأشعار سرعان ما تطير بها الركبان بين يثرب ومكة ، فيأتى الرد من الطرف الآخر . لكن عند النصر تكثر أشعار الفريق المنتصر بينما تكثر المراثى عند الفريق الثانى .

لقد دخل رسول الله ﷺ المعركة بأسلحة غير متكافئة فى العدد والعدة ، أما فى مجال الشعر فلم يكن الأمر كذلك ، فإضافة إلى المقلين من الصحابة الذين يكتفون بقطعة أو قطعتين كان هناك الشعراء المتخصصون ؛ حسان بن ثابت على رأسهم رضي الله عنه ، وكعب بن مالك وعبد الله بن رواحة ، وكان أشدهم على الكفار حسان .

فى بـدر

كانت المعانى التى انصب عليها شعر بدر كله تتناول من قبل المسلمين قتلى القليب، السراة من قريش ، وقلما يوجد شاعر لم يتناول هذا الجانب ، ثم يربط الشعراء هذه الهزيمة النكراء بالبغى والطغيان من قريش ، وأن جزاء هذا البغى النار فى الآخرة والخزى والذل فى الدنيا، وتعيِّر الذين لاذوا بالفرار، والذين وقعوا فى ذل الأسر، وتشمت بالنائحين والنائحات على قتلاهم ، ثم تحمل دعوة لقريش أن ترعوى عن غيها وتفيء إلى الله ورسوله، كما يتوضح الفخر الكبير بالنصر المؤزر الذى ناله المسلمون تحت راية محمد ﷺ ومدد جبريل والملائكة معه، هذا فى الجانب الإسلامى ، ومن نماذجه قول كعب رضي الله عنه :

فلما لقيناهم وكل مجاهد ... لأصحابه مستبسل النفس صابر
وقد عريت بيض خفاف كأنها ... مقاييس يزهيها لعينيك شاهر
بهنَّ أبدنا جمعهم فتبدَّدوا ... وكان يلاقى الحين من هو فاجر
فكب أبو جهل صريعاً لوجهه ... وعتبة قد غادرتُه وهو عاثر
وشيبة والتيمى غادرن فى الوغى ... وما منهم إلا بذى العرش كافر
فأمسوا وقود النار فى مستقرها ... وكل كفور فى جهنم صائر

وقول حسان رضي الله عنه :

طحنَتْهُم واللّه ينفذ أمره ... حرب يشب سعيرها بضرام
لولا الإله وجريها لتركنه ... جزر السباع ودسنه بحوام
من بين مأسور يشد وثاقه ... صقر إذا لاقى الأسنة حامى
ومجدَّل لا يستجيب لدعوة ... حتى تزول شوامخ الأعلام

ولم ينس أن يعيِّر الحارث بن هشام لفراره :

إن كنتِ كاذبة الذى حدثتنى ... فنجوتِ منجى الحارث بن هشام
ترك الأحبة أن يقاتل دونهم ... ونجا برأس طِمِرَّة ولجام[1]

بينما نجد الجانب الجاهلى ينصب على الرثاء، فهذا الحارث يرثى أخاه أبا جهل :

ألا يا لهف نفسى بعد عمرو ... وهل يغنى التلهف من قتيل

وهند بنت عتبة التى كانت تفاخر بمصيبتها العرب :

أعينى جودا بدمع سرب ... على خير خِندف لم ينقلب
تداعى له رهطه غدوة ... بنو هاشم وبنو المطلب
يذيقونه حد أسيافهم ... يعلونه بعد ما قد عطب

كما يهاجمون المسلمين بتخليهم عن عشيرتهم ، وتعاونهم مع الغرباء ضد قومهم :

(١) السيرة النبوية لابن هشام ٣/ ١٥ .

أصيبوا كراماً لم يبيعوا عشيرة بقـوم سـواهم نازحى الـدار والأصل
كما أصبحت غسان فيكم بطانة لـكم بـدلاً منّا فيـا لـك مـن فعـل
عـقـوقـاً وإثـمـاً بيناً وقـطيـعـة يرى جـوْركم فيها ذوو الرأى والعقل

ولا ينسون التهديد بالثأر من المسلمين وبخاصة الخزرج والأوس:

فـإن تك قتـلى غـودرت مـن رجـالنا فإنا رجـال بـعدهـم سنغـادر
ووسـط بـنى النجـار سـوف نكرهـا لـهـا بالقنـا والدارعين زوافر
فنترك صرعى تعصب الطير حولهـم وليس لهم إلا الأمانى ناصـر

وما يتمالك الشاعر الجاهلى أمام عصبيته أن يعيد النصر إلى المهاجرين من قريش، فيثنى عليهم عصبية وحمية :

فـإن تظفروا فى يـوم بـدر فـإنمـا بـأحمـد أمسى جـدكـم وهـو ظاهر
وبالنفر الأخيـارِ هـم أوليـاؤه يحامـون فى اللأواء والموت حاضر
يعـد أبـو بـكر وحمـزة فيـهم ويدعـى على وسـط مـن أنت ذاكر
ويدعى أبو حفص وعثمان منهم وسعد إذا ما كان فى الحرب حاضر
أولئك لا من نتجت من ديارهـا بـنو الأوس والنجـار حـين تفـاخـر

وتظهر المتناقضات كذلك لدى طالب بن أبى طالب ابن عم رسول الله ﷺ ، فهو يعتز بمحمد ولا يخفى هواه معه، ثم يبكى أصحاب القليب من قريش من جهة ثانية :

ألا إن عينى أنفذت دمـعها سكـباً تُبكِّى عـلى كعب ومـا إن ترى كعباً
ألا إن كعباً فى الحـروب تخاذلوا وأرداهم ذا الـدهر واجترحـوا ذنباً
فما إن جنيناً فـى قـريش عظيـمة سوى أن حمينا خير من وطئ التربا

لكنه يناشد قومه أن يكفوا عن حرب أبناء قومهم:

فيا أخـوينـا عـبـد شـمـس ونوفـلا فـداً لـكـمـا لا تبـعـثـوا بينـكم حـرباً
ولا تـصـبحـوا من بـعد ود وإلـفـة أحـاديـث فيـها كـلـكم يشتكى النكبا

ألم تعلموا ما كان من حرب داحس وجيش أبى يسكوم إذ ملؤوا الشعبا

ثم يدعو بعدها للثأر من الخزرج :

فوالله لا تنفك نفسى حزينة تململ حتى تصدقوا الخزرج الضربا [1]

وراحت العرب التى عرفت أخبار بدر من الشعر ترقب الجولة القادمة بين المسلمين وقريش ، وغدت كلها تخاف سطوة محمد ﷺ ، ولا ننسى كذلك أن مقتل كعب بن الأشرف كان درساً قاسياً للذين يريدون نصرة قريش فى مواقفهم وأشعارهم .

فى أحد والمحنة

سنة واحدة فقط بين الغزوتين ، وقد دالت الدولة على المسلمين ، وثأر المشركون منهم، فبحّت أصواتهم فى الفخر بالنصر، والتغنى بالأمجاد :

سقنا كنانة من أطراف ذى يمن عرض البلاد على ما كان يزجيها

نحن الفوارس يوم الجر من أحد هابت معدٌّ فقلنا نحن نأتيها

ثمت رحنا كأنا عارض برد وقام هام بنى النجار يبكيها

كأن هامهم عند الوغى فلق من قيض ربد نفته عن أداحيها

لكن لدى المسلمين فخر كذلك فى أحد حيث قتلوا حملة اللواء واحداً بعد الآخر :

شددنا بحول الله والنصر شدة عليكم وأطراف الأسنة شرَّع

عمدنا إلى أهل اللواء ومن يطر بذكر اللواء فهو فى الحمد أسرع

فخانوا وقد أعطوا يداً وتخاذلوا أبى اللّه إلا أمره وهو أصنع

لكن قتلى المسلمين كثر ، خاصة من الكرام الصيد من الخزرج والأوس . فيفخر ابن الزبعرى قائلاً :

---

(١) مقتطفات من السيرة لابن هشام ٣/ ٩ ـ ٤٥ .

كم قتلنا من كريم سيد ... ماجد الجدين مقدام بطل
ليت أشياخى ببدر شهدوا ... جزع الخزرج من وقع الأسل
حين حكّت بقباء بركها ... واستمر القتل فى عبد الأشل
فقتلنا الضِّعف من أشرافهم ... وعدلنا ميل بدر فاعتدل

فيرد حسان رضي الله عنه أن أحداً كانت جولتين لا جولة واحدة :

ولقد نلتم ونلنا منكم ... وكذاك الحرب أحياناً دول
نضع الأسياف فى أكتافكم ... حيث نهوى علاً بعد نهل
إذ تولون على أعقابكم ... هرَّباً فى الشعب أشباه الرِّسَل
إذ شددنا شدة صادقة ... فأجأناكم إلى سفح الجبل

ولا ينسى كعب بن مالك رضي الله عنه وهو يرثى حمزة بن عبد المطلب والشهداء معه أن يتحدث عن نعيم الجنة التى أعدها الله للشهداء :

وأشيع أحمد إذ شايعوا ... على الحق ذى النور والمنهج
فما برحوا يضربون الكماة ... ويمضون فى القسطل المرهج
كذلك حتى دعاهم مليك ... إلى جنة دوحة المولج
فكلهم مات حر البلاء ... على ملة الله لم يحرج
أولئك لا من ثوى ، منكم ... من النار فى الدرك المرتج

وهذه ميزة هذه العقيدة ، فالشاعر الجاهلى ، تأكل المرارة قلبه وهو يبكى صرعاه ، أما الشاعر المسلم فيرى فى الشهادة دعوة زفت إلى الشهيد من المليك تعالى للنزل عنده ، وحين يصر الشاعر الجاهلى على النيل من الخزرج والأوس ، ثم يعرج على المهاجرين :

فغادرن قتلى الأوس عاصبة بهم ... ضباع وطير يعتفين وقوع
وجمع بنى النجار فى كل تلعة ... بأبدانهم من وقعهن نجيع
ولولا علو الشعب غادرن أحمداً ... ولكن علا والسمهرى شروع

كما غادرت فى الكر حمزة ثاوياً وفى صدره ماضى الشباة وقوع

لا يدعه الشاعر المسلم دون أن يذكره بصبر الأوس والخزرج تحت راية محمد ﷺ :

فقد صابرت فيهم بنو الأوس كلهم وكان لهم ذكر هناك رفيع

وحامى بنو النجار فيه وصابروا وما كان منهم فى اللقاء جَزُوع

وهؤلاء الذين تنالون منهم هم سادتكم فى القوم ، ومحمد وحمزة وعلى وغيرهم :

أولئك قوم سادة فى فروعكم وفى كل قوم سادة وفروع

بهن نعز اللّه حتى يعزنا وإن كان أمرٌ يا سخينَ فظيع

فلا تذكروا قتلى وحمزة فيهم قتيل ثوى للّه وهو مطيع

فإن جنان الخلد منزلة له وأمر الذى يقضى الأمور سريع

وقتلاكم فى النار أفضل رزقهم حميم معاً فى جوفها وضريع

وهذا هو محور المنافسة فى نهاية المعركة ، فأبو سفيان يصرخ ، أعل هُبَل ، فيأتيه الجواب : الله أعلى وأجل ، ويعيد أبو سفيان فخره : لنا العزى ولا عزى لكم ، فيرتد عليه فخره : اللّه مولانا ولا مولى لكم ، لا سواء ، قتلانا فى الجنة وقتلاكم فى النار ، غير أن هنداً لم ترو ظمأها فى أحد ، ولم تشتف ثأرها حتى حين بقرت بطن حمزة عن الكبد.

رجعت وفى نفسى بلابل جمة وقد فاتنى بعض الذى كان مطلبى

من أصحاب بدر من قريش وغيرهم بنى هاشم منهم ومن أهل يثرب

ولكننى قد نلت شيئاً ولم يكن كما كنت أرجو فى مسيرى ومركبى[1]

وتتالت المحن على المسلمين ، فأخذت سرية الرجيع منهم مأخذاً أليماً . لكن أبيات خبيب مضت مثلاً سائراً على الثبات على المبدأ :

---

(١) مقتطفات من السيرة لابن هشام ٢/ ١٢٩ ـ ١٦٧ .

لقد جمع الأحزاب حولى وألبوا ... قبائلهم واستجمعوا كل مجمع
وكلهمُ مبدى العداوة جاهد ... علىَّ لأنى فى وثاق بمضيع
وقد خيرونى الكفر، والموت دونه ... وقد هملت عيناى من غير مجزع
وما بى حذار الموت إنى لميت ... ولكن حذارى جحم نار ملفع
فواللّه ما أرجو إذا مت مسلماً ... على أى جنبٍ كان فى اللّه مصرع
فلست بمبد للعدو تخشعاً ... ولا جزعاً إنى إلى اللّه مرجع

وما كان لمثل خبيب ألا يرثى وقد اغتالته قريش وصلبته على الجذع :

ما بال عينك لا ترقا مدامعها ... سحا على الصدر مثل اللؤلؤ القلق
على خبيب فتى الفتيان قد علموا ... لا فاشل حين تلقاه ولا نزق
فاذهب خبيب جزاك اللّه طيبة ... وجنة الخلد عند الحور فى الرُفُق

وبين الهجاء للغادرين، والرثا للشهداء ، كان حسان يخوض حربه ، فمن أقذع ما قال حسان بالغادرين :

إن سرَّك الغدر صرفاً لا مزاج له ... فأتِ الرجيع فسل عن دار لحيان
قوم تواصوا بأكل الجار بينهم ... فالكلب والقرد والإنسان مثلان
لو ينطق التيس يوماً قام يخطبهم ... وكان ذا شرف فيهم وذا شان

أما الشهداء فقد نظمهم فى سلك واحد :

صلى الإله على الذين تتابعوا ... يوم الرجيع فأكرموا وأثيبوا
رأس السرية مرثد وأميرهم ... ابن البكير إمامهم وخبيب
وابن لطارق وابن دثنة منهم ... وافاه ثم حمامه المكتوب
والعاصم المقتول عند رجيعهم ... كسب المعالى إنه لكسوب
منع المقادة أن ينالوا ظهره ... حتى يجالد إنه لنجيب [1]

ومع اشتعال غزوة بنى النضير ، عادت حرب الشعر فاشتعلت من جديد ،

(١) السيرة لابن هشام ٢/ ١٧٦ ـ ١٨٠ .

وفى هذه المعركة لابد من دحض افتراءات اليهود أنهم على الحق ، وأنهم أهل الكتاب الأول :

لقد خزيت بغدرتها الحبور ... كذاك الدهر ذو صرف يدور
وقد أوتوا معاً فهماً وعلماً ... وجاءهم من اللّه النذير
فقالوا ما أتيت بأمر صدق ... وأنت بمنكر منا جدير
فلما أشربوا غدراً وكفراً ... وحاد بهم عن الحق النفور
فغودر منهم كعب صريعاً ... فذلت بعد مصرعه النضير
فتلك بنو النضير بدار سوءٍ ... أبارهم بما اجترموا المبير

لكن اليهود وقد غلبهم الحقد الدفين لم يجدوا ما يردون به على المسلمين غير التغنى بأمجاد قريش وأحد :

قتلتم سيد الأحبار كعباً ... وقدماً كان يأمن من يجير
فإن نسلم لكم نترك رجالاً ... بكعب حولهم طير تدور
كما لا قيتم من بأس صخر ... بأحد حيث ليس لكم نصير

وطالما أن ملة الكفر واحدة ، فَحَنَّ على بنى النضير عباس بن مرداس آخو بنى سليم :

فَبَكِّ بنى هارون واذكر فعالهم ... وقتلهم للجوع إذ كنت مجدباً
سراع إلى العليا ، كرام لدى الوغى ... يقال لباغى الخير أهلاً ومرحباً

وكان الرد عنيفاً عليه فى تخليه عن أرومته العربية :

فهلا إلى قوم ملوك مدحتهم ... تبنوا من العز المؤثل منصبا
أولئك أحرى من يهود بمدحة ... تراهم وفيهم عزة المجد ترتبا [1]

والعرب لا تزال ترمق الموعد الجديد بين محمد وقومه فى بدر الآخرة، فلم يدع المسلمون تخاذل أبى سفيان عن حضورها يمرّ دون هجاء وسُبة :

---

(١) السيرة لابن هشام ٢/ ١٩٩ ـ ٢٠١ (مقتطفات) .

وعدنا أبا سفيان بدراً فلم نجد ... لميعاده صدقاً وما كان وافيا
فأقسم لو وافيتنا فلقيتنا ... لأبتَ ذميماً وافتقدت الموالیا
تركنا به أوصال عتبة وابنه ... وعمرا أبا جهل تركناه ثاويا [1]

وحاول أبوسفيان أن يعتذر لكن السبة لحقته ، فقد فر من المواجهة .

الخندق وآثاره بين العرب

لقد كانت قبائل العرب واقفة على الحياد بين الفريقين ، تنتظر لمن الغلبة حتى تنضم إليه ، ولا شك أن الدوى الضخم الذى رافق تحرك الأحزاب كان له خطر كبير على الوجود الإسلامى ، لكن فشل الهجوم كذلك ، أيأس العرب من إمكان القضاء على هذا الدين الجديد ، وحاول كلا الفريقين فى الإذاعة الطائرة أن يفت من طاقة الآخر ؛ ضرار بن الخطاب الفهرى يفخر بالحصار والتجمع الضخم الذى غزوا به محمداً ، ويصمهم بالفرار من المواجهة :

فأحجرناهم شهراً كريتاً ... وكنا فوقهم كالقاهرينا
نراوحهم ونغدو كل يومٍ ... عليهم فى السلاح مدججينا
فلولا خندق كانوا لديه ... لدمرنا عليهم أجمعينا
ولكن حال دونهم وكانوا ... به من خوفنا متعوذينا

وكان مقتل سعد بن معاذ أكبر هدف تحقق عندهم فى الحصار، كما كان حمزة فى أحد:

فإن نرحل فإنا قد تركنا ... لدى أبياتكم سعداً رهيناً
إذا جن الظلام سمعت نوحى ... على سعد يرجعن الحنينا

ثم يهدد ويتوعد بالغزو ثانية فيقول :

وسوف نزوركم عما قريب ... كما زرناكم متوازرينا
بجمع من كنانة غير عزلٍ ... كأسد الغاب قد حمت العرينا

(١) السيرة النبوية لابن هشام ٢/ ٢١٠ ، ٢١١ .

فيحوِّل كعب بن مالك الخندق إلى عرين الأسد :

ببـاب الخنـدقين كأن أسـداً شـوابكهن يحمـين العـرينا

وهو رد نفس المقولة أن جمعهم أسد غاب تحمى العرين .

وأما مقتل سعد رضي الله عنه فالجنة مثواه ، ولن يضيره غيظهم وحقدهم :

فإما تقتلوا سعداً سفاهاً فإن اللّه خير القادرينا

سيدخله جـناناً طـيبـاتٍ تكون مقامة للصالحينا

لكن العار الذى جلل قريشاً وغطفان هو فشل هجومها ، وعودتها بالخزى والخيبة :

كما قد ردكم فـلا شـريـداً بغيظكم خزايا خـائـبيـنـا

خزايا لم تنالوا ثـم خـيـراً وكدتم أن تكونوا دامرينا

بريح عاصف هبت عليكم فكنتم تحتها متـكـمـهـيـنـا

لكن الكارثة الكبرى التى حلت بالمشركين تعادل مقتل سعد رضي الله عنه عند المسلمين هى مقتل عمرو بن عبد ودّ العامرى ، فارس قريش الأول :

فهو عند مسافع بن عبد مناف الجمحى :

عمرو بن عبد كان أول فارسٍ جزع المذاد وكان فارس يليل

سمح الخلائق ماجـد ذو مـرةٍ يبغى القتال بشكة لم ينكل

وقد علمتم حين ولوا عـنكـم أن ابن عبد فيهم لم يعجل

ومع ذلك فيضطر ذليلاً للاعتراف ببطولة على بن أبى طالب رضي الله عنه وهو الذى صرعه :

تَسَلُ النزالَ علىَّ فارس غـالبٍ بجنوب سلعٍ ليته لـم يـنـزل

فاذهب علىَّ فما ظفرت بمـثلـه فخراً ولا لاقيت مثل المعضل

نفسى الفداء لفارسٍ من غالبٍ لاقى حمام الموت لم يتحلحل

والعار الآخر الذى جللهم هو فرار الفوارس من حوله :

عمرو بن عبدٍ والجياد يقودها خيل تقاد له وخيل تنعل
أجلت فوارسه وغادر رهطه ركناً عظيماً كان فيه أول
وهبيرة المسلوب ولى هارباً عند القتال مخافة أن يقتلوا
وضرار كان البأس منه محضراً ولى كما ولى اللئيم الأعزل

مما اضطر هبيرة بن أبى وهب أن يدفع العار عن نفسه ، ويرثى عمراً صاحبه:

لعمرى ما وليت ظهرى محمداً وأصحابه جبناً ولا خيفة القتل
ولكننى قلبت أمرى فلم أجد لسيفى غناءً إن ضربت ولا نبلى
فلا تبعدن يا عمرو حياً وهالكاً وحق لحسن المدح مثلك من مثلى

ولا يجد مندوحة بالرغم عنه من الثناء على البطل المغوار على :

فعنك علىٌّ لا أرى مثل موقف وقفت على نجد المقدم كالفحل
فما ظفرت كفاك فخراً بمثله أمنت به ما عشت من زلة النعل

أما بنو قريظة والذل الذى حاق بهم فلابد أن تتحدث عنه الإذاعة الطائرة كذلك ، وتربطه بسعد بن معاذ رضي الله عنه الذى حكم عليه بحكم الله من فوق سبع سموات قبل أن يفضى إلى ربه :

لقد سجمت من دمع عينى عبرة وحق لعينى أن تفيض على سعد
قتيل ثوى فى معرك فجعت به عيونٌ ذوارى الدمع دائمة الوجد
على ملة الرحمن وارث جنة مع الشهداء وفدها أكرم الوفد
فأنت الذى يا سعد أبت بمشهد كريم وأثواب المكارم والحمد
بحكمك فى حيى قريظة بالذى قضى اللّه فيهم ما قضيت على عمد
فوافق حكم اللّه حكمك فيهم ولم تعف إذ ذكرت ما كان من عهد
فإن كان ريب الدهر أمضاك فى الألى شروا هذه الدنيا بجناتها الخلد
فنعم مصير الصادقين إذا دعوا إلى اللّه يوماً للوجاهة والقصد

بينما كان اليهود يجترون آلامهم بمقتل سراتهم وساداتهم ، فلقد قضى رجال

بنى قريظة جميعاً جزاء غدرهم وخيانتهم .

لقد وجدنا الحرب الإعلامية للمسلمين تواكب تماماً الحرب العسكرية ، وكانت هى التى تمثل لسان الناطق الرسمى بنتائج الحرب والمعارك عند العرب ، فمن ديوان الأشعار يتعرف العرب على الأحداث ، ولم يكن هذا الأمر كذلك بالنسبة للمسلمين ، إذ كان القرآن الكريم بالنسبة لهم هو مصدر التلقى والحكم على الأحداث ، ولم يكونوا يعيرون التفاتاً فيما بينهم للشعر بعد أن صار الوحى هو موطن التربية بالنسبة لهم .

لقد كان الشعر للرد على العدو الذى لا يؤمن بالقرآن الكريم ، واستطاع الشعراء المسلمون أن يخوضوا معارك الشعر كلها دون حرج أو تلجلج من أى ميدان ، تكلموا بقيم العرب ، وطرحوا مفاهيم الإسلام من خلال الشعر ، ولم يتركوا مثلبة عربية يطعن منها الأعداء إلا نالوهم بها .

وما أحوج الحركة الإسلامية اليوم إلى أن تعطى الجانب الإعلامى حقه ، وطبيعة الحرب العالمية اليوم حرب إعلامية ، فالمعسكران يبتعدان ما استطاعا عن الصدام والمواجهة العسكرية [1] ، لكن حربهم المستمرة اليومية تنطلق من وسائل الإعلام ، وإن ثقة الناس بإعلام الحركة يعنى ثقة الناس بها ، فهم يحكمون على الحركة الجهادية من خلال إذاعتها ومجلاتها ونشراتها ، وإذا كان الشعر وحده أيام الرسالة الأولى هو الوسيلة الإعلامية الأكبر إن لم تكن الأوحد ، فوضعنا اليوم يختلف كثيراً عن سالفه .

إن وسائل الإعلام اليوم تسد الأفق ، ولا يأخذ الشعر إلا حيزاً محدوداً جداً منها ، فهناك الموعظة والخطبة ، والمقالة والأقصوصة والقصة والرواية والتعليق السياسى ، والتحليل الأخبارى والمادة الأخبارية ، والأناشيد الحماسية ، كل هذه ذات أثر خطير فى الواقع الإعلامى .

إضافة إلى وسائل البث الإعلامى ، من إذاعة وتلفاز وجريدة ومجلة وكتاب وتسجيل سمعى وبصرى، كلها غدت تتحكم فى قلوب البشر وعقولهم وتفكيرهم، وتوجه قناعاتهم وتبنى عقائدهم .

---

(١) ولم يتغير الوضع عندما بقى فى الساحة العالمية معسكر واحد .

إن المعركة من الخطورة والدقة والأهمية ما يجعل الحكم على نجاح المعركة من خلال نجاح إعلامها والثقة به والتعامل معه ، وأملنا كبير أن توجه الحركة الإسلامية طاقاتها لتكوين الاختصاصيين المبدعين فى هذا الفن ، الذين يملكون مقود الفكر والعاطفة ، ليحققوا القاعدة الأساس التى يقوم عليها صرح البناء الجهادى ، فيكون كما قال عز وجل : ﴿ **ألم تر كيف ضرب الله مثلا كلمة طيبة كشجرة طيبة أصلها ثابت وفرعها في السماء . تؤتي أكلها كل حين بإذن ربها ويضرب الله الأمثال للناس لعلهم يتذكرون** ﴾ [إبراهيم : ٢٤، ٢٥] . إنها مواصفات واضحة للكلمة الطيبة . إنها من الأصالة والصدق ضاربة جذورها فى الأرض ، فلا يزعزعها كل بهرج الدنيا وزخرفها . وهى من جهة ثانية منتشرة فى كل صقع ، وطالت فروعها الباسقة حتى عمت الأرض وامتدت للسماء . وهى من جهة ثالثة مثمرة ترعاها عناية الله ، تحقق أهدافها التى قامت من أجلها كاملة ، ويكون ثمرها مذاقاً لكل قارئ أو راء أو سامع . وفقدان أى من هذه المواصفات الثلاثة يعنى أننا لم نصل بعد إلى الكلمة الطيبة التى نريد .

السمة العشرون

ازدياد العدد والعدة

لقد كانت أول سرية أرسلها رسول الله ﷺ على رأس سبعة أشهر من مقدمه المدينة هى سرية حمزة بن عبد المطلب إلى سيف البحر يعترضون عيراً لقريش قد جاءت من الشام تريد مكة ، فيها أبو جهل فى ثلاثمائة راكب ، وكان عدد أفراد هذه السرية ثلاثين راكباً ، كلهم من المهاجرين .

وحين ينظر المرء إلى خطوات الجهاد الأولى التى ابتدأت بثلاثين راكبا ، ويلاحظ أنها ارتفعت وخلال خمس سنوات إلى ثلاثة آلاف جندى فى غزوة الخندق ، يلاحظ مدى التقدم الضخم الذى أحرزه الجيش الإسلامى فى المدينة .

وملاحظة أخرى كذلك من حيث العدة .

فالخيل من أهم عناصر الحرب على الإطلاق ، « والخيل معقود فى نواصيها الخير إلى يوم القيامة » كما يقول عليه الصلاة والسلام . فإذا أعدنا إلى الذاكرة

غزوة بدر وأنه لم يكن لدى المسلمين فيها إلا فرسان ، ثم نذكر أن خيل المسلمين فى الخندق بلغت مائتى فرس، تبين مدى التقدم العسكرى الضخم فى هذا المجال، حتى الإبل فى بدر كان كل ثلاثة من المسلمين يعتقبون بعيراً ، أى كان عند المسلمين حوالى سبعين من الإبل ، يكفى أن نذكر أن غنائمهم من بدر وحدها كانت مائة وخمسين بعيراً .

أما السلاح فحدث ولا حرج ، كان سلاحهم فى بدر السيوف فى الخرق ، فلننظر إلى بعض الغنائم التى حصل عليها المسلمون من أعدائهم فى هذا المجال، كانت غنائم بنى قينقاع من السلاح: ثلاث قسى، وثلاثة سيوف وثلاثة رماح ودرعين ، ووجدوا فى منازلهم سلاحاً كثيراً وآلة الصياغة، ولم تكن غنائم بنى قينقاع لتذكر فى هذا المجال لأنهم مضوا بسلاحهم، وكان اليهود يمثلون ترسانة أسلحة عندهم ويقومون بصنعها ، وعندما حاول بنو النضير أن يخرجوا بأسلحتهم منعهم رسول الله ﷺ إلا بتسليم سلاحهم ، وكما يقول النص : (ثم نزلت يهود على أن لهم ما حملت الإبل إلا الحلْقة) [1] أى السلاح (وقبض رسول الله ﷺ الأموال والحلقة فوجد خمسين درعاً وخمسين بيضة وثلاثمائة وأربعين سيفاً)[2] .

أما غنائم بنى قريظة فكانت كالتالى :

(وجمعت أمتعتهم وما وجد فى حصونهم من الحلقة والأثاث والثياب فوجد فيها ألف وخمسمائة سيف ، وثلاثمائة درع ، وألفا رمح ، وألف وخمسمائة ترس وجحفة . . .) [3] . وبذلك غدا للمسلمين قوة ضخمة من السلاح والرجال ، وتحولت معظم قوة العدو من اليهود إلى المسلمين ، إضافة إلى ماكانوا يبتاعونه من الأسواق ، فكانت كل أنواع السلاح متوفرة عندهم .

صحيح أن المسلمين ما خاضوا معركة مع عدوهم إلا كانوا أقل من عدوهم عدداً وعدة، وكانوا بإيمانهم وثباتهم أقوى من خصومهم ، لكن هذا التطور فى العدد والعدة ، يعنى أن مقومات الدولة أصبحت أكبر ، وأن إمكانية القضاء عليهم أصبح ميؤوساً منها ، فقد كان أبو جهل يقول عنهم فى بدر : إنهم أكلة جزور - يقلل من عددهم وقيمتهم . غير أن الصورة اختلفت اليوم ، وازدادوا عشرة

(١، ٢) إمتاع الأسماع ١/ ١٨١ .

(٣) المصدر نفسه ١/ ٢٤٥ .

أضعاف ما كانوا عليه ، وواجب الحركة الإسلامية حين تقرر خوض معركة مع العدو ، أن تكون على مستوى الأحداث وتهيئ من السلاح والرجال ما يؤهلها لخوض هذه المعركة ، إضافة إلى الجانب الإيمانى الذى لا يملكه غير المؤمنين سلاحاً متميزاً فى المعارك .

السمة الحادية والعشرون
الجهد البشرى فى البذل

فليس المهم الأرقام الحسابية فى الحرب ، لابد من النوعية الجيدة ، وكما يقول القرآن الكريم : ﴿ **إن يَكُن مِنكُمْ عشْرُونَ صابِرُونَ يَغْلِبُوا مائتَيْنِ وإن يكُن مِنكُم مِائةٌ يَغْلِبُوا أَلْفا مِنَ الَّذين كفرُوا بأنَّهُمْ قَوْمٌ لاَّ يَفْقهُون . الآنَ خفَّفَ اللَّهُ عنكُمْ وعلِمَ أنَّ فيكُمْ ضعْفًا فإن يكُن مِنكُم مِائةٌ صابِرةٌ يَغْلِبُوا مائتَيْنِ وإن يكُن مِنكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوا أَلْفَيْنِ بإذْنِ اللَّهِ واللَّهُ مع الصَّابِرين** ﴾ [الأنفال : ٦٥ ، ٦٦] . فهذا يعنى أن المؤمن القوى بعشرة أضعاف من الكفار ، وأن المؤمن الضعيف بضعفين والأمر فى تفاوته بقدر المدى الإيمانى عند المسلم ، وهذا التفاوت هو الذى يجعلنا ننظر إلى المستويات العليا من التضحية والبذل ، حتى لا نتصور أن النصر جاء بدون هذه التضحيات ، ولن يكون لها فى هذه الفقرة أكثر من التنسيق والعرض لتكون هذه النماذج حية فى أذهاننا وقلوبنا .

أ ـ من بطولات بدر :

١ ـ (بعثت قريش عمير بن وهب الجمحى ليحزر المسلمين ، فلما لم ير لهم مدداً ولا كميناً رجع فقال : القوم ثلاثمائة إن زادوا زادوا قليلاً ، معهم سبعون بعيراً وفرسان ، ثم قال : يا معشر قريش ، البلايا تحمل المنايا ، نواضح يثرب تحمل الموت الناقع ، قوم ليست لهم منعة ولا ملجأ إلا سيوفهم ، ألا ترونهم خرساً لا يتكلمون ، يتلمظون تلمظ الأفاعى، واللّه ما أرى أن يقتل منهم رجل حتى يقتل منكم رجلاً ، فإذا أصابوا منكم مثل عددهم فما خير فى العيش بعد ذلك ، فروا رأيكم) [١] .

٢ ـ يقول عليه الصلاة والسلام للمسلمين فى بدر : « قوموا إلى جنة عرضها

(١) إمتاع الاسماع ١/ ٨٢ ، ٨٣ .

السموات والأرض، والذى نفس محمد بيده ، لا يقاتلهم اليوم رجل فيقتل صابرا محتسبا مقبلا غير مدبر إلا أدخله الله الجنة » ، فقال عمير بن الحمام : بخ بخ ، فقال رسول الله ﷺ: «ما يحملك على قولك: بخٍ بخٍ ؟ » قال: لا يا رسول الله إلا رجاء أن أكون من أهلها ، قال: « إنك من أهلها » . فأخرج تمرات من قرنه فجعل يأكل منهن ، ثم قال : لئن أنا حييت حتى آكل تمراتى هذه إنها لحياة طويلة، فرمى بما كان معه من التمر ثم قاتلهم حتى قتل[1]. وكذلك سأله عوف بن الحارث : ما يضحك الرب من عبده ؟ قال : « غمسه يده فى العدو حاسراً » فنزع درعاً كانت عليه فقذفها ، ثم أخذ سيفه فقاتل القوم حتى قتل[2] .

٣ ـ قال معاذ بن عمرو بن الجموح : سمعت القوم وأبو جهل فى مثل الحرجة [3] وهم يقولون : أبو الحكم لا يخلص إليه . قال : فلما سمعتها جعلته من شأنى ، فصمدت نحوه ، فلما أمكننى حملت عليه فضربته ضربة أطنت قدمه بنصف ساقه ، فوالله ما شبهتها حين طاحت إلا بالنواة تطيح من تحت مرضخة النوى حين يضرب بها ، قال : وضربنى ابنه عكرمة على عاتقى فطرح يدى فتعلقت بجلدة من جنبى ، وأجهضنى القتال عنه ، فلقد قاتلت عامة يومى هذا وأنا أسحبها خلفى ، فلما آذتنى وضعت عليها قدمى ، ثم تمطيت بها عليها حتى طرحتها ، ثم مر بأبى جهلٍ ـ وهو عقير ـ معوذ بن عفراء فضربه حتى أثبته فتركه وبه رمق [4] .

٤ ـ وفى الصحيح أن الزبير لقى عبيدة بن سعيد بن العاص وهو مدجج فى السلاح لا يرى منه إلا الحدق ، فحمل عليه الزبير بحربته فطعنه فى عينه فمات ، فوضع رجله على الحربة ثم تمطى وكان الجهد أن نزعها وقد انثنى طرفها ، فسأله إياها رسول الله ﷺ فأعطاه إياها [5] .

٥ ـ لما تزاحف الناس قال الأسود بن عبد الأسود المخزومى ، حين دنا من الحوض : أعاهد الله لأشربن من حوضهم ، أو لأهدمنه ، أو لأموتن دونه . فشد حتى دنا منه . فاستقبله حمزة بن عبد المطلب فضربه فأطن قدمه ، فزحف

---

(١) رواه مسلم ٢/ ١٣٩ . (٢) مشكاة المصابيح ٢/ ٣٣١ .

(٣) الحرجة : الشجر الملتف ، وشبه رماح المشركين حوله بذلك .

(٤) الرحيق المختوم عن ابن إسحاق ص ٢٤٥ . (٥) السيرة النبوية لمحمد بن عبد الوهاب ١٨٧ .

الأسود حتى وقع فى الحوض ، فهدمه برجله الصحيحة وشرب منه وحمزة يتبعه فضربه فى الحوض فقتله ، فدنا بعضهم من بعض وخرج عتبة وشيبة والوليد ودعوا إلى المبارزة . فخرج إليهم ثلاثة من الأنصار فتيان وهم معاذ ومعوذ وعوف بنو عفراء ، ويقال ثالثهم : عبد الله بن رواحة ، فاستحيا رسول الله ﷺ وكره أن يكون أول قتال فى الأنصار ، وأحب أن تكون الشوكة ببنى عمه وقومه فأمرهم فرجعوا إلى مصافهم وقال لهم خيراً .

ثم نادى منادى المشركين: أخرج إلينا الأكفاء من قومنا. فقال ﷺ : « يا بنى هاشم، قوموا فقاتلوا بحقكم الذى بعث به نبيكم إذ جاؤوا بباطلهم ليطفئوا نور الله » فقام على وحمزة وعبيدة بن الحارث بن المطلب ، فمشوا إليهم ، وكان على رضي الله عنه معلماً بصوفة بيضاء، فقال عتبة لابنه: قم يا وليد، فقام فقتله على، ثم قام عتبة فقتله حمزة ، ثم قام شيبة فقام إليه عبيدة فضربه شيبة فقطع ساقه ، فكر حمزة وعلى فقتلا شيبة ، واحتملا عبيدة إلى الصف ، فنزلت هذه الآية: ﴿ **هذان خصمان اختصموا في ربهم فالذين كفروا قطعت لهم ثياب من نار يصب من فوق رءوسهم الحميم** ﴾ [الحج : ١٩] (١).

ب ـ بطولات من أحد :

٦ ـ كان أول وقود المعركة حامل لواء المشركين طلحة بن أبى طلحة العبدرى. وكان من أشجع فرسان قريش ، يسميه المسلمون كبش الكتيبة .

خرج وهو راكب على جمل ، يدعو إلى المبارزة فأحجم عنه الناس لفرط شجاعته . ولكن تقدم إليه الزبير ، ولم يمهله بل وثب إليه وثبة الليث حتى صار معه على جمله ، ثم اقتحم به الأرض ، فألقاه عنه ، وذبحه بسيفه ، ورأى النبى ﷺ هذا الصراع الرائع ، فكبّر وكبّر معه المسلمون وأثنى على الزبير ، وقال فى حقه : « إن لكل نبى حوارياً وحوارى الزبير » (٢) .

٧ ـ تعاقب بنو عبد الدار لحمل اللواء بعد قتل قائدهم طلحة بن أبى طلحة ، فحمله أخوه أبو شيبة عثمان بن أبى طلحة ، وتقدم للقتال وهو يقول :

إن على أهل اللواء حقا أن تخضب الصعدة أو تندقا

---

(١) إمتاع الاسماع ١/ ٨٤ ، ٨٥ .

(٢) الرحيق المختوم عن السيرة الحلبية ص ٢٨٨ .

فحمل عليه حمزة بن عبد المطلب ، فضربه على عاتقه ضربة بترت يده مع كتفه ، حتى وصلت إلى سرته ، فبانت رئته ، ثم رفع اللواء أبو سعد بن أبى طلحة فرماه سعد بن أبى وقاص بسهم أصاب حنجرته فأدلع لسانه ومات لحينه. وقيل : بل خرج أبو سعد يدعو إلى البراز فتقدم إليه على بن أبى طالب فاختلفا ضربتين ، فضربه على فقتله. ثم رفع اللواء مسافع بن طلحة بن أبى طلحة ، فرماه عاصم بن ثابت بن أبى الأقلح بسهم فقتله ، فحمل اللواء بعده أخوه كلاب ابن طلحة بن أبى طلحة ، فانقض عليه الزبير بن العوام وقاتله حتى قتله ، ثم حمل اللواء أخوهما الجلاس بن طلحة بن أبى طلحة فطعنه طلحة بن عبيد الله طعنة قضت على حياته. وقيل: بل رماه عاصم بن ثابت بن أبى الأقلح بسهم فقضى عليه.

هؤلاء ستة نفر من بيت واحد بيت أبى طلحة عبد الله بن عثمان بن عبد الدار ، قتلوا جميعاً حول لواء المشركين ، ثم حمله من بنى عبد الدار أرطأة بن شرحبيل فقتله على بن أبى طالب ، وقيل : حمزة بن عبد المطلب . ثم حمله شريح بن قارظ فقتله قزمان . . . ثم حمله أبو زيد عمرو بن عبد مناف العبدرى فقتله قزمان أيضاً ، ثم حمله ولد لشرحبيل بن هاشم العبدرى فقتله قزمان أيضاً.

فهؤلاء عشرة من بنى عبد الدار من حملة اللواء أبيدوا عن آخرهم، ولم يبق منهم أحد يحمل اللواء. فتقدم غلام لهم حبشى اسمه صواب فحمل اللواء وأبدى من صنوف الشجاعة والثبات ما فاق به مواليه من حملة اللواء الذين قتلوا قبله فقد قاتل حتى قطعت يداه،فبرك على اللواء بصدره وعنقه؛ لئلا يسقط حتى قتل، وهو يقول : اللهم أعزرت ؟ يعنى : هل أعزرت ؟ وبعد أن قتل هذا الغلام ـ صواب ـ سقط اللواء على الأرض ، ولم يبق أحد يحمله ، فبقى ساقطا [1] .

قال الزبير بن العوام : وجدت فى نفسى حين سألت رسول الله ﷺ السيف فمنعنيه وأعطاه أبا دجانة ، وقلت ـ أى فى نفسى : أنا ابن صفية عمته ، ومن قريش،وقد قمت إليه فسألته إياه قبله، فآثاه إياه وتركنى، والله لأنظرن ما يصنع ؟ فاتبعته فأخرج عصابة له حمراء ، فعصب بها رأسه فقالت الأنصار : أخرج أبو دجانة عصابة الموت فخرج وهو يقول :

(١) الرحيق المختوم ص ٢٨٨ ، ٢٨٩ .

أنـا الـــذى عاهـــدنى خـــليـلـى ونحـن بالسـفح لـدى النخيل

أن لا أقـوم الدهـر فـى الكيول [1] أضـرب بسيف الله والـرسول

فجعل لا يلقى أحداً إلا قتله ، وكان فى المشركين رجل لا يدع لنا جريحاً إلا زفّف عليه، فجعل كل واحد منهما يدنو من صاحبه ، فدعوت الله أن يجمع بينهما فالتقيا ، فاختلفا ضربتين، فضرب المشرك أبا دجانة فاتقاه بدرقته ، فعضت بسيفه ، فضربه أبو دجانة فقتله. ثم رأيته قد حمل السيف على مفرق رأس هند بنت عتبة ، ثم عدل السيف عنها . قال الزبير : فقلت : الله ورسوله أعلم .

قال ابن إسحاق : وقال أبو دجانة سماك بن خرشة : رأيت إنساناً يخمش الناس خمشاً شديداً فصمدت له ، فلما حملت عليه السيف ولول ، فإذا امرأة ، فأكرمت سيف رسول الله ﷺ أن أضرب به امرأة [2] .

٩ ـ يقول وحشى بن حرب : كنت غلاماً لجبير بن مطعم ، وكان عمه طعيمة ابن عدى قد أصيب يوم بدر ، فلما سارت قريش إلى أحد قال لى جبير : إنك إن قتلت حمزة عم محمد بعمى فأنت عتيق . قال : فخرجت مع الناس ـ وكنت رجلاً حبشياً أقذف بالحربة قذف الحبشة قلما أخطئ بها شيئاً ـ فلما التقى الناس خرجت أنظر حمزة وأتبصره ، حتى رأيته فى عرض الناس مثل الجمل الأورق ، يهد الناس هدا ما يقوم له شىء ، فـوالله إنـى لأتهيأ له أريده فأستتر منه بشجرة أو حجر ليدنو منى إذ تقدمنى إليه سباع بن عبد العزى ، فلما رآه حمزة قال له : هلم إلى يا بن مقطعة البظور ـ وكانت أمه ختانة ـ قال : فضربه ضربة كأنما أخطأ رأسه [3] . قال: وهززت حربتى حتى إذا رضيت منها دفعتها إليه فوقعت فى ثنته ـ أحشائه ـ حتى خرجت من بين رجليه ، وذهب لينوء نحوى فغلب ، وتركته وإياها حتى مات [4] .

١٠ ـ مر أنس بن النضر بقوم وقد ألقوا ما بأيديهم فقال : ما تنتظرون ؟ فقالوا : قتل رسول الله ﷺ ، قال : ما تصنعون بالحياة بعده ؟ قوموا فموتوا على ما مات عليه رسول الله ﷺ ، ثم قال : اللهم إنى أعتذر إليك مما صنع

---

(١) الكيول : آخر الصفوف .

(٢) السيرة لابن هشام ٢ / ٦٩ .

(٣) يقال عند المبالغة فى الإصابة .

(٤) السيرة لابن هشام ٢ / ٧١ ، ٧٢ .

هؤلاء ـ يعنى المسلمين ـ وأبرأ إليك مما صنع هؤلاء ـ يعنى المشركين ـ ثم تقدم فلقيه سعد بن معاذ فقال : أين يا أبا عمر ؟ قال أنس : واها لريح الجنة يا سعد إنى أجده دون أحد ، ثم مضى فقاتل القوم حتى قتل ، فما عرف حتى عرفته أخته ببنانه، وبه بضع وثمانون ما بين طعنة برمح وضربة بسيف ورمية بسهم [١] .

١١ ـ روى مسلم عن أنس بن مالك أن رسول الله ﷺ أفرد يوم أحد فى سبعة من الأنصار ، ورجلين من قريش ، فلما رهقوه ، قال : « من يردهم عنا وله الجنة ، أو هو رفيقى فى الجنة ؟ » فتقدم رجل من الأنصار فقاتل حتى قتل ، ثم رهقوه أيضا فلم يزل كذلك حتى قتل السبعة ، فقال رسول الله ﷺ لصاحبيه ـ أى القرشيين : « ما أنصفنا أصحابنا » [٢] .

حتى كان آخرهم زياد أو عمارة بن السكن فقاتل حتى أثبتته الجراحة ، ثم فاءت فئة من المسلمين فأجهضوهم عنه ، فقال رسول الله ﷺ : « أدنوه منى » . فأدنوه منه فوسده قدمه ، فمات وخده على قدم رسول الله ﷺ [٣] .

١٢ ـ روى النسائى عن جابر قال : فأدرك المشركون رسول الله ﷺ فقال : «من للقوم » فقال طلحة : أنا ، ثم قاتل طلحة قتال الأحد عشر حتى ضربت يده فقطعت أصابعه ، فقال : حس ، فقال النبى ﷺ لو قلت : « بسم الله لرفعتك الملائكة والناس ينظرون » ، قال : ثم رد الله المشركين [٤] . ووقع عند الحاكم فى الإكليل : أنه جرح يوم أحد تسعاً وثلاثين أو خمساً وثلاثين وشلت إصبعه أى السبابة والتى تليها [٥] .

وروى ابن حبان فى صحيحه عن عائشة قالت : قال أبو بكر الصديق : لما كان يوم أحد انصرف الناس كلهم عن النبى ﷺ . فكنت أول من فاء إلى النبى ﷺ ، فرأيت بين يديه رجلاً يقاتل عنه. قلت : كن طلحة ، فداك أبى وأمى ، كن طلحة ، فداك أبى وأمى، كن طلحة ، فداك أبى وأمى ، فلم ألبث أن أدركنى أبو عبيدة بن الجراح ، وإذا هو يشتد كالطير ، حتى لحقنى ، فدفعنا إلى

---

(١) الرحيق المختوم ص ٢٩٦ ، وانظر : السيرة لابن هشام ٢/ ٨٣ .
(٢) صحيح مسلم ٣ / ١٤١٥ (١٧٨٩/ ١٠٠) . (٣) السيرة النبوية لابن هشام ٢ / ٨١ .
(٤) سنن النسائى ٦ / ٢٥ . (٥) فتح البارى ٧ / ٣٦١ .

النبى ﷺ ، فإذا طلحة بين يديه صريعاً . فقال النبى ﷺ : « دونكم أخاكم فقد أوجب» (١) .

١٣ ـ وكان على بن أبى طالب يذب عن رسول الله ﷺ من ناحية وأبو دجانة من ناحية ، وسعد بن أبى وقاص يذب طائفة ، وانفرد على بفرقة فيها عكرمة بن أبى جهل فدخل وسطهم بالسيف ، فضرب به وقد اشتملوا عليه حتى أمضى إلى آخرهم ، ثم كر فيهم ثانياً حتى رجع من حيث جاء . وكان الحباب بن المنذر يحوش المشركين كما تحاش الغنم ، واشتملوا عليه حتى قيل قد قتل ، ثم برز والسيف فى يده ، وافترقوا عنه ، وجعل يحمل على فرقة منهم وإنهم ليهربون منه ، وكان يومئذ معلماً بعصابة خضراء (٢) .

١٤ ـ وكان شماس بن عثمان لا يرمى رسول الله ﷺ ببصره يميناً وشمالاً إلا رآه فى ذلك الوجه يذب بسيفه حتى غشى رسولُ الله ﷺ ، فترس بنفسه دونه حتى قتل رحمه الله فذلك قول رسول الله ﷺ : « ما وجدت لشماس شبهاً إلا الجنة » (٣) .

١٥ ـ ومر مالك بن الدخشم على خارجة بن زيد وهو قاعد ، فى حشوته ثلاثة عشر جرحاً ، كلها قد خلصت إلى مقتل ، فقال: أما علمت أن محمدا قد قتل ! فقال خارجة : فإن كان محمد قد قتل فإن الله حى لايموت ، لقد بلَّغ محمد ، فقاتل عن دينك ، ومر على سعد بن الربيع وبه اثنا عشر جرحاً كلها قد خلص إلى مقتل ، فقال : علمت أن محمداً قد قتل ، فقال سعد : أشهد أن محمداً قد بلغ رسالة ربه ، فقاتل عن دينك فإن الله حى لا يموت (٤) .

١٦ ـ وأقبل ثابت بن الدحداحة والمسلمون أوزاع قد سقط فى أيديهم فصاح: يا معشر الأنصار ، إلىَّ إلىَّ أنا ثابت بن الدحداحة، إن كان محمد قد قتل فإن الله حى لايموت ، فقاتلوا عن دينكم ، فإن الله مظهركم وناصركم . فنهض إليه نفر من الأنصار فحمل بهم على كتيبة فيها خالد بن الوليد وعمرو بن العاص ، وعكرمة بن أبى جهل وضرار بن الخطاب فحمل عليه خالد بن الوليد بالرمح فقتله، وقتل من كان معه من الأنصار رضى الله عنهم (٥) .

---

(١) الرحيق المختوم ص ٣٠١ ، وانظر : فتح البارى ٧ / ٣٦١ .
(٢) إمتاع الأسماع للمقريزى ١ / ١٤٣ .
(٣) المصدر نفسه ١ / ١٤٤ .
(٤) المصدر نفسه ١/ ١٥١ .
(٥) المصدر نفسه ١/ ١٥٢ .

١٧ ـ وقال عبد الله بن جحش : يا رسول الله، إن هؤلاء القوم قد نزلوا حيث ترى، وقد سألت الله فقلت : اللهم إنى أقسم عليك أن نلقى العدو غداً فيقتلونني ويقرونني ويمثلون بى ، فألقاك مقتولاً قد صُنع هذا بى . فتقول : فيم صُنع بك هذا ؟ فأقول فيك؛ وأنا أسألك أخرى: أن تلى تركتى من بعدى. فقال: نعم. فخرج حتى قتل ومُثِل به، ودفن هو وحمزة ﷺ فى قبر واحد [١] .

١٨ ـ ثم أخذ ﷺ قوسه ، فما زال يرامى القوم ، وأبو طلحة يستره مترساً عنه، حتى تحطمت القوس ، وكان أبو طلحة قد نثر كنانته ـ وفيها خمسون سهماً ـ بين يدى النبى ﷺ ، وكان رامياً وكان صيِّتا ، فقال ﷺ : « صوت أبى طلحة فى الجيش خير من أربعين رجلاً » ، فلم يزل يرمى بها ورسول الله ﷺ من خلفه بين رأسه ومنكبه ينظر إلى مواقع النبل ، حتى فنيت نبله وهو يقول : نحرى دون نحرك جعلنى الله فداك ، فإن كان ﷺ ليأخذ العود من الأرض فيقول : « ارم أبا طلحة » فيرمى بها سهماً جيداً [٢] .

من بطولات الرجيع

١٩ ـ (ورماهم عاصم حتى فنيت نبله ، ثم طاعنهم حتى كسر رمحه ، ثم كسر غمد سيفه ، وقاتل حتى قتل ، فبعث الله عليه الدَّبْر [٣] فحمته . فلم يدن منه أحد إلا لدغت وجهه ، ثم بعث الله فى الليل سيلاً فاحتمله فذهب به فلم يقدروا عليه ، وذلك أنه كان قد نذر ألا يمس مشركاً ولا يمسه مشرك ، وكانوا يريدون أن يجزوا رأسه ليذهبوا به إلى سلافة بنت سعد لتشرب فى قفة قحفه [٤] الخمر ؛ فإنها نذرت إن أمكنها الله منه أن تفعل ذلك من أجل أنه قتل لها ابنين فى يوم واحد) [٥] .

٢٠ ـ (ثم أخرجوه ـ أى خبيب بن عدى ـ فى الحديد إلى التنعيم ومعه النساء والصبيان والعبيد وجماعة من أهل مكة ، ومعه زيد بن الدثنة ، فصلى خبيب ركعتين أتمهما من غير أن يطوِّل بينهما ـ وكان أول من سن الركعتين عند القتل ـ ثم

(١) إمتاع الأسماع ١/ ١٥٥ .
(٢) المصدر نفسه ١/ ١٣٤ .
(٣) الدبر : ذكور النحل .
(٤) قفة قحفه : ما ينفلق من الجمجمة .
(٥) إمتاع الأسماع ١ / ١٧٥ .

قال : اللهم احصهم عدداً ، واقتلهم بدداً ، ولا تغادر منهم أحداً . ثم أوثقوه رباطاً وقالوا : ارجع عن الإسلام ونخلى سبيلك . فقال : لا إله إلا الله ، والله ما أحب أنى رجعت عن الإسلام وأن لى ما فى الأرض جميعاً ، قالوا : فتحب أن محمداً الآن فى مكانك وأنت جالس فى بيتك ؟ فقال : والله ما أحب أن يشاك محمد شوكة وإنى جالس فى بيتى ؛ فجعلوا يقولون : يا خبيب ، ارجع!! فيقول : لا أرجع أبداً. قالوا: أما واللات والعزى لئن لم تفعل لنقتلنّك. قال : إن قتلى فى الله لقليل ؛ فجعلوا وجهه من حيث جاء فقال : ما صرفكم وجهى عن القبلة ؟ ثم قال : اللهم إنى لا أرى إلا وجه عدو ، اللهم ليس هاهنا أحد يبلغ رسولك عنى السلام ، فبلغه أنت عنى السلام . فقال رسول الله ﷺ ـ وهو جالس مع أصحابه وقد أخذته غمية : « وعليه السلام ورحمة الله وبركاته » ثم قال : « هذا جبريل يقرئنى من خبيب السلام » . ثم أحضروا أبناء من قتل ببدر ـ وهم أربعون غلاماً ـ فأعطوا كل غلام رمحاً فطعنوه برماحهم فاضطرب على الخشبة ، وقد رفعوه عليها ، وانفلت فصار وجهه إلى الكعبة فقال : الحمد لله ، فطعنه أبو سروعة حتى أخرجها من ظهره ، فمكث ساعة يوحد ويشهد أن محمداً رسول الله ثم مات رضي الله عنه ، وتولى قتل زيد نسطاس[1]) [2] .

من بطولات الخندق

٢١ ـ (ثم أجمع رؤساء المشركين أن يغدوا جميعاً ، وجاؤوا يريدون مضيقاً يقحمون خيلهم إلى النبى ﷺ ، حتى أتوا مكاناً ضيقاً أغفله المسلمون ، فلم تدخله خيولهم ، وعبره عكرمة بن أبى جهل ، ونوفل بن عبد الله المخزومى ، وضرار بن الخطاب الفهرى ، وهبيرة بن أبى وهب ، وعمرو بن عبد ود، قام سائرهم وراء الخندق فدعا عمرو إلى البراز، فلم يكن أسرع من أن قتله على ، فولى أصحابه الأدبار ، وسقط نوفل بن عبد الله عن فرسه فى الخندق ، فرمى بالحجارة حتى قتل ، ومر عمر بن الخطاب والزبير فى إثر القوم فناوشوهم ساعة ، وسقطت درع هبيرة بن أبى وهب فأخذها الزبير رضي الله عنه .

---

(١) نسطاس : هو مولى صفوان بن أمية .

(٢) إمتاع الأسماع ١ / ١٧٧ .

ثم وافى المشركون سحراً ، وعبَّأ رسول الله ﷺ أصحابه ، فقاتلوا يومهم إلى هَوِيٍّ من الليل ، وما يقدر رسول الله ولا أحد من المسلمين أن يزولوا عن موضعهم ، وما قدر رسول الله ﷺ على صلاة ظهر ولا عصر ولا مغرب ولا عشاء ،فجعل أصحابه يقولون : يا رسول الله ، ما صلينا ، فيقول : « ولا أنا والله ما صليت »، حتى كشف الله المشركين، ورجع كل من الفريقين إلى منزله، وقام أسيد بن حضير فى مائتين على شفير الخندق ؛ فكرت خيل للمشركين يطلبون غرة عليها خالد بن الوليد ، فناوشهم ساعة ، فزرق وحشى الطفيل بن النعمان بمزراقة (١) فقتله كما قتل حمزة رضي الله عنه بأحد . فلما صار رسول الله ﷺ إلى قبته أمر بلالاً فأذن وأقام للظهر ، وأقام لكل صلاة إقامة فصلى كل صلاة كأحسن ما كان يصليها فى وقتها ، وقال يومئذ رسول الله ﷺ : « شغلنا المشركون عن صلاة الوسطى ملأ الله أجوافهم وقبورهم ناراً ») (٢) .

٢٢ ـ كان عمرو بن عبد ود قد قاتل يوم بدر حتى أثبتته الجراحة،فلم يشهد يوم أحد، فلما كان يوم الخندق خرج مُعلَّماً ليُرى مكانه ، فلما وقف هو وخيله ، قال : من يبارز ؟ فبرز له على بن أبى طالب ، فقال له : يا عمرو ، إنك كنت عاهدت الله ألا يدعوك رجل من قريش إلى إحدى خلتين إلا أخذتها منه . قال له: أجل . قال له على : إنى أدعوك إلى الله وإلى رسوله ، وإلى الإسلام ؛ قال : لا حاجة لى بذلك . قال : فإنى أدعوك إلى النزال ، فقال له : لم يا بن أخى ؟ فوالله ما أحب أن أقتلك ، قال له على : لكنى والله أحب أن أقتلك ، فحمى عمرو عند ذلك ، فاقتحم عن فرسه ، فعقره ، وضرب وجهه،ثم أقبل على علىّ ، فتنازلا وتجاولا ، فقتله على رضي الله عنه ، وخرجت خيلهم منهزمة ، حتى اقتحمت عن الخندق هاربة . قال ابن إسحاق : (وقال على بن أبى طالب رضوان الله عليه فى ذلك :

نصر الحجارة من سفاهة رأيه ... ونصرت رب محمد بصواب

فصددت حين تركته متجدلاً ... كالجذع بين دكادك وروابى

وعففت عن أثوابه ولو أننى ... كنتُ المقطَّرُ بزَّنى أثوابى

---

(١) المزراق : رمح قصير .

(٢) إمتاع الأسماع ١ / ٢٣٢ ، ٢٣٣ .

لا تحسبنَّ الله خـاذل دينـــه ونبيه يا معشر الأحـزاب)[1]

وهكذا وجدنا أن الجهد البشرى فى البذل قد أدى دوره تماماً فى الحرب ، ولم يبخل المسلمون بأرواحهم ودمائهم وقوداً للمعارك ، حتى هيأ الله تعالى لهم نصره الذى جعله حقاً عليه للمؤمنين .

السمة الثانية والعشرون
دور النساء فى المعارك ومشاركتهن فيها

أين كانت المرأة المسلمة فى هذه الأحداث ؟

لقد كانت جزءاً لا يتجزأ منها ، ساهمت فى صنعها تربية للجيل المسلم أولاً ، ثم رعاية للزوج المسلم ثانياً ،ودفعاً له إلى الجهاد والبذل، ثم صبراً واحتساباً عند المصيبة ثالثاً ، ثم حضوراً للمعركة تسقى الظمأى وتداوى الجرحى رابعاً ، ثم حملاً للسلاح جهاداً للعدو حين الضرورة أخيراً ، ولا يتسع المقام لأكثر من نماذج توضح هذه الأدوار كلها لتكون نبراسا للمرأة المسلمة اليوم ، وهى تحمل رسالة الإسلام بجانب الرجل .

أ ـ فى التطبيق العملى للإسلام :

كان المسجد للرجال والنساء، فلقد كانت الصفوف الأولى للرجال، والصفوف الأخيرة للنساء ، ولم يكن المسجد دار عبادة فقط ، بل كان الجامعة العلمية العليا التى يتلقى المسلمون علومهم منها ، وعلى رأس هذه الجامعة رسول الله ﷺ ، ومن أجل هذا كان الحرص المستمر من النساء على شهود الخير وجماعة المسلمين ، وكان رسول الله ﷺ كثيراً ما يعقد لهن درساً خاصاً يعلمهن ويعظهن ويذكرهن . ولو كان المسجد للعبادة فقط ، لأمكن استغناء كثير من النساء عن الحضور إليه ، إذ الإسلام جعل صلاة المرأة فى بيتها خيراً من صلاتها فى المسجد النبوى ، لكن تلقى العلم من منبعه النبوى الموحى إليه لم يكن ليتاح للمرأة المسلمة إلا فى المسجد .

---

(١) السيرة النبوية لابن هشام ٢ / ٢٢٠ .

وكما كان المسجد دار عبادة ودار علم ، فلقد كانت الأحداث تصنع فيه ، وتقرر فيه؛ولهذا كانت المرأة المسلمة تعيش هذه الأحداث يوماً بيوم وساعة بساعة، لم تكن أبداً معزولة عنها ، بل كانت تحياها بمشاعرها وأعصابها وفكرها ، وتذلل بذلك للرجل المسلم كثيراً من الخطوات التى يود أن يخطوها فى بيته لإقناعها بما يريد ، وهذه هى المشكلة التى تعانيها المرأة المسلمة اليوم . إنها تعيش بعيداً عن مصنع النور ، وبؤرة الإشعاع ، وليس كل رجل قادراً على صهر المرأة فى هذه الأحداث وجعلها تتفاعل معها ، المرأة تعيش اهتماماتها أكثر مما تعيش إسلامها ، وهذا لا يعنى أنا لا نملك النماذج الإسلامية الرائعة للمرأة المسلمة اليوم ؛ لكنها نماذج فردية ، وليست سمة عامة لنسائنا اليوم .

وفى اعتقادى أن أكبر خطوة عملية تمت بالمرأة المسلمة على طريق الإسلام ، هو نقل عواطفها ومشاعرها وذوقها من الجاهلية إلى الإسلام فى مجال الغناء ، وذلك ببروز ظاهرة الأشرطة الإسلامية التى ملأت البيوت ، ونسخت الفن الجاهلى الهابط الذى كانت تعيشه المرأة نهارها كله،وهى تغير إبرة المذياع من أغنية ماجنة إلى أخرى خليعة،وتحفظ نسوتنا هذه الأغانى جميعاً وتشهد بها أفراحها وتبنى من خلالها ذوقها وعاطفتها بل أفكارها كذلك.

ومن التطبيق العملى كذلك موقفها وهى تتلقى وحى الله تعالى ، نشهد ذلك من خلال ثلاث روايات لعائشة رضي الله عنها :

١ ـ يرحم الله نساء المهاجرات الأول ، لما أنزل الله : ﴿ وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ ﴾ شققن مروطهن فاختمرن بها) (١) .

٢ ـ (عن صفية بنت شيبة عن عائشة : لما نزلت هذه الآية : ﴿ وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ ﴾ أخذن أزرهن فشققنها من قبل الحواشى فاختمرن بها) (٢) .

٣ ـ (عن صفية بنت شيبة قالت : بينا نحن عند عائشة فذكرن نساء قريش وفضلهن، فقالت عائشة رضي الله عنها : إن لنساء قريش فضلاً ، وإنى والله ما رأيت أفضل من نساء الأنصار أشد تصديقاً لكتاب الله ، ولا إيماناً بالتنزيل ، لقد أنزلت

---

(١) فتح البارى شرح صحيح البخارى للحافظ ابن حجر ٨ / ٤٨٩ ح ٤٧٥٨ .
(٢) المصدر نفسه ح ٤٧٥٩ .

سورة النور : ﴿ وليضربن بخمرهن على جيوبهن ﴾ . انقلب رجالهن إليهن يتلو عليهن ما أنزل الله إليهم فيها ، ويتلو الرجل على امرأته وابنته وأخته،وعلى كل ذى قرابته فما منهن امرأة إلا قامت إلى مرطها المرحل ، فاعتجرت به تصديقاً وإيماناً بما أنزل الله من كتابه ، فأصبحن وراء رسول الله ﷺ معتجرات كأن على رؤوسهن الغربان) (١) .

فهكذا كانت المرأة المسلمة تتعامل مع نصوص الكتاب والسنة ، وهكذا كانت تحضر الصلاة فى المسجد ، وتلبى داعى الله .

ب ـ فى تربية الجيل المسلم :

لقد كانت الأمهات اللاتى دخلن فى الإسلام ، ومن خلال تعايشهن مع الأحداث ، خير عون ودافع لأبنائهن ، ومن هذه النماذج :

١ ـ عن عبد الله بن زيد قال : (جرحت يومئذ جرحاً فى عضدى اليسرى ـ يوم أحد ـ وضربنى رجل كأنه الرقل ـ النخلة الطويلة ـ ولم يعرج علىَّ ومضى عنى ، وجعل الدم لا يرقأ ، فقال رسول الله ﷺ : « اعصب جرحك » ، فتقبل أمى إلى ، ومعها عصائب فى حقويها قد أعدتها للجراح ، فربطت جرحى ، والنبى واقف ينظر إلى ، ثم قالت : انهض يا بنى فضارب القوم !! فجعل النبى ﷺ يقول : « من يطيق ما تطيقين يا أم عمارة ») (٢).

٢ ـ قال ابن إسحاق : وحدثنى أبو ليلى عبد الله بن سهل الأنصارى أخو بنى حارثة أن عائشة أم المؤمنين كانت فى حصن بنى حارثة يوم الخندق ، وكان من أحرز حصون المدينة. قال : وكانت أم سعد بن معاذ معها فى الحصن ؛ فقالت عائشة وذلك قبل أن يفرض علينا الحجاب : فمر سعد وعليه درع له مقلَّصة ، قد خرجت منها ذراعه كلها ، وفى يده حربته يرقد بها ويقول :

لبِّث قليلاً يشهد الهيجا جمل لا بأس بالموت إذا حان الأجل

قال : فقالت له أمه : الحق ، أى بنى، فقد والله أخرت ؛ قالت عائشة: فقلت لها : يا أم سعد ، والله لوددت أن درع سعد كانت أسبغ مما هى ، قالت : وخفت عليه حيث أصاب السهم منه) (٣) .

---

(١) فتح البارى شرح صحيح البخارى للحافظ ابن حجر ص ٤٩٠ .

(٢) سير أعلام النبلاء ٢ / ٢٨٠ . (٣) السيرة لابن هشام ٢ / ٢٢٦ ، ٢٢٧ .

جـ ـ فى رعاية الزوج والولد :

وخرج عمرو بن الجموح وهو أعرج وهو يقول: اللهم لا تردنى إلى أهلى !! فقتل شهيداً ، واستشهد ابنه خلاد بن عمرو،وعبد الله بن عمرو بن حرام أبو جابر بن عبد الله، فحملتهم هند بنت عمرو بن حرام ـ زوجة عمرو بن الجموح ـ على بعير لها تريد بهم المدينة ، فلقيتها عائشة رضي الله عنها ، وقد خرجت فى نسوة تستروح الخبر، ولم يضرب الحجاب يومئذ فقالت لها: عندك الخبر ، فما وراءك ؟ قالت : أما رسول الله فصالح ، وكل مصيبة بعده جلل ، واتخذ الله من المؤمنين شهداء. . . قالت عائشة : من هؤلاء ؟ قالت : أخى وابنى خلاد وزوجى عمرو ابن الجموح ، قالت : فأين تذهبين بهم ؟ قالت : إلى المدينة أقبرهم فيها . ثم قالت: حل [1] ـ تزجر بعيرها ـ فبرك ، فقالت عائشة : لما عليه. قالت : ما ذاك به، لربما حمل ما يحمل البعيران،ولكنى أراه لغير ذلك ، وزجرته فقام ، فوجهته راجعة إلى أحد ، فأسرعت إلى النبى ﷺ فأخبرته بذلك فقال : « فإن الجمل مأمور ، هل قال شيئاً ؟ » قالت : إن عمراً لما وجه إلى أحد قال : اللهم لا تردنى إلى أهلى خزيان ، وارزقنى الشهادة . فقال رسول الله ﷺ : « فلذلك الجمل لا يمضى ؛ إن منكم يا معشر الأنصار من لو أقسم على الله لأبره : منهم عمرو بن الجموح . يا هند ، ما زالت الملائكة مظلة على أخيك من لدن قتل إلى الساعة ينظرون أين يدفن » ، ثم مكث ﷺ حتى قبرهم . ثم قال : « يا هند ، قد ترافقوا فى الجنة ، عمرو بن الجموح وابنك خلاد وأخوك عبد الله » . قالت : قلت: يا رسول الله ، ادع الله يجعلنى معهم . وقال جابر بن عبد الله : كان أبى أول قتيل من المسلمين يوم أحد،قتله سفيان بن عبد شمس فصلى عليه رسول الله ﷺ قبل الهزيمة [2].

د ـ فى الصبر والاحتساب عند المصيبة :

١ ـ جاءت أم حارثة إلى رسول الله ﷺ فقالت : يا رسول الله، أخبرنى عن حارثة فإن كان فى الجنة صبرت ، وإن كان غير ذلك ليرين الله ما أصنع قال : «ويحك يا أم حارثة ، إنها ليست جنة ، إنها جنان وإن ابنك أصاب الفردوس الأعلى » [3] .

---

(١) حل : زجر تزجر به الناقة إذا حثثتها على السير .
(٢) إمتاع الأسماع ١ / ١٤٦ ـ ١٤٨ .
(٣) انظر : مسند الإمام أحمد ٣/ ٢١٠ .

٢ ـ مر رسول الله ﷺ بامرأة من بنى دينار ، وقد أصيب أخوها وزوجها وأبوها مع رسول الله ﷺ بأحد، فلما نعوا لها قالت : فما فعل رسول الله ﷺ ؟ قالوا : خيراً يا أم فلان ، هو بحمد الله كما تحبين ، قالت : أرونيه حتى أنظر إليه ؟ قال: فأشير لها إليه، حتى إذا رأته قالت: كل مصيبة بعدك جلل (١)) (٢) .

٣ ـ قال ابن إسحاق : وقد أقبلت فيما بلغنى ، صفية بنت عبد المطلب لتنظر إليه ـ أى حمزة ـ وكان أخاها لأبيها وأمها، فقال رسول الله ﷺ لابنها الزبير بن العوام : « القها فأرجعها لا ترى ما بأخيها » ، فقال لها : يا أمه ، إن رسول الله ﷺ يأمرك أن ترجعى، قالت: ولم ؟ وقد بلغنى أنه مثل بأخى ، وذلك فى الله، فما أرضانا بما كان من ذلك ! لأحتسبن وأصبرن إن شاء الله . فلما جاء الزبير إلى رسول الله ﷺ فأخبره بذلك ، قال : « خلِّ سبيلها » ، فأتته فنظرت إليه ، فصلت عليه، واسترجعت، واستغفرت له، ثم أمر به رسول الله ﷺ فدفن (٣) .

٤ ـ ثم انصرف رسول الله ﷺ راجعاً إلى المدينة ، فلقيته حمنة بنت جحش، كما ذكر لى، فلما لقيت الناس نُعى إليها أخوها عبد الله بن جحش فاسترجعت واستغفرت له، ثم نعى لها خالها حمزة بن عبد المطلب فاسترجعت واستغفرت له، ثم نعى لها زوجها مصعب بن عمير، فصاحت وولولت ؛ فقال رسول الله ﷺ : « إن زوج المرأة منها لبمكان » لما رأى من تثبتها عند أخيها وخالها ، وصياحها عند زوجها (٤) .

٥ ـ أقبل ـ رسول الله ﷺ ـ حتى طلع على بنى عبد الأشهل وهم يبكون على قتلاهم فقال : « لكن حمزة لا بواكى له » فخرج النساء ينظرن إلى سلامته ، فقالت أم عامر الأشهلية : كل مصيبة بعدك جلل ، وجاءت أم سعد بن معاذ تعدو نحو رسول الله ﷺ ، وقد وقف على فرسه ، وسعد بن معاذ آخذ بعنان الفرس فقال سعد :

يا رسول الله ، أمى فقال : « مرحبا بها » . فدنت حتى تأملت رسول الله ﷺ وقالت : أما إذا رأيتك سالماً فقد أشوت (٥) المصيبة . فعزاها رسول الله ﷺ

---

(١) أى صغيرة .
(٢) السيرة لابن هشام ٢/ ٩٩ .
(٣) السيرة لابن هشام ٢/ ٩٧ .
(٤) المصدر نفسه ٢/ ٩٨ .
(٥) أشوت : هانت .

بعمرو بن معاذ ابنها ثم قال : « يا أم سعد ، أبشرى وبشرى أهليهم أن قتلاهم قد ترافقوا فى الجنة جميعاً ـ وهم اثنا عشر رجلاً ـ وقد شُفِّعوا فى أهليهم »؛ قالت : رضينا برسول الله ، ومن يبكى عليهم بعد هذا ؟ ثم قالت : ادع يا رسول الله لمن خلّفوا ، قال : « اللهم أذهبْ حزن قلوبهم ، واجبر مصيبتهم ، وأحسن الخلف على من خلّفوا » ؛ ثم قال : « يا أبا عمرو ، إن الجراح فى أهل دارك فاشية وليس منهم مجروح إلا يأتى يوم القيامة جرحه كأغزر ما كان ، اللون لون الدم ، والريح ريح المسك ، فمن كان مجروحاً فليقر فى داره وليداو جرحه ، ولا يبلغ معى بيتى ، عزمة منى » ، فنادى فيهم سعد : عزمة من رسول الله ألا يتبع رسول الله ﷺ جريح من بنى عبد الأشهل ، فتخلف كل مجروح ، فباتوا يوقدون النيران ، ويداوون الجراح ، وإن فيهم لثلاثين جريحاً ومضى سعد مع رسول الله ﷺ حتى جاء بيته فما نزل عن فرسه إلا حملا ، واتكأ على سعد بن معاذ وسعد بن عبادة حتى دخل بيته ، فلما أذن بلال بصلاة المغرب خرج على مثل تلك الحال يتوكأ على السعدين فصلى ثم عاد إلى بيته .

ومضى سعد بن معاذ إلى نسائه فساقهن حتى لم تبق امرأة إلا جاء بها إلى بيت رسول الله ﷺ، فبكين حمزة رضي الله عنه بين المغرب والعشاء ، والناس فى المسجد يوقدون النار يتكمدون [1] بها من الجراح ، وأذن بلال رضي الله عنه حين غاب الشفق ، فلم يخرج رسول الله ﷺ ، فجلس بلال عند بابه حتى ذهب ثلث الليل ، ثم ناداه : الصلاة ، يا رسول الله ، فهب ﷺ من نومه وخرج ، فإذا هو أخف فى مشيته من حين دخل ، وسمع البكاء فقال : « ما هذا ؟ » فقيل : نساء الأنصار يبكين على حمزة فقال : « رضى الله عنكن وعن أولادكن » ، وأمر أن ترد النساء إلى أولادهن ، فرجعن بعد ليلٍ مع رجالهن ، وصلى رسول الله ﷺ العشاء ، ثم رجع إلى بيته ، وقد صف له الرجال ما بين بيته إلى مصلاه يمشى وحده حتى دخل ، وباتت وجوه الأوس والخزرج على بابه فى المسجد يحرسونه فرقاً من قريش أن تكر ، ويقال: إن معاذ بن جبل رضي الله عنه جاء بنساء بنى سلمة ، وجاء عبد الله ابن رواحة رضي الله عنه بنساء الحارث بن الخزرج فقال ﷺ : « ما أردت هذا » ، ونهاهن الغد عن النوح أشد النهى [2].

---

(١) تكميد العضو : تسخين بخرق أو قطن ، فإذا تابع ذلك على موضع الوجع وجد له راحة .

(٢) إمتاع الأسماع ١/ ١٦٣ ـ ١٦٥ .

٥ ـ مات ابن لأبى طلحة من أم سليم فقالت لأهلها : لا تحدثوا أبا طلحة بابنه حتى أكون أنا التى أحدثه ، فجاءت فقربت إليه عشاء فأكل وشرب ، ثم تصنعت له أحسن ما كانت تصنع قبل ذلك فوقع بها ، فلما أن رأت أنه قد شبع وأصاب منها قالت : يا أبا طلحة، أرأيت لو أن قوماً أعاروا عاريتهم أهل بيت فطلبوا عاريتهم ألهم أن يمنعوهم ؟ قال: لا، قالت : فاحتسب ابنك، قالت : فغضب ثم قال : تركتنى حتى إذا تلطخت ثم أخبرتنى بابنى، فانطلق حتى أتى رسول اللّه ﷺ فأخبره بما كان فقال رسول اللّه ﷺ : « بارك الله فى ليلتكما » قال: فحملت. قال: وكان رسول الله ﷺ فى سفر وهى معه ، وكان رسول اللّه ﷺ إذا أتى المدينة من سفر لا يطرقها طروقاً، فدنوا من المدينة فضربها المخاض، فاحتبس عليها أبو طلحة وانطلق رسول اللّه ﷺ، قال: يقول أبو طلحة : إنك لتعلم يا رب أنه يعجبنى أن أخرج مع رسول اللّه ﷺ إذا خرج ، وأدخل معه إذا دخل ، وقد احتُبست بما ترى، تقول أم سليم : يا أبا طلحة ، ما أجد الذى كنت أجد الطلق ، فانطلقنا وضربها المخاض حين قدما فولدت غلاماً ، فقالت لى أمى: يا أنس ، لا يرضعه أحد حتى تغدو به على رسول اللّه ﷺ ، فلما أصبح احتملته فانطلقت به إلى رسول اللّه ﷺ (١) . . . فحنكه وسماه عبد اللّه . وفى رواية للبخارى : فقال رجل من الأنصار : فرأيت تسعة أولاد كلهم قد قرؤوا القرآن ، يعنى من أولاد عبد اللّه المولود .

هـ ـ حضور المعارك للتطبيب والسقاية :

١ ـ روى البخارى عن أنس رضي الله عنه أنه قال: لقد رأيت عائشة وأم سليم وإنهما لمشمرتان تنقزان القرب على متونهما ، تفرغان الماء فى أفواه القوم ثم ترجعان فتملآنها ثم تجيئان فتفرغانه فى أفواه القوم (٢) .

٢ ـ وذكر الطبرانى أنه لما انصرف المشركون ، خرج نساء الصحابة لتقديم العون لهم فكانت فاطمة فيمن خرج ، فلما لقيت النبى ﷺ اعتنقته وجعلت تغسل جراحاته بالماء فيذداد الدم ، فلما رأت ذلك أخذت شيئاً من حصير فأحرقته بالنار وكمدته به حتى لصق الجرح فاستمسك الدم (٣) .

---

(١) رواه مسلم ٤/ ١٩٠٩ (٢١٤٤/ ١٠٧) .
(٢) صحيح البخارى ٢/ ٤/ ١٢٥ .
(٣) سمط النجوم العوالى ٢/ ٨٨ .

٣ ـ وعن أم عطية قالت: غزوت مع رسول اللّه ﷺ سبع غزوات ، فكنت أصنع لهم طعامهم ، وأخلفهم فى رحالهم ، وأداوى الجرحى ، وأقوم على المرضى (١) .

٤ ـ قال محمد بن عمر : وقد حضرت أم أيمن أحداً ، كانت تسقى الماء وتداوى الجرحى . وجاء فى الكامل لابن الأثير : إن أم أيمن كانت تسقى الجرحى فى الجيش فرماها حبان بن العرقة بسهم فوقعت وانكشفت ، فأغرق عدو اللّه فى الضحك ، فدفع إلى سعد بن أبى وقاص سهماً لا نصل له ، وقال : « ارم به » ، فرمى به ، فوقع السهم فى نحر حبان المشرك، فوقع مستلقياً حتى تكشف ، فضحك رسول اللّه ﷺ حتى بدت نواجذه ثم قال : « استقاد لها سعد أجاب الله دعوته » (٢) .

٥ ـ وخرج محمد بن مسلمة يطلب مع النساء ماءً ـ وكن قد جئن أربع عشرة امرأة منهن فاطمة عليها السلام ، يحملن الطعام على ظهورهن ، ويسقين الجرحى ويداوينهم ، ومنهن أم سليم بنت ملحان ، وعائشة أم المؤمنين رضى الله عنها تحملان على ظهورهما القرب ، ومنهن حمنة بنت جحش وكانت تسقى العطشى ، وتداوى الجرحى ، ومنهن أم أيمن تسقى الجرحى .

و ـ المرأة المسلمة مقاتلة :

وهو دور غير طبيعى ، والأصل من المرأة ألا تقاتل إلا حين الضرورة ، وحين تغشى أرض المسلمين من العدو، ولم تكن أحد إلا صورة من هذه الصور، وكانت بطلتها أم عمارة.

١ ـ قالت أم عمارة: وأقبل الرجل الذى ضرب ابنى، فقال رسول اللّه ﷺ : « هذا ضارب ابنك ». قالت: فأعترض له، فأضرب ساقه، فبرك. قالت : فرأيت رسول اللّه ﷺ يتبسم حتى رأيت نواجذه ، وقال : « استقدت ـ ثأرت ـ يا أم عمارة » . ثم أقبلنا نعله بالسلاح حتى أتينا على نفسه فقال النبى ﷺ : « الحمد للّه الذى ظفرك ، وأقر عينك من عدوك ، وأراك ثأرك بعينك » (٣) .

---

(١) الطبقات الكبرى ٨/ ٤٥٥ .

(٢) وقد أورده المقريزى فى إمتاع الأسماع ١/ ١٣٣ .

(٣) سير أعلام النبلاء للذهبى ٢/ ٢٨٠ .

٢ ـ (قالت أم عمارة : قد رأيتنى وقد انكشف الناس عن رسول اللّه ﷺ فما بقى إلا فى نفير ما يتمون عشرة ، وأنا وابناى وزوجى بين يديه نذب عنه والناس يمرون به منهزمين، ورآنى لا ترس معى ، فرأى رجلاً مولياً معه ترس فقال لصاحب الترس : ألق ترسك إلى من يقاتل . فألقى ترسه فأخذته ، فجعلت أترس به عن رسول اللّه ﷺ ، فيقبل رجل على فرس فضربنى ، وتترست له ، فلم يصنع سيفه شيئاً وولى وأضرب عرقوب فرسه ، فوقع على ظهره ، فجعل النبى ﷺ يصيح : « يا بن أم عمارة ، أمك » ، قالت : فعاوننى عليه حتى أوردته شعوب (١)) (٢) .

٣ ـ وفى رواية عن أم سعيد بنت سعد بن الربيع تقول : دخلت عليها فقلت: حدثينى خبرك يوم أحد ، قالت : خرجت أول النهار إلى أحد وأنا أنظر ما يصنع الناس ومعى سقاء فيه ماء . فانتهيت إلى رسول اللّه ﷺ وهو فى أصحابه ، والدولة والريح للمسلمين، فلما انهزم المسلمون انحزت إلى رسول اللّه ﷺ فجعلت أباشر القتال ، وأذب عن رسول اللّه بالسيف وأرمى بالقوس ، حتى خلصت إلىّ الجراح، قالت: فرأيت على عاتقها جرحاً أجوف له غور فقلت: يا أم عمارة، من أصابك هذا ؟ قالت : أقبل إلى ابن قميئة، وقد ولى الناس عن رسول اللّه ﷺ وهو يصيح : دلونى على محمد فلا نجوت إن نجا ، فاعترض له مصعب بن عمير ، وناس معه فكنت فيهم فضربنى هذه الضربة ، ولقد ضربته على ذلك ضربات ، ولكن عدو اللّه كان عليه درعان) (٣) .

٤ ـ كان ضمرة بن سعيد المازنى يحدث عن جدته ، وكانت قد شهدت أحداً تسقى الماء ، قالت : سمعت رسول اللّه ﷺ يقول : « لمقام نسيبة بنت كعب اليوم خير من مقام فلان وفلان » ، وكان يراها يومئذ تقاتل أشد القتال ، وإنها لحاجزة ثوبها على وسطها حتى جرحت ثلاثة عشر جرحاً . وكانت تقول ـ جدة ضمرة ـ : إنى لأنظر إلى ابن قميئة وهو يضربها على عاتقها ، وكان أعظم جراحها ، فداوته سنة . ثم نادى منادى رسول اللّه ﷺ إلى حمراء الأسد ، فشدت عليها ثيابها فما استطاعت من نزف الدم . ولقد مكثنا ليلتنا نكمد الجراح حتى أصبحنا ،

---

(١) شعوب : اسم من أسماء المنية .

(٢) المصدر نفسه ٢/ ٢٧٩ .

(٣) السيرة النبوية لابن هشام ٢/ ٨٢ .

فلما رجع رسول اللّه ﷺ من الحمراء، ما وصل إلى بيته حتى أرسل إليها عبد اللّه ابن كعب المازنى يسأل عنها، فرجع إليه يخبره بسلامتها، فسر بذلك النبى ﷺ [1] .

٥ ـ وقال أبو رافع ـ مولى رسول اللّه ﷺ : كنت غلاماً للعباس ، وكان الإسلام قد دخلنا أهل البيت ، فأسلم العباس ، وأسلمت أم الفضل وأسلمت ، وكان العباس يكتم إسلامه ، وكان أبو لهب قد تخلف عن بدر ، فلما جاءه الخبر كبته اللّه وأخزاه ، ووجدنا فى أنفسنا قوة وعزّا ، وكنت رجلاً ضعيفاً أعمل الأقداح ، أنحتها فى حجرة زمزم ، فواللّه إنى لجالس فيها أنحت أقداحى ، وعندى أم الفضل جالسة ، وقد سرنا ما جاءنا من الخبر، إذ أقبل أبو لهب يجرّ رجليه بشر حتى جلس على طنب الحجرة ، فكان ظهره إلى ظهرى، فبينا هو جالس إذ قال الناس : هذا أبو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب قد قدم ، فقال له أبو لهب : هلم إلى ، فعندك لعمرى الخبر ، قال : فجلس إليه ، والناس قيام عليه ، فقال : يا بن أخى، أخبرنى كيف كان أمر الناس ؟ قال: ما هو إلا أن لقينا القوم فمنحناهم أكتافنا يقتلوننا كيف شاؤوا ، ويأسروننا كيف شاؤوا . وايم اللّه، مع ذلك ما لمت القوم، لقينا رجالاً بيضاً على خيل بلق بين السماء والأرض ، واللّه ما تليق شيئاً ، ولا يقوم لها شىء ، قال أبو رافع : فرفعت طنب الحجرة بيدى ، ثم قلت : تلك واللّه الملائكة. قال : فرفع أبو لهب يده ، فضرب بها وجهى ضربة شديدة ، فثاورته ، فاحتملنى فضرب بى الأرض ، ثم برك علىَّ يضربنى ، وكنت رجلاً ضعيفاً . فقامت أم الفضل إلى عمود من عمد الحجرة فأخذته فضربته به ضربة فعلت فى رأسه شجة منكرة ، وقالت : استضعفته إن غاب عنه سيده ، فقام موليا ذليلاً ، فواللّه ما عاش إلا سبع ليالٍ حتى رماه اللّه بالعدسة فقتلته ، وهى قرحة تتشاءم بها عرب فتركه بنوه ، وبقى ثلاثة أيام لا تقرب جنازته ، ولا يحاول دفنه ، فلما خافوا السبة فى تركه حفروا له ، ثم دفعوه بعود فى حفرته ، وقذفوه بالحجارة من بعيد حتى واروه [2] .

٦ ـ قال ابن إسحاق : (وحدثنى يحيى بن عباد بن عبد اللّه بن الزبير ، عن أبيه عباد قال: كانت صفية بنت عبد المطلب فى فارع حصن حسان بن ثابت ، وكان حسان بن ثابت معنا فيه مع النساء والصبيان ، قالت صفية : فمر بنا رجل

---

(١) الطبقات الكبرى لابن سعد ٨/ ٤١٣ .

(٢) السيرة النبوية لابن هشام ١/ ٦٤٦ ، ٦٤٧ .

من يهود ، فجعل يطيف بالحصن ، وقد حاربت بنو قريظة ، وقطعت ما بينها وبين رسول الله ﷺ ، وليس بيننا وبينهم أحد يدفع عنا ، ورسول الله ﷺ والمسلمون فى نحور عدوهم ، لا يستطيعون أن ينصرفوا عنهم إلينا إن أتانا آت . قالت : فقلت : يا حسان ، إن هذا اليهودى كما ترى يُطيف بالحصن ، وإنى والله ما آمنه أن يُدل على عوراتنا من وراءنا من يهود ، وقد شغل عنا رسول الله ﷺ وأصحابه فانزل إليه فاقتله ، قال : يغفر لك الله يا ابنة عبد المطلب ، والله لقد عرفت ما أنا بصاحب هذا ؛ قالت : فلما قال لى ذلك ، ولم أر عنده شيئاً ، احتجزت (١) ثم أخذت عموداً ، ثم نزلت من الحصن إليه ، فضربته بالعمود حتى قتلته . قالت : فلما فرغت منه، رجعت إلى الحصن ، فقلت : يا حسان ، انزل إليه فاسلبه ، فإنه لم يمنعنى من سلبه إلا أنه رجل ، قال : مالى بسلبه من حاجة يا ابنة عبد المطلب)(٢) (٣).

ز ـ فى الدعوة إلى الله :

(أخبرنا عفان بن مسلم ، حدثنا حماد بن سلمة ، عن ثابت أن أم سليم قالت : يا أبا طلحة ، ألست تعلم أن إلهك الذى تعبد ، إنما هو شجرة تنبت من الأرض نجرها حبشى بنى فلان ؟ قال : بلى . قالت : أما تستحى تسجد لخشبة تنبت من الأرض نجرها حبشى بنى فلان ؟ قالت : فهل لك أن تشهد أن لا إله إلا الله ، وأن محمداً رسول الله ، وأزوجك نفسى لا أريد منك صداقاً غيره ؟ قال لها : دعينى حتى أنظر . قالت : فذهب فنظر ثم جاء فقال : أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله . قالت : يا أنس ، قم فزوج أبا طلحة) (٤) وكان قد جاءها خاطباً . فما كان لها مهر إلا إسلامه .

---

(١) احتجزت : شددت وسطى . (٢) السيرة النبوية لابن هشام ٢/ ٢٢٨ .

(٣) تشير الرواية إلى أن حسان بن ثابت شاعر رسول الله ﷺ كان جباناً ، وقد أنكر بعض العلماء أن يكون حسان رضي الله عنه جباناً . ولو كان كذلك لهجى من خصومه شعراء قريش وغيرِ بذلك ، وحيث إن الحديث جاء بسند متصل حسن فاعتضد حديث ابن إسحاق . فعلل الأمر بأن حساناً كان فى ذلك الوقت معتلاً بعلة منعته من شهود القتال ، مع أن الخوف يوم الأحزاب كان عاماً فى المسلمين ، كما يقول الله تعالى : ﴿ وإذْ زاغت الأبْصارُ وبلغت القُلُوبُ الْحَنَاجرَ وتظُنُّونَ بالله الظُّنونَا . هُنالك ابْتُلي الْمُؤْمنُون وزُلْزلُوا زلْزالا شديدا ﴾ وما قصة حذيفة عنا بعيدة .

(٤) الطبقات الكبرى لابن سعد ٨ / ٤٢٧ .

السمة الثالثة والعشرون
عبقرية التخطيط القيادى

إننا ونحن نستعمل هذا التعبير عن العبقرية ، لا يغيب عن ذهننا أننا أمام رسول رب العالمين الموحى إليه: ﴿ قُلْ إِنَّما أنا بشرٌ مِثْلُكُمْ يُوحىٰ إِلَي ... ﴾ [الكهف : ١١٠] ، وأنه مسدد من ربه : ﴿ وما ينطقُ عَنِ الْهوىٰ . إِنْ هُوَ إِلاَّ وحْيٌ يُوحى ... ﴾ [النجم : ٣ ، ٤] . لكننا فى الوقت نفسه نعتقد أن محمداً رسول اللّه هو سيد ولد آدم وهو خير البشر ، فإذا كان فى البشر عباقرة فهو سيدهم بلا منازع ، ولقد استعمل رسول اللّه ﷺ هذا اللفظ بحق عمر رضي الله عنه : «فلم أرَ عبقريًا ينزع نزع عمر حتى ضرب الناس بعطن ... » (١) . ولابد من الإشارة إلى أننا نخطئ بحق رسول اللّه ﷺ كثيراً يوم نقدمه للناس على أنه آلة تلق من اللّه تعالى فقط . واللّه تعالى يختار خير خلقه لأداء رسالته ويكون عندهم من الذكاء والحلم والعبقرية ما لا يوجد عند غيرهم ، أو يفوقهم على الأقل : ﴿ وإِذا جاءتْهُمْ آيةٌ قالُوا لَن نُّؤْمِنَ حتَّىٰ نُؤْتىٰ مِثْلَ ما أُوتِيَ رُسُلُ اللَّهِ اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسالَتَهُ سيُصيبُ الَّذين أَجْرَمُوا صَغارٌ عند اللَّهِ وعَذابٌ شديدٌ بما كانُوا يَمْكُرُون ﴾ [الأنعام : ١٢٤] .

كما أننا لابد أن نوضح فكرة مهمة حين نتحدث عن جانب من هذه الجوانب. هذه الفكرة هى جانب القدوة البشرية ، وهو الذى يستطيع البشر أن يقتدوا به . أما جانب الوحى ، فقد انتهى مع النبى عليه الصلاة والسلام ، ومن أجل هذا اختار اللّه تعالى لرسالته بشراً يمكن أن يقتدى به ، ولم يختر ملكاً .

﴿ وما مَنَعَ النَّاسَ أَن يُؤْمِنُوا إِذْ جاءَهُمُ الْهُدىٰ إِلاَّ أَن قالُوا أَبَعَثَ اللَّهُ بَشَراً رَّسُولاً . قُل لَّوْ كانَ في الأَرْضِ مَلائِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنا عَلَيْهِم مِّنَ السَّماءِ مَلَكاً رَّسُولا ﴾

[الإسراء: ٩٤، ٩٥]

فكثيراً ما يفاجأ الدعاة مع الناس إذا ذكروا له شيئاً عن رسول الله ﷺ أن يقول هؤلاء الناس : هذا رسول اللّه ، ونحن لسنا رسلاً ، إنها كلمة حق أريد بها باطل ، يريدون أن يتنصلوا من المسؤولية ، ويتحرروا من التطبيق العملى للإسلام

(١) رواه البخارى ٥ / ٧ .

تحت هذا الستار . حقاً إنه رسول الله ، وحقاً إنه القدوة والأسوة . ﴿ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيراً ﴾

[الأحزاب : ٢١]

وإذا كنا نعالج فى هذه السمة الجانب البشرى عند رسول الله ﷺ وجهده فى حرب عدوه ، وتخطيطه فى الانتصار عليه ، فستكون السمة التالية ، مكان الحديث عن المعجزات الإلهية التى رافقت هذه الدعوة ، وحققت نصر الله بهذه الفئة المؤمنة . وبذلك نقتدى فى الجانب البشرى حتى ننال العون الإلهى ، والكرامة الربانية التى تعطى لأولياء الله تعالى ، كما تعطى المعجزات للأنبياء والرسل المصطفين منه سبحانه .

أ ـ قوة المخابرات النبوية :

لو وقفنا أمام السرايا والبعوث والغزوات فى هذه المرحلة لأذهلتنا قوة المخابرات النبوية بصورة يكاد التاريخ لا يشهد لها مثيلاً ، وذلك من خلال التقرير التالى :

١ ـ كانت أول سرية بعثها الرسول ﷺ فى المدينة لحمزة بن عبد المطلب إلى سيف البحر لأنه قد بلغه أن عيراً لقريش تمر من هناك،وذلك على رأس سبعة أشهر من الهجرة .

٢ ـ ثم كانت سرية عبيدة بن الحارث ليفاجئ المشركين على ماء يقال له : أحياء من بطن رابغ ، وكان على رأسهم أبو سفيان بن حرب أو عكرمة فى مائتين منهم .

٣ ـ ثم كانت سرية سعد بن أبى وقاص على رأس تسعة أشهر تعترض عيراً لقريش عند الجحفة قريباً من خمّ ففاتتهم ، بينما لم تفت المسلمين العير فى السريتين السابقتين .

٤ ـ ثم غزا رسول الله ﷺ ودّان ـ وهو جبل بين مكة والمدينة ـ على رأس أحد عشر شهراً يعترض عيراً لقريش .

٥ ـ ثم كانت غزوة بواط على رأس ثلاثة عشر شهراً يعترض عيراً لقريش فيها أمية بن خلف .

٦ ـ ثم غزا غزوة العشيرة على رأس ستة عشر شهراً يعترض عيراً لقريش حين خرجت إلى الشام ، وهذه العير هى التى خرج فى طلبها لما عادت وكانت وقعة بدر .

٧ ـ ثم كانت سرية عبد الله بن جحش ﷺ إلى بطن نخلة ـ وهو بستان ابن عامر الذى بقرب مكة ـ فى رجب على رأس سبعة عشر شهراً ، فوجد عيراً لقريش فيها عمرو بن الحضرمى واستاقوا العير،وكانت محملة خمراً وأدماً وزبيباً وقدموا بها على النبى ﷺ .

٨ ـ ثم كانت غزوة بدر الكبرى ، وهى فى الأصل لاعتراض عير قريش وهى قادمة من الشام ، وشاءت إرادة الله تعالى أن تفوت القافلة ، وتكون ذات الشوكة للمسلمين (١) .

فهذه النماذج الثمانية صورة حية ليقظة عيون النبى ﷺ التى ترصد تحركات العدو فى المنطقة ، بل كانت مخابراته تنقل إليه لحظة الخروج من مكة ، ولحظة القفول من الشام .

٩ ـ وخرج رسول الله ﷺ بنفسه مع بعض أصحابه يتعرف على أخبار قريش والقافلة (فلقى سفيان الضمرى فقال رسول الله ﷺ : « من الرجل ؟ » فقال : بل من أنتم ؟ قال رسول الله ﷺ : « فأخبرنا ونخبرك » ، قال : وذاك بذاك ، قال النبى ﷺ : « نعم » ، قال : سلوا عما شئتم ، فقال رسول الله ﷺ : «فأخبرنا عن قريش » ، فقال : بلغنى أنهم خرجوا فى يوم كذا وكذا من مكة ، فإن كان الذى أخبرنى صادقاً فهم اليوم بمكان كذا وكذا ـ أو فإنهم بجنب هذا الوادى . قال رسول الله ﷺ :« فأخبرنا عن محمد وأصحابه»، قال : خبرت أنهم خرجوا من يثرب يوم كذا وكذا ، فإن كان الذى أخبرنى صادقاً فهم بجانب هذا الوادى، قال الضمرى: فمن أنتم ؟ قال النبى ﷺ: « نحن من ماء »؛ وأشار بيده نحو العراق ، فقال : ما من ماء ! أمن ماء العراق ؟ ثم انصرف رسول الله ﷺ إلى أصحابه ، ولا يعلم واحد من الفريقين بمنزل صاحبه ، بينهم قوز من رمل (٢) .

---

(١) ملخصة من إمتاع الأسماع للمقريزى ١/ ٥١ ـ ٦٠ .

(٢) القوز : الكثيب المشرف المستدير من الرمل .

ومضى فلقيه بسبس وعدى بن أبى الزعباء فأخبراه خبر العير ، ونزل النبى ﷺ أدنى بدر عشاء ليلة الجمعة لسبع عشرة مضت من رمضان ، فبعث علياً والزبير وسعد بن أبى وقاص وبسبس بن عمرو رضي الله عنهم يتحسسون[1] على الماء، وأشار لهم إلى ظريب[2] ، وقال : أرجو أن تجدوا الخبر عند هذا القليب [3] الذى يلى الظرب . فوجدوا على تلك القليب روايا قريش فيها سقاؤهم ، فأفلت عامتهم وفيهم عجير ، فجاء قريشاً فقال : يا آل غالب ، هذا ابن أبى كبشة وأصحابه قد أخذوا سقاءكم ، فماج العسكر وكرهوا ذلك ، والسماء تمطر عليهم ، وأُخذ تلك الليلة أبو يسار، غلام عبيدة بن سعيد بن العاص ، وأسلم غلام منبِّه بن الحجاج، وأبو رافع غلام أمية بن خلف ، فأتى بهم النبى ﷺ وهو يصلى فقالوا : نحن سقاة قريش بعثونا نسقيهم من الماء ، فكره القوم خبرهم فضربوهم ، فقالوا : نحن لأبى سفيان ، ونحن فى العير ؛ فأمسكوا عنهم . فسلم رسول الله ﷺ وقال : « إن صدقوكم ضربتموهم ، وإن كذبوكم تركتموهم » ، ثم أقبل عليهم يسألهم ، فأخبروه أن قريشاً خلف هذا الكثيب ، وأنهم ينحرون يوماً عشراً ويوماً تسعاً، وأعلموه بمن خرج من مكة، فقال ﷺ: « القوم بين الألف والتسعمائة » ، قال : « هذه مكة قد ألقت إليكم أفلاذ أكبادها ») [4] .

فها هى المخابرات النبوية فى بدر تكشف موقع العدو ، وعدده وعدته قبل الدخول فى المعركة والحوادث المذكورة بإيحاءاتها غنية عن أى تعليق .

١٠ ـ ثم كانت غزوة قرارة الكُدْر ، وذلك أنه بلغه أن بقرارة الكدر جمعاً من غطفان وسُليم ، فأخذ عليهم الطريق فلم يجد أحداً ، فأرسل فى أعلى الوادى نفراً من أصحابه ، واستقبلهم فى بطن الوادى فوجد رعاء فيها غلام يقال له : يسار ، فسألهم فأخبره يسار أن الناس ارتفعوا إلى المياه ، فانصرف وقد ظفر بالنعم يريد المدينة [5] .

١١ ـ أما غزوة أحد ، فقد كتب العباس بن عبد المطلب إلى رسول الله ﷺ من مكة كتاباً مع رجل من بنى غفار يخبره بذلك، فقدم عليه وهو بقباء فقرأه عليه

---

(١) يتحسسون : يتجسسون .

(٢) ظريب : تصغير ظرب ، وهو الجبل المنبسط فى حجارة دقاق .

(٣) القليب : البئر القديمة التى لا يعلم لها حافر .

(٤) إمتاع الأسماع ١/ ٧٦ ، ٧٧ .

(٥) المصدر نفسه ١ / ١٠٧ .

أبىّ بن كعب واستكتم أبيّا ، ونزل رسول الله ﷺ على سعد بن الربيع فأخبره بكتاب العباس فقال : « والله إنى لأرجو أن يكون فى ذلك خير » ، وقد أرجفت اليهود [1] والمنافقون وشاع الخبر. وقدم عمرو بن سالم الخزاعى فى نفر وقد فارقوا قريشاً من ذى طوى ، فأخبر النبى ﷺ وانصرفوا . . . وبعث رسول الله ﷺ أنساً ومؤنساً ابنى فضالة ليلة الخميس عينين ، فاعترضا لقريش بالعقيق ، وعادا إلى النبى ﷺ فأخبراه ، ونزل المشركون ظاهر المدينة يوم الأربعاء، فرعت إبلهم آثار الحرث والزرع يوم الخميس ويوم الجمعة حتى لم يتركوا خضراء ، وبعث رسول الله ﷺ الحباب بن المنذر بن الجموح فنظر إليهم وعاد وقد حزر عددهم وما معهم ، فقال ﷺ : « لا تذكروا من شأنهم حرفاً ، حسبنا الله ونعم الوكيل ، اللهم بك أجول وبك أصول » [2] .

١٢ ـ أما عن الخندق : كانت خزاعة عندما خرجت من مكة : أتى ركبهم رسول الله ﷺ ـ فى أربع ليال ـ حتى أخبروه ، فندب الناس وأخبرهم خبر عددهم .

نكتفى بهذا القدر من النماذج لنؤكد هذا المعنى الكبير ، من أن رسول الله ﷺ كان أشد ما يكون حذراً ويقظة وتعرفاً على أخبار عدوه ، مع الإشارة إلى أن الأخبار التى كانت تأتى إليه لم يكن أى خبر منها غير صادق ، بغض النظر عن تحقيق الهدف من الغزوة أو عدم تحقيقه ، ولا نذكر فى هذه المرحلة أن المسلمين غزوا بشكل مفاجئ إلا مرتين :

الأولى : عندما أغار كرز بن جابر الفهرى على سرح المدينة قبل بدر .

الثانية : عندما نزل أبو سفيان سرّاً مع عدد من المشركين على سلام بن مشكم اليهودى، وعرف منه أخبار الرسول عليه الصلاة والسلام . ووجد رجلاً من الأنصار فى حرث فقتله وأجيره ، وحرق بيتين بالعُريض ، وحرَّق حرثاً لهم وذهب .

ولقد ظهرت خطورة هذه القضية تماماً مع تجربة بعض فصائل الحركة

---

(١) معرفة اليهود والمنافقين بالخبر سبقه أن أبا عامر الفاسق قد خرج فى خمسين رجلاً من المدينة إلى مكة وحرض قريشاً على الحرب ، وسار معها إلى أحد .

(٢) إمتاع الأسماع ١ / ١١٥ .

الإسلامية مع أعدائها ، فضعف المخابرات لديها أمكن أن تشتعل المعركة دون علم القيادة ، مما نشأ عنه أكبر محنة للحركة راح ضحيتها عشرات الألوف نتيجة المعلومات الخاطئة التي وصلت للإخوة المجاهدين في الداخل ، ولعل ما شهدناه من عظمة المخابرات النبوية يدفعنا إلى أن نعطى هذا الموضوع حقه ، ونوفيه أهميته؛ لأن الحركة الإسلامية حين تفقد قوة المخابرات والأمن لديها إنما تفقد شريانها الرئيسى الذى تعيش منه،وحين لا تكون المعلومات صادقة وأمينة من عيونها ، فإنما تنحر نفسها بيدها ، إنه درس قاس ولا شك ، ولكنه التمحيص والعقوبة والابتلاء .

ب ـ الغزو لمن يريد الغزو :

وهى قضية ذات صلة وثيقة بالفقرة الأولى ، بأن تفاجئ العدو فتضربه وهو يعد لضربك ، وقد تم هذا الأمر فى التخطيط النبوى مرات عديدة نذكر منها :

١ ـ كانت غزوة ذى أَمَر بنجد ، بعد بدر ، وذلك أنه بلغه أن جمعاً من بنى ثعلبة من غطفان وبنى محارب قد تجمعوا يريدون أن يصيبوا من أطرافه ﷺ ، جمعهم دعثور بن محارب ، فأصاب رسول الله ﷺ رجلاً منهم بذى القصة ، وسار معهم يدلهم على عورات القوم حتى أهبطهم من كثيب فهربت الأعراب فوق الجبال .

٢ ـ وغزوة بنى سُليم بالفرع لم تكن إلا لفض تجمع منهم كان يريد غزو المدينة .

٣ ـ وغزوة ذات الرقاع بعد أحد كانت بناءً على إخبارية جاءت إلى المدينة تقول : إن بنى أنمار بن بغيض وبنى سعد بن ثعلبة قد جمعوا لحرب المسلمين ، فخرج رسول الله ﷺ فى أربعمائة ثم قدم محالَّهم وقد ذهبوا إلى رؤوس الجبال .

٤ ـ أما سرية أبى سلمة ، فقد نقلت استخبارات المدينة أن طلحة وسلمة ابنى خويلد قد سارا فى قومهما ومن أطاعهما ، يدعون بنى أسد بن خزيمة إلى حرب رسول الله ﷺ ، وباغت أبو سلمة بنى أسد فى ديارهم قبل أن يقوموا بغارتهم فتشتتوا فى الأمر .

٥ ـ وما مقتل خالد بن سفيان الهذلى إلا لأن الاستخبارات قد نقلت إلى

رسول الله ﷺ أنه يحشد الجموع لحرب المسلمين ، فأرسل النبى ﷺ عبد الله بن أنيس ليقضى عليه ، علماً بأن خالداً كان يجمع الجموع قرب مكة .

وبذلك حطَّم رسول الله ﷺ كل قوة تفكر مجرد تفكير فى غزو المدينة ، وألقى الرعب فى قلوب المجاورين لهذه القوى، دون أن يؤخذ على غرة من أحد، ويوفر على نفسه كثيراً من الخسائر المادية والمعنوية ، التى كانت ستقع لو تماهل شيئاً طفيفاً فى تحرى حركات العدو ، أو ضرب تجمعاته . إن على الحركة الإسلامية اليوم اقتداء برسول الله ﷺ أن تكون على خبرة عميقة بطبيعة أعدائها، وطبيعة تحركاتهم وتخطيطهم ، وأن تبث عيونها فى صفوفهم بحيث لا يفوتها شاردة ولا واردة من اتجاههم ومخططاتهم،وأن تواجه هذه المخططات قبل التنفيذ، وتضربها وهى فى دور الإعداد لتكون قادرة على الصمود والاستمرار . إنه الجهد البشرى المطلوب فى عالم الأسباب ، ونود أن يتعرف شباب الدعوة على هذا المعنى تماماً .

صحيح أن النصر بيد الله عز وجل يؤتيه من يشاء ، ولكن الله تعالى لا يرضى لدعوته أن تكون تجمعاً من المتواكلين ، وتشرذماً من القاعدين ، وأن تعمل الحركات المعادية لدنياها ولالتحام صفها خيراً مما تفعله الحركة الإسلامية فى ذلك ، والصف المؤمن المتراص الموحد اليقظ ، المبادر الدؤوب هو الذى تتحقق فيه مواصفات النصر من الله عز وجل ، أما أن نتخاذل عن كل شىء ، ثم نقول : لماذا لا ينصرنا الله ؟ فهو مخالف لسنة الله فى النصر ﴿ **قد خلت من قبلكم سنن فسيروا في الأرض فانظروا كيف كان عاقبة المكذبين** ﴾ [آل عمران : ١٣٧] .

جـ ـ العهود مع الجوار :

وهو من جملة التخطيط النبوى القيادى ، أن يقيم رسول الله ﷺ معاهدات حسن جوار وتحالف مع القبائل المجاورة بحيث يوحد الجبهة المقاتلة ، ولم تنقض هذه المعاهدات إلا على النادر ، وفى الأحوال التى يشعر فيها المعاهدون بضعف شوكة النبى ﷺ ، وقد استوفيت هذه الفقرة الحديث من قبل فى بداية العهد المدنى .

د ـ مهاجمة طريق العراق :

ولم يكتف عليه الصلاة والسلام بقطع طريق قوافل قريش من المدينة ، بل

راحت القوات الإسلامية تطارد قريشا وقوافلها فى الطرق الثانية الطويلة التى اختارتها قريش هرباً من ملاحقة محمد ﷺ لها .

فقد (كانت سرية زيد بن حارثة إلى القَرَدَة ، وهى أول سرية خرج فيها زيد أميراً يريد صفوان بن أمية ، وقد نكب عن الطريق وسلك على جهة العراق يريد الشام بتجارة فيها أموال لقريش، خوفاً من رسول الله ﷺ أن يعترضها ، فقدم نعيم بن مسعود الأشجعى على كنانة بن أبى الحقيق فى بنى النضير فشرب معه ، ومعهم سليط بن النعمان يشرب ، ولم تكن الخمر حرمت، فذكر نُعيم خروج صفوان فى عيره وما معهم من الأموال ، فخرج «سليط» من ساعته وأخبر النبى ﷺ ، فأرسل زيد بن حارثة فى مائة راكب ، فأصابوا العير وأَفْلَتَ أعيان القوم، فقدموا بالعير فخمَّسها رسول الله ﷺ فبلغ الخمس عشرين ألف درهم، وقسم ما باقى على أهل السرية ، وكان فيمن أسر فرات بن حيان فأسلم) (١) .

هـ ـ ثبات أحد وتحويل الهزيمة إلى نصر :

وندع هذا الوصف للمباركفورى على صورة مقتطفات سريعة ، وإيضاحات أخرى يقتضيها الموقف :

خالد بن الوليد يقوم بخطة تطويق الجيش :

وانتهز خالد بن الوليد هذه الفرصة الذهبية ـ خلوّ الجبل من الرماة ـ فاستدار بسرعة خاطفة حتى وصل إلى مؤخرة الجيش الإسلامى. فلم يلبث أن أباد عبد الله ابن جبير وأصحابه ، ثم انقض على المسلمين من خلفهم ، وصاح فرسانه صيحة عرف المشركون المنهزمون بالتطور الجديد فانقلبوا على المسلمين ، وأسرعت امرأة منهم ـ وهى عمرة بنت علقمة الحارثية ـ فرفعت لواء المشركين المطروح على التراب، فالتف حوله المشركون ولاثوا به ، وتنادى بعضهم بعضاً ، حتى اجتمعوا على المسلمين وثبتوا للقتال ، وأحيط المسلمون من الأمام والخلف ووقعوا بين شقى الرحى .

موقف الرسول الباسل إزاء عمل التطويق :

وكان رسول الله ﷺ حينئذ فى مفرزة صغيرة ـ تسعة نفر من أصحابه ـ فى

---

(١) السيرة لابن هشام ٢ / ٥٠ .

مؤخرة المسلمين ، كان يرقب مجالدة المسلمين ومطاردتهم المشركين ، إذ بوغت بفرسان خالد مباغتة كاملة ، فكان أمامه طريقان ، إما أن ينجو ـ بالسرعة ـ بنفسه وبأصحابه التسعة إلى ملجأ مأمون ، ويترك جيشه المطوق إلى مصيره المقدور ، وإما أن يخاطر بنفسه فيدعو أصحابه ليجمعهم حوله ، ويتخذ بهم جبهة قوية يشق بها الطريق لجيشه المطوق إلى هضاب أحد .

وهنالك تجلت عبقرية الرسول ﷺ الفذة ، وشجاعته المنقطعة النظير ، فقد رفع صوته ينادى أصحابه : « عباد الله » ، وهو يعرف أن المشركين سوف يسمعون صوته قبل أن يسمعه المسلمون، ولكنه ناداهم ودعاهم مخاطراً بنفسه فى هذا الظرف الدقيق ، وفعلاً فقد علم به المشركون فخلصوا إليه قبل أن يصل إليه المسلمون .

تبدد المسلمين فى الموقف :

أما المسلمون فلما وقعوا فى التطويق طار صواب طائفة منهم ، فلم تكن تهمها إلا أنفسها ، فقد أخذت طريق الفرار ، وتركت ساحة القتال ، وهى لا تدرى ماذا وراءها . وفر من هذه الطائفة بعضهم إلى المدينة حتى دخلها ، وانطلق بعضهم إلى فوق الجبل ، ورجعت طائفة أخرى فاختلطت بالمشركين ، والتبس العسكران ، فلم يتميزوا فوقع القتل فى المسلمين بعضهم من بعض . روى البخارى عن عائشة قالت : (لما كان يوم أحد هزم المشركون هزيمة بينة ، فصاح إبليس : أى عباد الله أخراكم ـ أى احترزوا من ورائكم ـ فرجعت أولاهم فاجتلدت هى وأخراهم، فبصر حذيفة، فإذا هو بأبيه اليمان، فقال : أى عباد الله أبى أبى . قالت : فوالله ما احتجزوا عنه حتى قتلوه ، فقال حذيفة : يغفر الله لكم. قال عروة : فوالله ما زالت فى حذيفة بقية خير حتى لحق بالله) [1] .

وهذه الطائفة حدث داخل صفوفها ارتباك شديد ، وعمتها الفوضى ، وتاه منها الكثيرون ، لا يدرون أين يتوجهون ، وبينما هم كذلك إذ سمعوا صائحاً يصيح : إن محمداً قد قتل، فطارت بقية صوابهم، وانهارت الروح المعنوية أو كادت تنهار فى نفوس كثير من أفرادها ، فتوقف من توقف منهم عن القتال ، وألقى بأسلحته مستكيناً ، وفكر آخرون فى الاتصال بعبد الله بن أبى ـ رأس المنافقين ـ ليأخذ لهم الأمان من أبى سفيان .

---

(١) صحيح البخارى ٢ / ٥ / ١٢٥ .

احتدام القتال حول رسول الله ﷺ :

وبينما كانت تلك الطوائف تتلقى أواصر التطويق ، تطحن بين شقى رحى المشركين ، كان العراك محتدماً حول رسول الله ﷺ ، وقد ذكرنا أن المشركين لما بدؤوا عمل التطويق لم يكن مع رسول الله ﷺ إلا تسعة نفر ، فلما نادى المسلمين : « هلم إلىّ ، أنا رسول الله » ، سمع صوته المشركون وعرفوه فكروا إليه وهاجموه ، ومالوا إليه بثقلهم قبل أن يرجع إليه أحد من جيش المسلمين ، فجرى بين المشركين وبين هؤلاء النفر التسعة من الصحابة عراك عنيف ظهرت فيه نوادر الحب والتفانى والبسالة والبطولة .

(روى مسلم عن أنس بن مالك أن رسول الله ﷺ أفرد يوم أحد فى سبعة من الأنصار، ورجلين من قريش، فلما رهقوه قال: « من يردهم عنا وله الجنة؟ » أو « هو رفيقى فى الجنة » ، فتقدم رجل من الأنصار فقاتل حتى قتل، ثم رهقوه أيضاً فلم يزل كذلك حتى قتل السبعة ، فقال رسول الله ﷺ لصاحبيه ـ أى القرشيين: « ما أنصفنا أصحابنا » [1] . وكان آخر هؤلاء السبعة هو عمارة بن يزيد ابن السكن ، قاتل حتى أثبتته الجراحة فسقط .

أحرج ساعة فى حياة الرسول ﷺ :

وبعد سقوط ابن السكن بقى الرسول ﷺ فى القرشيين فقط . ففى الصحيحين عن أبى عثمان قال : (لم يبق مع النبى ﷺ فى بعض تلك الأيام التى يقاتل فيهن غير طلحة بن عبيد الله وسعد بن أبى وقاص) [2] ، وكانت أحرج ساعة بالنسبة إلى حياة النبى ﷺ وفرصة ذهبية بالنسبة للمشركين ، ولم يتوان المشركون فى انتهاز تلك الفرصة ، فقد ركزوا حملتهم على النبى ﷺ وطمعوا فى القضاء عليه . . . ولا شك أن المشركين كانوا يهدفون القضاء على حياة رسول الله ﷺ، إلا أن القرشيين سعد بن أبى وقاص وطلحة بن عبيد الله قاما ببطولة نادرة، وقاتلا ببسالة منقطعة النظير حتى لم يتركا ـ وهما اثنان فحسب ـ سبيلاً إلى نجاح المشركين فى هدفهم ، وكانا من أمهر رماة العرب ، فتناضلا حتى أجهضا مفرزة المشركين عن رسول الله ﷺ. فأما سعد بن أبى وقاص فقد نثل له رسول الله ﷺ

---

(١) صحيح مسلم ٣ / ١٤١٥ ح (١٧٨٩/ ١٠٠) . (٢) صحيح البخارى ٢ / ٥ / ١٢٤ .

كنانته وقال: « ارم سعد فداك أبى وأمى » . ويدل على مدى كفاءته أن النبى ﷺ لم يجمع أبويه لأحد غير سعد ، وأما طلحة بن عبيد الله فقد روى النسائى عن جابر قصة تجمع المشركين حول رسول الله ﷺ ومعه نفر من الأنصار، قال جابر: (فأدرك المشركون رسول الله ﷺ فقال : « من للقوم ؟ » فقال طلحة : أنا ، ثم ذكر جابر تقدم الأنصار وقتلهم واحداً بعد واحد بنحو ما ذكرنا من رواية مسلم، فلما قتل الأنصار كلهم تقدم طلحة، قال جابر : ثم قاتل طلحة قتال الأحد عشر حتى ضربت يده فقطعت أصابعه ، فقال : حس ، فقال النبى ﷺ : « لو قلت : بسم الله لرفعتك الملائكة والناس ينظرون » ، قال : ثم رد الله المشركين)[1] ، ووقع عند الحاكم فى الإكليل: أنه جرح يوم أحد تسعاً وثلاثين أو خمساً وثلاثين ، وشلت إصبعه ، أى السبابة والتى تليها .

وروى البخارى عن قيس بن أبى حازم قال: (رأيت يد طلحة شلاء، وقى بها النبى ﷺ يوم أحد)[2] . وروى الترمذى أن النبى ﷺ قال فيه يومئذٍ : « من سره أن ينظر إلى شهيد يمشى على وجه الأرض فلينظر إلى طلحة بن عبيد الله»[3]. وروى أبو داود الطيالسى عن عائشة قالت : كان أبو بكر إذا ذكر يوم أحد قال : ذلك اليوم كله لطلحة . وقال فيه أبو بكر أيضاً:

يا طلحة بن عبيد الله قد وجبت لك الجنان وبوئت المها العينا

وفى ذلك الظرف الدقيق والساعة الحرجة أنزل الله نصره بالغيب، ففى الصحيحين عن سعد قال : (رأيت رسول الله ﷺ يوم أحد ، ومعه رجلان يقاتلان معه [4] عليهما ثياب بيض ، كأشد القتال، ما رأيتهما قبل ولا بعد)[5] ، وفى رواية : يعنى جبريل وميكائيل .

بداية تجمع الصحابة حول رسول الله ﷺ :

وقعت هذه كلها بسرعة هائلة فى لحظات خاطفة وإلا فالمصطفون الأخيار من صحابته ﷺ ـ الذين كانوا فى مقدمة صفوف المسلمين عند القتال ـ لم يكادوا

---

(١) سنن النسائى ٣ / ٦ / ٢٩ باب ما يقول من يطعنه العدو .

(٢) صحيح البخارى ٢ / ٥ / ١٢٥ . (٣) سنن الترمذى ٥ / ٦٤٤ ح ٣٧٣٩ .

(٤) كان هذا فى اللحظة التى سقط فيها طلحة جريحاً ، ولم يبق حول رسول الله ﷺ إلا قرشى واحد هو سعد ابن أبى وقاص راوى الحديث .

(٥) صحيح البخارى ٢ / ٥ / ١٢٤ .

يرون تطور الموقف أو يسمعون صوته ﷺ حتى أسرعوا إليه لئلا يصل إليه شيء يكرهونه . . . إلا أنهم وصلوا وقد لقى رسول الله ﷺ ما لقى من الجراحات ، وستة من الأنصار قد قتلوا ، والسابع قد أثبتته الجراحات. فقد روى ابن حبان فى صحيحه عن عائشة قالت : قال أبو بكر الصديق: لما كان يوم أحد انصرف الناس كلهم عن النبى ﷺ ، فكنت أول من فاء إلى النبى ﷺ ، فرأيت بين يديه رجلا يقاتل عنه ويحميه ، قلت : كن طلحة ، فداك أبى وأمى ، كن طلحة ، فداك أبى وأمى، فلم أنشب أن أدركنى أبو عبيدة بن الجراح،وإذا هو يشتد كأنه طير حتى لحقنى ، فدفعنا إلى النبى ﷺ ، فإذا طلحة بين يديه صريعاً ، فقال النبى ﷺ : «دونكم أخاكم فقد أوجب » . وقد رُمِى النبى ﷺ فى وجنته حتى غابت حلقتان من حلق المغفر فى وجنته، فذهبت لأنزعهما عن النبى ﷺ فقال أبو عبيدة: نشدتك الله يا أبا بكر إلا تركتنى ، قال : فأخذ بفيه فجعل ينضضه كراهة أن يؤذى رسول الله ﷺ، ثم استل السهم بفيه فندرت ثنية أبى عبيدة ، قال أبو بكر: ثم ذهبت لآخذ الآخر فقال أبو عبيدة : نشدتك الله يا أبا بكر إلا تركتنى . قال : فأخذه فجعل ينضضه حتى استله ، فندرت ثنية أبى عبيدة الأخرى ، ثم قال رسول الله ﷺ : « دونكم أخاكم فقد أوجب » ، قال : فأقبلنا على طلحة نعالجه ، وقد أصابته بضع عشرة ضربة .

وخلال هذه اللحظات الحرجة اجتمع حول النبى ﷺ عصابة من أبطال المسلمين منهم : أبو دجانة ، ومصعب بن عمير ، وعلى بن أبى طالب ، وسهل ابن حنيف ، ومالك بن سنان والد أبى سعيد الخدرى ، وأم عمارة نسيبة بنت كعب المازنية وزوجها وولداها ،وقتادة بن النعمان، وعمر بن الخطاب، وحاطب ابن أبى بلتعة ، وأبو طلحة .

تضاعف ضغط المشركين :

كما كان عدد المشركين يتضاعف كل آن ، وبالطبع فقد اشتدت حملاتهم وزاد ضغطهم على المسلمين ، حتى سقط رسول الله ﷺ فى حفرة من الحفر التى كان أبو عامر الفاسق يكيد بها،فجحشت ركبته وأخذ على بيده، واحتضنه طلحة بن عبيد الله حتى استوى قائما. وقال نافع بن جبير: سمعت رجلاً من المهاجرين يقول: شهدت أحداً فنظرت إلى النبل يأتى من كل ناحية ورسول الله ﷺ وسطها

كل ذلك يصرف عنه، ولقد رأيت عبد الله بن شهاب الزهرى يقول يومئذ : دلونى على محمد ، فلا نجوت إن نجا ، ورسول الله ﷺ إلى جنبه ما معه أحد ، ثم جاوزه ، فعاتبه فى ذلك صفوان ، فقال : والله ما رأيته ، أحلف بالله إنه منا ممنوع .

المتعاقدون على قتل رسول الله ﷺ :

وكان أربعة من قريش قد تعاقدوا وتعاهدوا على قتل رسول الله ﷺ، وعرفهم المشركون بذلك ، وهم : عبد الله بن شهاب الزهرى ، وعتبة بن أبى وقاص[1] ، وعمرو بن قميئة ، وأبى بن خلف ـ وزاد بعضهم عبد الله بن حميد بن زهير ـ ورمى عتبة يومئذ رسول الله ﷺ بأربعة أحجار فكسر رباعيته أشظى باطنها اليمنى السفلى . وأقبل ابن قميئة وهو يقول : دلونى على محمد ، فوالذى يحلف به لئن رأيته لأقتلنه ، فعلاه بالسيف ، ورماه عتبة بن أبى وقاص مع تجليل السيف ، وكان عليه درعان ، فوقع ﷺ فى الحفرة التى أمامه على جنبه فجحشت ركبتاه ، ولم يصنع سيف ابن قميئة شيئاً إلا وهن الضربة بثقل السيف، فقد وقع لها ﷺ وانتهض، وطلحة يحمله من ورائه ، وعلى آخذ بيده حتى استوى قائماً . ورمى ابن قميئة بسهم فأصاب مصعب بن عمير رضي الله عنه فقتله ، فقال ﷺ : « ماله ، أقمأه الله [2] ؟ » ، ورجع عدو الله إلى قومه فأخبرهم أنه قتل رسول الله ، فعمد ـ بعد المعركة ـ إلى شاة يحتلبها فنطحته بقرونها وهو معتقلها فقتلته فوجد ميتاً بين الجبال [3] .

وأقبل عبد الله بن حميد بن زهير حين رأى رسول الله على تلك الحال ، يُركض فرسه مقنعاً فى الحديد يقول : أنا ابن زهير ! دلونى على محمد ، فوالله لأقتلنه أو أموتن دونه . فقال له أبو دجانة : هلم إلى من يقى نفس محمد بنفسه، وضرب فرسه فعرقبها ثم علاه بالسيف فقتله ورسول الله ﷺ ينظر إليه

---

(١) إنها معجزات العقيدة أن يتعاقد عتبة بن أبى وقاص على قتل محمد رسول الله ﷺ ، ويرمى الرسول بأحجاره ، بينما كان أخوه سعد بن أبى وقاص أحد الذين بقوا بجوار الرسول ﷺ يحميه ويذود عنه ، ولم يتغيب عن الذود عنه لحظة واحدة ، بل كان أشد ما يكون حرصاً على قتل أخيه عتبة غير أن أجله كان على غير يده .

(٢) وهو الذى صاح بقتل محمد حين حسب مصعباً رسولَ الله ﷺ .

(٣) إمتاع الأسماع للمقريزى ١ / ١٣٦ .

ويقول : « اللهم ارض عن أبى خرشة كما أنا عنه راضٍ » [1] .

وأقبل يومئذ أبى بن خلف يركض فرسه فجعل يصيح بأعلى صوته : يا محمد ، لا نجوتُ إن نجوتَ ، فقال القوم : يا رسول الله ، ما كنت صانعاً حين يغشاك ، فقد جاءك ، وإن شئت عطف عليه بعضنا ، فأبى ﷺ ، ودنا أبى، فتناول النبى ﷺ الحربة من الحارث بن الصمة ، ويقال : الزبير بن العوام ، ثم انتفض بأصحابه كما ينتفض البعير فتطاير عنه أصحابه ـ ولم يكن أحد يشبه رسول الله ﷺ إذا جد الجد ـ ثم أخذ الحربة فطعنه بها فى عنقه وهو على فرسه فجعل يخور كما يخور الثور ، ويقول له أصحابه : أبا عامر ، والله ما بك من بأس ، ولو كان هذا الذى بك بعين أحدنا ما ضرّه ، فيقول : لا واللات والعزى، لو كان هذا الذى بى بأهل ذى المجاز لماتوا أجمعون أليس قال : « لأقتلنك » [2].

وقال عبد الله بن عمر : مات أبى بن خلف ببطن رابغ .

وتبع حاطب بن أبى بلتعة عتبة بن أبى وقاص ـ الذى كسر الرباعية الشريفة ـ فضربه بالسيف حتى طرح رأسه ، ثم أخذ فرسه وسيفه .

إشاعة مقتل النبى ﷺ وأثره على المعركة :

ولم يمض على هذا الصياح دقائق حتى شاع خبر مقتل النبى ﷺ فى المشركين والمسلمين ، وهذا هو الظرف الدقيق الذى خارت فيه عزائم كثير من الصحابة المطوقين ، الذين لم يكونوا مع رسول الله ﷺ وانهارت معنوياتهم ، حتى وقع داخل صفوفهم ارتباك شديد ، وعمتها الفوضى والاضطراب إلا أن هذه الصيحة خففت بعض التخفيف من مضاعفة هجمات المشركين لظنهم أنهم نجحوا فى غاية مرامهم ، فاشتغل الكثير منهم بتمثيل قتلى المسلمين .

الرسول ﷺ يواصل المعركة وينقذ الموقف :

ولما قتل مصعب أعطى رسول الله ﷺ اللواء على بن أبى طالب فقاتل قتالاً شديداً ، وقامت بقية الصحابة الموجودين هناك ببطولاتهم النادرة يقاتلون ويدافعون .

---

(١) إمتاع الأسماع ١/ ١٣٦ .

(٢) كان عند أبى فرس ، فكان يقول لرسول الله ﷺ : عندى فرس أعلفها كل يوم فرقاً من ذرة أقتلك عليها . فيقول له عليه الصلاة والسلام : « بل أنا أقتلك عليها إن شاء الله » .

وحينئذ استطاع رسول الله ﷺ أن يشق الطريق إلى جيشه المطوق ، فأقبل إليهم، فعرفه كعب بن مالك ـ وكان أول من عرفه ـ فنادى بأعلى صوته: يا معشر المسلمين ، أبشروا ، هذا رسول الله ﷺ ، فأشار إليه أن اصمت ـ وذلك لئلا يعرف موضعه المشركون ـ إلا أن هذا الصوت بلغ إلى آذان المسلمين ، فلاذ إليه المسلمون حتى تجمع حوله حوالى ثلاثين رجلاً من الصحابة .

وبعد هذا التجمع أخذ رسول الله ﷺ فى الانسحاب المنظم إلى شعب الجبل وهو يشق الطريق بين المشركين المهاجمين ، واشتد المشركون فى هجومهم لعرقلة الانسحاب ، إلا أنهم فشلوا أمام بسالة ليوث الإسلام .

تقدم عثمان بن عبد الله بن المغيرة ـ أحد فرسان المشركين ـ إلى رسول الله ﷺ وهو يقول : لا نجوت إن نجا ، وقام رسول الله ﷺ لمواجهته ، إلا أن الفرس عثرت فى بعض الحفر، فنازله الحارث بن الصمة فضربه على رجله فأقعده، ثم ذفف عليه وأخذ سلاحه ، والتحق برسول الله ﷺ .

وعطف عبد الله بن جابر ـ فارس آخر من فرسان مكة ـ على الحارث بن الصمة ، فضرب بالسيف على عاتقه فجرحه حتى حمله المسلمون . ولكن انقض أبو دجانة ـ البطل المغامر ذو العصابة الحمراء ـ على عبد الله بن جابر فضربه بالسيف ضربة أطارت رأسه .

وأثناء هذا القتال المرير ، كان المسلمون يأخذهم النعاس أمنة من الله كما تحدث عنه القرآن . قال أبو طلحة : كنت فيمن تغشاه النعاس يوم أحد حتى سقط سيفى من يدى مراراً يسقط وآخذه ، ويسقط وآخذه .

وبمثل هذه البسالة بلغت هذه الكتيبة ـ فى انسحاب منظم ـ إلى شعب الجبل وشق لبقية الجيش طريقاً إلى هذا المقام المأمون ، فتلاحق به فى الجبل ، وفشلت عبقرية خالد أمام عبقرية الرسول ﷺ .

طلحة ينهض بالنبى ﷺ :

وفى أثناء انسحاب رسول الله ﷺ إلى الجبل عرضت له صخرة من الجبل ، فنهض إليها ليعلوها ، فلم يستطع ؛ لأنه كان قد بدن وظاهر بين الدرعين وقد أصابه جرح شديد، فجلس تحته طلحة بن عبيد الله ، فنهض به حتى استوى عليها ، وقال : أوجب طلحة ، أى : الجنة .

آخر هجوم قام به المشركون :

ولما تمكن رسول الله ﷺ من مقر قيادته فى الشعب، قام المشركون بآخر هجوم حاولوا به النيل من المسلمين . قال ابن إسحاق : بينا رسول الله ﷺ فى الشعب إذ علت عالية من قريش الجبل ، يقودهم أبو سفيان وخالد بن الوليد. فقال رسول الله ﷺ : « اللهم إنه لا ينبغى لهم أن يعلونا » ، فقاتل عمر بن الخطاب ورهط معه من المهاجرين حتى أهبطوهم من الجبل .

وفى مغازى الأموى : أن المشركين صعدوا على الجبل ، فقال رسول الله ﷺ لسعد : « اجنبهم » ـ يقول : اردهم ـ فقال : كيف أجنبهم وحدى ؟ فقال ذلك ثلاثا ، فأخذ سعد سهماً من كنانته ، فرمى به رجلاً فقتله ، قال : ثم أخذت سهمى أعرفه فرميت به آخر فقتلته ، ثم أخذته أعرفه فرميت به آخر فقتلته فهبطوا من مكانهم ، فقلت : هذا سهم مبارك فجعلته فى كنانتى ، فكان عند سعد حتى مات ، ثم كان عند بنيه .

شماتة أبى سفيان بعد نهاية المعركة وحديثه مع عمر :

ولما تكامل تهيؤ المشركين للانصراف ، أشرف أبو سفيان على الجبل ، فنادى: أفيكم محمد ؟ فلم يجيبوه ، قال : أفيكم ابن أبى قحافة ؟ فلم يجيبوه ، فقال : أفيكم عمر بن الخطاب ؟ فلم يجيبوه ـ وكان النبى ﷺ منعهم من الإجابة ـ ولم يسأل إلا عن هؤلاء الثلاثة لعلمه وعلم قومه أن قيام الإسلام بهم ، فقال : أما هؤلاء فقد كفيتموهم ، فلم يملك عمر نفسه أن قال : يا عدو الله ، إن الذين ذكرتهم أحياء ، وقد أبقى الله ما يسوءك ، فقال : قد كان فيكم مثلة لم آمر بها ولم تسؤنى، ثم قال : اعل هُبَل . فقال النبى ﷺ : « ألا تجيبونه ؟ » فقالوا : فما نقول ؟ قال : « قولوا : الله أعلى وأجل » . ثم قال : لنا العزى ولا عزى لكم . فقال النبى ﷺ: « ألا تجيبونه ؟ » قالوا : ما نقول ؟ قال : « قولوا : الله مولانا ولا مولى لكم ». ثم قال أبو سفيان: أنعمت فعال، يوم بيوم بدر، والحرب سجال. فأجابه عمر ، وقال : لا سواء ، قتلانا فى الجنة ، وقتلاكم فى النار . ثم قال أبو سفيان: هلم إلىّ يا عمر ، فقال ﷺ : « ائته فانظر ما شأنه ؟» فجاءه فقال له أبو سفيان: أنشدك الله يا عمر أقتلنا محمداً ؟ قال عمر: اللهم لا. وإنه ليستمع كلامك الآن . قال : أنت أصدق عندى من ابن قميئة وأبر .

التثبت من موقف المشركين :

ثم بعث رسول اللّه ﷺ على بن أبى طالب ، فقال : « اخرج فى آثار القوم فانظر ماذا يصنعون ؟ وما يريدون ؟ فإن كانوا قد جنبوا الخيل وامتطوا الإبل فإنهم يريدون مكة ، وإن كانوا قد ركبوا الخيل وساقوا الإبل فإنهم يريدون المدينة ، والذى نفسى بيده، لئن أرادوها لأسيرن إليهم فيها ، ثم لأناجزنهم » . قال على: فخرجت فى آثارهم أنظر ماذا يصنعون فجنبوا الخيل وامتطوا الإبل .

حالة الطوارئ فى المدينة :

بات المسلمون فى المدينة ـ ليلة الأحد الثامن من شهر شوال سنة ٣هـ بعد الرجوع من معركة أحد ـ وهم فى حالة الطوارئ ، باتوا ـ وقد أنهكهم التعب ، ونال منهم أى منال ـ يحرسون أنقاب المدينة ومداخلها ، ويحرسون قائدهم الأعلى رسول اللّه ﷺ خاصة .

غزوة حمراء الأسد :

وبات الرسول ﷺ وهو يفكر فى الموقف ، فقد يخاف أن المشركين إن فكروا فى أنفسهم فى أنهم لم يستفيدوا شيئاً من النصر والغلبة التى كسبوها فى ساحة القتال ، فلابد أن يندموا على ذلك ، ويرجعوا من الطريق لغزو المدينة ثانية ، فصمم على أن يقوم بعملية مطاردة الجيش المكى .

قال أهل المغازى ما حاصله : إن النبى ﷺ نادى فى الناس ، وندبهم إلى السير إلى لقاء العدو ـ وذلك صباح الغد من معركة أحد ـ أى يوم الأحد الثامن من شهر شوال سنة ٣هـ ـ وقال : « لا يخرج معنا إلا من شهد القتال » ، فقال له عبد اللّه بن أبى : أركب معك ؟ قال : « لا » ، واستجاب له المسلمون على ما بهم من الجرح الشديد ، والخوف المزيد ، وقالوا : سمعاً وطاعة ، واستأذنه جابر بن عبد اللّه ، وقال : يا رسول اللّه ، إنى أحب ألا نشهد مشهداً إلا كنت معك ، وإنما خلفنى أبى على بناته ، فأذن لى، أسير معك ، فأذن له . وسار رسول اللّه ﷺ والمسلمون معه حتى بلغوا حمراء الأسد على بعد ثمانية أميال من المدينة فعسكروا هناك، وهناك أقبل معبد بن أبى معبد الخزاعى إلى رسول اللّه ﷺ فأسلم ، ويقال: بل كان على شركه ، فقال : يا محمد ، أما واللّه لقد عز علينا

ما أصابك فى أصحابك ، ولوددن أن الله عافاك، فأمره رسول اللّه ﷺ أن يلحق أبا سفيان فيخذله.

ولم يكن ما خافه رسول اللّه ﷺ من تفكير المشركين فى العودة إلى المدينة إلا حقا ، فإنهم لما نزلوا بالروحاء على بعد ستة وثلاثين ميلاً من المدينة تلاوموا فيما بينهم ، وقال بعضهم لبعض : لم تصنعوا شيئاً ، أصبتم شوكتهم وحدهم ، ثم تركتموهم ، وقد بقى معهم رؤوس يجمعون لكم ، فارجعوا حتى نستأصل شأفتهم .

ويبدو أن هذا الرأى جاء سطحيًا ممن لم يكن يقدر قوة الفريقين ومعنوياتهم تقديراً صحيحاً؛ ولذلك خالفهم زعيم مسؤول ـ صفوان بن أمية ـ قائلاً : يا قوم، لا تفعلوا فإنى أخاف أن يجمع عليكم من تخلف من الخروج ، فارجعوا والدولة لكم ، فإنى لا آمن إن رجعتم أن تكون الدولة عليكم . إلا أن هذا الرأى رفض أمام رأى الأغلبية الساحقة ، وأجمع جيش مكة على المسير نحو المدينة ، ولكنه قبل أن يتحرك أبو سفيان بجيشه من مقره لحقه معبد بن أبى معبد الخزاعى ، ولم يكن يعرف أبو سفيان بإسلامه ؛ فقال : ما وراءك يا معبد ؟ فقال معبد ـ وقد شهد عليه حرب أعصاب دعائية عنيفة ـ : محمد قد خرج يطلبكم فى جمع لم أر مثله قط ، يتحرقون عليكم تحرقاً ، قد اجتمع معه من كان تخلف عنه فى يومكم، وندموا على ما ضيعوا، فيهم من الحنق عليكم شىء لم أر مثله قط. قال أبو سفيان : ويحك ، ما تقول ؟ قال : والله ما أرى أن ترتحل حتى ترى نواصى الخيل ـ أو حتى يطلع أول الجيش من وراء هذه الأكمة . فقال أبو سفيان : واللّه لقد أجمعنا الكرة عليهم لنستأصلهم . قال : فلا تفعل فإنى لك ناصح .

وحينئذ انهارت عزائم الجيش المكى ، وأخذه الفزع والرعب ، فلم ير العافية إلا فى مواصلة الانسحاب والرجوع إلى مكة ، بيد أن أبا سفيان قام بحرب أعصاب دعائية ضد الجيش الإسلامى ، لعله ينجح فى كف هذا الجيش من مواصلة المطاردة ، وطبعاً فهو ينجح فى الاجتناب عن لقائه ، فقد مر به ركب من عبد القيس يريد المدينة ، فقال : هل أنتم مبلغون عنى محمداً رسالة ، وأوقر لكم راحلتكم هذه زبيباً بعكاظ إذا أتيتم إلى مكة ؟ قالوا: نعم . قال : فأبلغوا محمداً أنا أجمعنا الكرة ، لنستأصله ونستأصل أصحابه .

فمر الركب برسول الله ﷺ وهم بحمراء الأسد فأخبرهم بالذى قاله أبو سفيان وقالوا: ﴿ إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم فزادهم ﴾ أى زاد المسلمين قولهم ذلك ﴿ إيمانا وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل . فانقلبوا بنعمة من الله وفضل لم يمسسهم سوء واتبعوا رضوان الله والله ذو فضل عظيم ﴾ [آل عمران : ١٧٣ ، ١٧٤] .

أقام رسول الله ﷺ بحمراء الأسد ـ بعد مقدمه يوم الأحد ـ الاثنين والثلاثاء والأربعاء ٩/ ١٠/ ١١/ شوال سنة ٣هـ ثم رجع إلى المدينة (١) .

و ـ الثبات يوم الخندق ، ومحاولة تفتيت الصف :

١ ـ فندب الناس وأخبرهم خبر عدوهم ، وشاورهم : أيبرز من المدينة ، أم يكون فيها ويخندق عليها ؟ أم يكون قريبا والجبل وراءهم ؟ فاختلفوا . وكان سلمان الفارسى يرى رأى رسول الله ﷺ يهم بالمقام فى المدينة ويريد أن يتركهم حتى يردوا ، ثم يحاربهم على المدينة وفى طرقها ـ فأشار بالخندق فأعجبهم ذلك ، وذكروا يوم أحد فأحبوا الثبات فى المدينة ، وآمرهم رسول الله ﷺ بالجد ، ووعدهم النصر إن هم صبروا واتقوا وأمرهم بالطاعة ، وركب فرساً له ـ ومعه عدة من المهاجرين والأنصار ـ فارتاد موضعاً ينزله ، وجعل سلعاً خلف ظهره ، وعمل فى حفر الخندق لينشطهم .

٢ ـ فبينا رسول الله ﷺ فى قبته ـ والمسلمون على خندقهم يتناوبونه ، معهم بضع وثلاثون فرساً ، والفرسان يطوفون على الخندق ـ إذ جاء عمر بن الخطاب رضي الله عنه فقال : يا رسول الله ، بلغنى أن بنى قريظة قد نقضت العهد وحاربت ، فاشتد ذلك على رسول الله ﷺ وقال : « حسبنا الله ونعم الوكيل »، وبعث الزبير بن العوام رضي الله عنه إليهم لينظر ، فعاد بأنهم يصلحون حصونهم ، ويدربون طرقهم وقد جمعوا ماشيتهم ؛ فقال ﷺ : « إن لكل نبى حواريًا ، وإن حوارى الزبير »، ثم بعث سعد بن معاذ ، وسعد بن عبادة ، وأسيد بن حضير لينظروا ما بلغه عن بنى قريظة وأوصاهم ـ إن كان حقا ـ أن يلحنوا ـ أى يلغزوا ـ لئلا يفت فى أعضاد المسلمين ويورث وهنا، فوجدوهم مجاهرين بالعداوة والغدر ،

---

(١) أخذنا هذا التلخيص الجيد كله عن الرحيق المختوم للمباركفورى ، عدا فقرة واحدة ـ من الصفحات ٢٩٤ ـ ٣٢٠ ، وهى من أوفى ما كتب فى شرح الغزوة وإيضاح عبقرية الرسول ﷺ فى قيادتها ، وتحويل الهزيمة الساحقة إلى نصر مؤزر ترتجف له قلوب الجيش المكى هاربة من لقائه إلى مكة .

فتسابوا ونال اليهود من رسول الله ﷺ ، فسبهم سعد بن معاذ وانصرفوا عنهم ، فقال رسول الله ﷺ : « ما وراءكم ؟ » قالوا : عَضَلٌ والقارة ـ يعنون غدرهم بأصحاب الرجيع ـ فكبر ﷺ وقال : « أبشروا بنصر الله وعونه » .

٣ ـ وأقام ﷺ وأصحابه محصورين بضع عشرة ليلة حتى اشتد الكرب . . . وأرسل إلى عيينة بن حصن ، والحارث بن عوف ـ وهما رئيسا غطفان ـ أن يجعل لهما ثلث ثمار المدينة ويرجعان بمن معهما فطلب نصف الثمر فأبى عليهم إلا الثلث ، فرضيا ، وجاءا في عشرة من قومهما حتى تقارب الأمر . . . فدعا رسول الله ﷺ سعد بن معاذ وسعد بن عبادة فاستشارهما فقالا :

إن كان هذا أمراً من السماء فامض له ، وإن كان أمراً لم تؤمر به ولك فيه هوىً فسمع وطاعة ، وإن كان إنما هو الرأى فما لهم عندنا إلا السيف . فقال رسول الله ﷺ : « إنى رأيت العرب رمتكم عن قوس واحدة فقلت أرضيهم ولا أقاتلهم . أو فأحببت أن أخفف عنكم » . فقالا : يا رسول الله ، والله إن كانوا ليأكلون العلهز فى الجاهلية من الجهد ، ما طمعوا بهذا منا قط ؛ أن يأخذوا تمرة واحدة إلا بشراء أو قرى ! فحين أتانا الله بك ، وأكرمنا بك ، وهدانا بك ، نعطى الدنية ! لا نعطيهم أبداً إلا السيف . فقال ﷺ : « شق الكتاب » ، فشقه سعد ، فقام عيينة والحارث ، فقال ﷺ : « ارجعوا ، بيننا السيف » ، رافعاً صوته . وكان نعيم بن مسعود صديقاً لبنى قريظة . فقذف الله فى قلبه الإسلام ، فأتى رسول الله ﷺ ليلاً فأسلم ، فأمر أن يخذل الناس ، وأذن له أن يقول)[1] .

نقاط علامة ثلاث ـ كما رأينا ـ فى غزوة الخندق حولت مجرى المعركة كاملا : فحفر الخندق أولا أحبط الهجوم كله ، وحصر خسائر المسلمين فى ستة قتلى فقط . والثبات ثانياً عند خبر بنى قريظة ، والتكبير والبشارة بالنصر رفع المعنويات للجيش ، وأى قائد غير رسول الله ما كان أمامه إلا إعلان الاستسلام ، فى الوقت الذى حظر الخبر على أركان جيشه فقط ، لولا تسريب الخبر عن طريق اليهود للمنافقين .

وبقى الفكر البشرى يجهد ويدأب ، فاتجه إلى تحطيم الحصار ثالثاً عن طريق شق صف العدو بإعطائه ثلث ثمار المدينة ، ثم التراجع عن الفكرة عند استعداد

(١) المقاطع الثلاثة من إمتاع الأسماع ١/ ٢١٩ ـ ٢٢٠ ، ٢٢٩ ـ ٢٣٠ ، ٢٣٥ ـ ٢٣٦ .

الجيش للتضحية، ولكن شق صف العدو بقى هدفاً فى حد ذاته وضعه رسول الله ﷺ بين يدى نعيم ، حتى تحقق الهدف وحطم الحصار . وانجلى الموقف عن نصر مؤزر للمسلمين .

السمة الرابعة والعشرون
النصر الإلهى فى قلب المحن

بعدما رأينا الجهد البشرى فى البذل رجالاً ونساءً ، والجهد البشرى فى البناء والتخطيط، ووجدنا أنه المدى الأقصى الذى يملكه البشر فى عالمهم . يصبح من المناسب جداً أن نتحدث عن سمة النصر الإلهى فى قلب المحن ، والعون الربانى فى خضم المعارك؛ فالله تعالى لا يفعل بعذاب عباده شيئاً ، والله تعالى وعد بنصر جنده وعباده الصالحين .

﴿ وعَدَ اللَّهُ الَّذين آمَنُوا منكُمْ وعَمِلُوا الصَّالحات ليَستَخْلفَنَّهُمْ في الأَرْض كما استَخْلفَ الَّذين من قَبْلهمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دينَهُمُ الَّذي ارْتَضىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعْد خَوْفهمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَني لا يُشْرِكُونَ بي شَيْئًا ﴾ [النور : ٥٥] ، ﴿ وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلمَتُنَا لعبادنَا الْمُرْسَلين . إنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنصُورُونَ .وإنَّ جُندَنَا لَهُمُ الْغَالبُونَ ﴾ [الصافات : ١٧١ ـ ١٧٣] ، ﴿ ونُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى الَّذينَ اسْتُضْعفُوا في الأَرْض ونَجْعَلَهُمْ أَئمَّةً ونَجْعَلَهُمُ الْوَارثين . ونُمَكِّنَ لَهُمْ في الأَرْض ونُرِيَ فرْعَوْنَ وهَامَانَ وجُنُودَهُمَا منْهُم مَّا كَانُوا يَحْذَرُونَ ﴾ [القصص : ٥، ٦] ، ولنلحظ تحقيق هذه الإرادة الربانية فى نصر هذا الدين من خلال النماذج التالية :

من المعجزات فى بدر

الجيش الإسلامى الخارج للقاء العير تفرض عليه المعركة فرضاً بإرادة ربانية أن تكون له ذات الشوكة ، وحين أبدى استعداده للموت فى سبيل الله ، جاءه المدد الربانى أرسالاً .

الملائكة :

(وأما رسول الله ﷺ فكان منذ رجوعه بعد تعديله الصفوف يناشد ربه ما وعده من النصر ويقول : « اللهم أنجز لى ما وعدتنى ، اللهم إنى أنشدك

عهدك ووعدك »، حتى إذا حمى الوطيس ، واستدارت رحى الحرب بشدة ، واحتدم القتال، وبلغت المعركة قمتها قال: « اللهم إن تهلك هذه العصابة اليوم لا تعبد[1]، اللهم إن شئت لم تعبد بعد اليوم أبداً »، وبالغ فى الابتهال حتى سقط رداؤه عن منكبيه فرده عليه الصديق، وقال: حسبك يا رسول الله ، ألححت على ربك) [2] أو (إن الله منجز لك ما وعدك) [3] .

وأغفى رسول الله ﷺ إغفاءة واحدة، ثم رفع رأسه فقال: «أبشر يا أبا بكر، هذا جبريل على ثناياه النقع» أى الغبار. وفى رواية ابن إسحاق: (قال رسول الله ﷺ: « أبشر يا أبا بكر، أتاك نصر الله،هذا جبريل آخذ بزمام فرسه يقوده على ثناياه النقع . . . ») [4]. ﴿ إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُمْ بِأَلْفٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ . . . ﴾ [الأنفال : ٩] .

المطر والنعاس :

(وكانت ليلة الجمعة السابع عشر من رمضان ، وبعث الله السماء فأصاب المسلمين ما لبَّد الأرض ولم يمنع من السير ، وأصاب قريشاً من ذلك ما لم يقدروا على أن يرتحلوا منه، وإنما بينهم قوز من رمل ، وكان مجيء المطر نعمة وقوة للمؤمنين ، وبلاء ونقمة على المشركين . وأصاب المسلمين تلك الليلة نعاس ألقى عليهم فناموا حتى أن أحدهم تكون ذقنه بين ثدييه وما يشعر حتى يقع على جنبه، واحتلم رفاعة بن رافع بن مالك حتى اغتسل آخر الليل ، وبعث رسول الله ﷺ عمار بن ياسر ، وعبد الله بن مسعود رضي الله عنهما فأطافا بالقوم ، ثم رجعا فأخبراه أن القوم مذعورون ، وأن السماء تسح عليهم) [5] . ﴿ إِذْ يُغَشِّيكُمُ النُّعَاسَ أَمَنَةً مِنْهُ وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لِيُطَهِّرَكُمْ بِهِ وَيُذْهِبَ عَنْكُمْ رِجْزَ الشَّيْطَانِ وَلِيَرْبِطَ عَلَى قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ الْأَقْدَامَ ﴾ [الأنفال : ١١] .

الملائكة تقاتل وتثبِّت :

(. . . وزادهم نشاطاً وحدة أن رأوا رسول الله ﷺ يثب فى الدرع ويقول فى حزم وصراحة: ﴿ سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ ﴾ [القمر : ٤٥] ، فقاتل المسلمون

---

(١) والصحيح هو ما ورد فى البخارى : « اللهم إن شئت لم تعبد » ٢/ ٥/ ٩٣ .

(٢) الرحيق المختوم ص ٢٤١ . (٣، ٤) السيرة النبوية لابن هشام ١/ ٦٢٧ .

(٥) إمتاع الأسماع ١/ ٧٨ .

أشد القتال ، ونصرتهم الملائكة ، ففى رواية ابن سعد عن عكرمة قال : كان يومئذ يندر رأس الرجل لا يدرى من ضربه، وتندر يد الرجل لا يدرى من ضربها، وقال ابن عباس : بينما رجل من المسلمين يشتد فى أثر رجلٍ من المشركين أمامه إذ سمع ضربة بالسوط فوقه ، وصوت الفارس يقول : أقدم حيزوم ، فنظر إلى المشرك أمامه ، فجاء الأنصارى فحدث بذلك رسول الله ﷺ فقال : « صدقت ذلك من مدد السماء الثالثة » . قال أبو داود المازنى: إنى لأتبع رجلاً من المشركين لأضربه إذ وقع رأسه قبل أن يصل إليه سيفى، فعرفت أنه قد قتله غيرى، وجاء رجل من الأنصار بالعباس بن عبد المطلب أسيراً فقال العباس : إن هذا والله ما أسرنى ، لقد أسرنى رجل أجلح من أحسن الناس وجهاً على فرس أبلق وما أراه فى القوم . فقال الأنصارى : أنا أسرته يا رسول الله ، فقال : « اسكت فقد أيدك الله بملك كريم ») (١) .

(فبينما هو جالس ـ أى أبو لهب ـ إذ قال الناس : هذا أبو سفيان بن الحارث ابن عبد المطلب قد قدم فقال أبو لهب : هلمَّ إلى فعندك لعمرى الخبر ، قال : فجلس إليه ، والناس قيام عليه ، فقال : يا بن أخى، أخبرنى كيف كان أمر الناس ؟ قال : ما هو إلا أن لقينا القوم فمنحناهم أكتافنا يقتلوننا كيف شاؤوا ، ويأسروننا كيف شاؤوا ، وايم الله ، مع ذلك ما لمت القوم ، لقينا رجال بيض على خيل بلق بين السماء والأرض ، والله ما تليق شيئاً ولا يقوم لها شىء) (٢).

﴿ إذْ يُوحي ربُّك إلى الْملائكة أنّي معكُمْ فثبّتُوا الّذين آمنُوا سأُلْقي في قُلُوب الّذين كفرُوا الرُّعب فاضربُوا فوْق الأعْناق واضْربُوا منْهُمْ كُلّ بنان ﴾ [الأنفال : ١٢] .

القلة والكثرة :

﴿ إذْ يُريكهُمُ اللّهُ في منامك قليلاً ولوْ أراكهُمْ كثيراً لفشلْتُمْ ولتنازعْتُمْ في الأمر ولكنّ الله سلّم إنّه عليمٌ بذات الصُّدُور . وإذْ يُريكُمُوهُمْ إذ التقيْتُمْ في أعْيُنكُمْ قليلاً ويُقلّلُكُمْ في أعْينهم ليقْضي اللّهُ أمْراً كان مفْعُولاً وإلى الله تُرْجعُ الأُمُورُ ﴾ [الأنفال : ٤٣ ، ٤٤] .

سيف عكاشة :

(وانقطع يومئذ سيف عكاشة بن محصن ، فأعطاه النبى جذلاً من حطب ،

---

(١) الرحيق المختوم للمباركفورى ص ٢٤٣ . (٢) السيرة النبوية لابن هشام ١/ ٦٤٧ .

فقال : «دونك هذا » ، فلما أخذه عكاشة وهزه عاد فى يده سيفاً طويلاً ، فلم يزل عنده يقاتل به حتى قتل أيام أبى بكر ، قتله طليحة الأسدى شهيداً) [1] .

من المعجزات فى أحد

النعاس :

وأثناء هذا القتال المرير ، كان المسلمون يأخذهم النعاس أمنة من اللّه كما تحدث عنه القرآن . قال أبو طلحة : (كنت فيمن تغشاه النعاس يوم أحد حتى سقط سيفى من يدى مراراً ، يسقط وآخذه ، ويسقط وآخذه) [2] .

روى الترمذى والنسائى والحاكم من حديث حماد بن سلمة عن ثابت عن أنس عن أبى طلحة قال : رفعت رأسى يوم أحد ، وجعلت أنظر ، وما منهم يومئذ أحد إلا يميل تحت جحفته من النعاس [3] .

﴿ ثُمَّ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنْ بَعْدِ الْغَمِّ أَمَنَةً نُّعَاسًا يَغْشَىٰ طَائِفَةً مِّنكُمْ ...﴾ [آل عمران : ١٥٤].

عين قتادة :

(. . . وأصيبت عين قتادة بن النعمان حتى وقعت على وجنته ، فجاء رسول اللّه ﷺ فأخذها وردها فعادت كما كانت ولم تضرب عليه بعدها ، وكان يقول بعد ما أسن : هى أقوى عينى ! وكانت أحسنهما) [4] .

حنظلة غسيل الملائكة :

(. . . وخرج حنظلة بن أبى عامر إلى رسول اللّه ﷺ وهو يسوى الصفوف بأحد ، فلما انكشف المشركون ضرب فرس أبى سفيان بن حرب فوقع على الأرض وصاح ، وحنظلة يريد ذبحه ، فأدركه الأسود بن شعوب فحمل على حنظلة بالرمح فأنفذه ، ومشى حنظلة إليه فى الرمح وقد أثبته ثم ضربه الثانية فقتله؛ ونجا أبو سفيان فقال رسول اللّه ﷺ: «إنى رأيت الملائكة تغسل حنظلة بن

---

(١) السيرة النبوية لابن هشام ١/ ٦٣٧ .

(٢) فتح البارى بشرح صحيح البخارى ٧/ ٣٦٥/ ح ٤٠٦٨ .

(٣) سنن الترمذى ٥/ ٢٢٩ح٣٠٧٠ . (٤) إمتاع الأسماع ١/ ١٣٣ .

أبى عامر بين السماء والأرض بماء المزن فى صحاف الفضة » . قال أبو أسيد الساعدى : فذهبنا إليه ، فإذا رأسه يقطر ماءً . فلما أخبر النبى ﷺ بذلك أرسل إلى امرأته فسألها فأخبرته أنه خرج وهو جنب) [1] .

حماية رسول الله ﷺ :

فى الصحيحين عن سعد قال : رأيت رسول الله ﷺ يوم أحد ومعه رجلان يقاتلان عنه ، عليهما ثياب بيض ، كأشد القتال ما رأيتهما قبل ولا بعد، وفى رواية : يعنى جبريل وميكائيل [2] .

وقال نافع بن جبير: سمعت رجلاً من المهاجرين يقول: شهدت أحداً فنظرت إلى النبل يأتى من كل ناحية ورسول الله ﷺ وسطها ، كل ذلك يصرف عنه ، ولقد رأيت عبد الله بن شهاب الزهرى يقول يومئذ: دلونى على محمد فلا نجوت إن نجا ، ورسول الله ﷺ إلى جنبه، وما معه أحد، ثم جاوزه ، فعاتبه فى ذلك صفوان ، فقال :

والله ما رأيته ، أحلف بالله أنه منا ممنوع ، فخرجنا أربعة فتعاهدنا وتعاقدنا على قتله ، فلم نخلص إلى ذلك [3] .

سهم سعد :

وفى مغازى الأموى : أن المشركين صعدوا على الجبل ، فقال رسول الله ﷺ لسعد : « أجنبهم » ـ يقول : ارددهم ـ فقال : كيف أجنبهم وحدى ؟ فقال ذلك ثلاثاً، فأخذ سعد سهماً من كنانته ، فرمى به رجلاً فقتله ، قال : ثم أخذت سهمى أعرفه فرميت به آخر ، فقتلته ، ثم أخذته أعرفه فرميت به آخر فقتلته ، فهبطوا من مكانهم ، فقلت : هذا سهم مبارك ، فجعلته فى كنانتى ، فكان عند سعد حتى مات ، ثم كان عند بنيه [4] .

---

(١) إمتاع الأسماع ١/ ١٥٠ .

(٢) فتح البارى بشرح صحيح البخارى ٧/ ٣٥٨ ح ٤٠٥٤ .

(٣) إمتاع الأسماع للمقريزى ١/ ١٣٠ .

(٤) زاد المعاد ١/ ٢/ ١٠٦ ولقد رأيت بأم عينى قوس سعد وسهمه ضمن حاجز زجاجى فى بيت خرب فى المدينة المنورة عام ١٣٩٣ ، ولعل الدار هدمت بعد ذلك وهى قريبة من المسجد النبوى .

من المعجزات فى الخندق

فى حفر الخندق:

(إنا يوم خندق نحفر فعرضت علينا كدية شديدة ، فجاؤوا إلى النبى ﷺ فقالوا : هذه كدية عرضت فى الخندق . فقال : « أنا نازل »، ثم قام وبطنه معصوب بحجر ـ ولبثنا ثلاثة لا نذوق ذواقاً ـ فأخذ النبى ﷺ المعول فضرب ، فعاد كثيباً أهيل أو أهيم ـ أى صار رملاً لا يتماسك) (١) .

وقال البراء : لما كنا يوم الخندق عرضت لنا فى بعض الخندق صخرة لا تأخذ منها المعاول ، فاشتكينا ذلك لرسول الله ﷺ ، فجاء وأخذ المعول فقال : « بسم اللّه » ، ثم ضرب ضربة وقال : « الله أكبر ،أعطيت مفاتيح الشام ، والله إنى لأنظر إلى قصورها الحمر الساعة » ، ثم ضرب الثانية فقطع آخر ، فقال : « اللّه أكبر ، أعطيت فارس ، واللّه إنى لأبصر قصر المدائن الأبيض الآن »، ثم ضرب الثالثة، فقال : « بسم اللّه » ، فقطع بقية الحجر ، فقال : « اللّه أكبر ، أعطيت مفاتيح اليمن ، واللّه إنى لأبصر أبواب صنعاء مكانى » (٢) .

جوع رسول الله ﷺ والمسلمين :

كان المسلمون يعملون بهذا النشاط وهو يقاسون من شدة الجوع ما يفتت الأكباد . قال أنس : (كان أهل الخندق يؤتون بملء كفى من الشعير، فيصنع لهم بإهالة (٣) سنخة توضع بين يدى القوم ، والقوم جياع ، وهى بشعة فى الحلق ولها ريح) (٤) .

وقال أبو طلحة : (شكونا إلى رسول اللّه ﷺ الجوع فرفعنا عن بطوننا عن حجر حجر ، فرفع رسول اللّه ﷺ عن حجرين) (٥) .

---

(١) فتح البارى بشرح صحيح البخارى ٧/ ٣٩٥ ح ٤١٠١ .
(٢) سنن النسائى وأحمد فى مسنده ، وهى عند أحمد ٤/ ٣٠٣ .
(٣) إهالة : الدهن الذى يؤتدم به .
(٤) فتح البارى بشرح صحيح البخارى ٧/ ٣٩٢ ح ٤١٠٠ .
(٥) سنن الترمذى ٤/ ٥٨٥ ح ٢٣٧١ .

إطعام الله تعالى المسلمين ببركة رسول الله ﷺ :

وبهذه المناسبة وقع فى حفر الخندق آيات من أعلام النبوة :

روى البخارى عن سعيد بن ميناء قال : سمعت جابر بن عبد الله رضي الله عنهما قال : لما حفر الخندق ، رأيت بالنبى ﷺ خمصا شديدا. فانكفيت إلى امرأتى، فقلت : هل عندك شىء ؟ فإنى رأيت برسول الله ﷺ خمصا شديدا ، فأخرجت إلى جرابا فيه صاع من شعير ولنا بُهيمة داجن فذبحتها، وطحنت الشعير ففرغت إلى فراغى، وقطعتها فى بُرمتها ، ثم وليت إلى رسول الله ﷺ ، فقالت : لا تفضحنى برسول الله ﷺ وبمن معه ، فجئته فساررته. فقلت : يا رسول الله ، ذبحنا بهيمة لنا وطحنّا صاعا من شعير كان عندنا ، فتعال أنت ونفر معك ، فصاح النبى ﷺ فقال : « يا أهل الخندق ، إن جابرا قد صنع سورا فحى هلا بكم »، فقال رسول الله ﷺ : « لا تُنْزِلن برمتكم ولا تخبزن عجينتكم حتى أجىء » ، فجئت وجاء رسول الله يقدم الناس، حتى جئت امرأتى فقالت: بك وبك، فقلت: قد فعلت الذى قلت، فأخرجت له عجينا ، فبصق فيه وبارك، ثم عمد إلى برمتنا فبصق وبارك ، ثم قال: « ادع خابزة فلتخبز معك ، واقدحى من برمتكم ولا تُنْزِلوها » وهم ألف ، فأقسم بالله لقد أكلوا حتى تركوه وانحرفوا ، وإن برمتنا لتغط كما هى، وإن عجيننا ليخبز كما هو [1].

وجاءت أخت النعمان بن بشير بحفنة من تمر ليتغذى أبوها وخالها ، تقول : فمررت برسول الله ﷺ وأنا ألتمس أبى وخالى، فقال: « تعالى يا بنية ، ما هذا معك ؟ » قالت: فقلت: يا رسول الله، هذا تمر، بعثتنى به أمى إلى أبى بشير بن سعد، وخالى عبد الله بن رواحة يتغذيانه، قال: « هاتيه » ، قالت : فصببته فى كفى رسول الله ﷺ، فما ملأتهما، ثم أمر بثوب فبسط له ، ثم دحا بالتمر عليه، فتبدد فوق الثوب، ثم قال لإنسان عنده : « اصرخ فى أهل الخندق : أن هلم إلى الغداء » . فاجتمع أهل الخندق عليه، فجعلوا يأكلون منه، وجعل يزيد ، حتى صدر أهل الخندق عنه ، وإنه ليسقط من أطراف الثوب[2].

---

(١) فتح البارى بشرح صحيح البخارى ٧/ ٣٩٦ ح٤١٠٢ .

(٢) السيرة النبوية لابن هشام ٢/ ٢١٨ .

إسلام نعيم بن مسعود وخطته الناجحة [1] :

ثم إن نعيم بن مسعود الأشجعى الغطفانى أتى رسول اللّه ﷺ فقال : يا رسول الله، إنى قد أسلمت، وإن قومى لم يعلموا بإسلامى، فمرنى بما شئت؛ فقال رسول اللّه ﷺ: «إنما أنت فينا رجل واحد ، فخذل عنا إن استطعت فإن الحرب خُدعة » . فخرج نعيم بن مسعود حتى أتى بنى قريظة وكان لهم نديماً فى الجاهلية ، فقال : يا بنى قريظة ، قد عرفتم ودى إياكم وخاصة ما بينى وبينكم ؛ قالوا : صدقت ما أنت عندنا بمتهم ؛ فقال لهم : إن قريشاً وغطفان ليسوا كأنتم ، البلد بلدكم، فيه أموالكم وأبناؤكم ونساؤكم، لا تقدرون على أن تحوّلوا منه إلى غيره ، وإن قريشاً وغطفان قد جاؤوا لحرب محمد وأصحابه ، وقد ظاهرتموهم عليه، وبلدهم ونساؤهم وأموالهم بغيره، فليسوا كأنتم، فإن أرادوا نهزة أصابوها، وإن كان غير ذلك لحقوا ببلادهم وخلوا بينكم وبين الرجل ببلدكم ، ولا طاقة لكم به إن خلا بكم ، فلا تقاتلوا مع القوم حتى تأخذوا منهم رُهُناً من أشرافهم، يكونون بأيديكم ثقة لكم على أن تقاتلوا معهم محمداً حتى تناجزوه ، فقالوا له : لقد أشرت بالرأى .

ثم خرج حتى أتى قريشاً ، فقال لأبى سفيان بن حرب ومن معه من رجال قريش : قد عرفتم ودى لكم وفراقى محمداً ، إنه قد بلغنى أمر قد رأيت علىّ حقا أن أبلغكموه ، نصحاً لكم فاكتموا عنى ؛ فقالوا : نفعل ؛ قال : تعلموا أن معشر يهود قد ندموا على ما صنعوا فيما بينهم وبين محمد ، وقد أرسلوا إليه ، إنا قد ندمنا على ما فعلنا ؛ فهل يرضيك أن نأخذ لك من القبيلتين ، من قريش وغطفان رجالاً من أشرافهم ، فنعطيكهم ، فتضرب أعناقهم ، ثم نكون معك على من بقى منهم حتى نستأصلهم ؟ فأرسل إليهم : أن نعم . فإن بعثت إليكم يهود يلتمسون رهناً من رجالكم فلا تدفعوا إليهم منكم رجلاً واحداً.

ثم خرج حتى أتى غطفان، فقال : يا معشر غطفان ، إنكم أصلى وعشيرتى، وأحب الناس إلىّ ، ولا أراكم تتهمونى ، قالوا : صدقت ، ما أنت عندنا بمتهم ، قال : فاكتموا عنى ؛ قالوا : نفعل ، فما أمرك ؟ ثم قال لهم مثل ما قال لقريش، وحذرهم ما حذرهم.

---

(١) اعتبرنا إسلام نعيم من المعجزات الإلهية ؛ لأن أى تخطيط بشرى لا يضع فى حسبانه انضمام قائد من أعدائه إليه ، وتحطيم جيشه وجيش حلفائه ، وذلك فى قلب المعركة .

فلما كانت ليلة السبت من شوال سنة خمس، وكان من صنع الله لرسوله ﷺ أن أرسل أبو سفيان بن حرب ورؤوس غطفان إلى بنى قريظة عكرمة بن أبى جهل فى نفر من قريش وغطفان ، فقالوا لهم : إنا لسنا بدار مقام ، قد هلك الخف والحافر، فاغدوا للقتال حتى نناجز محمداً ، ونفرغ مما بيننا وبينه؛ فأرسلوا إليهم: إن اليوم يوم السبت ، وهو يوم لا نعمل فيه شيئاً ، وقد كان أحدث فيه بعضنا حدثاً ، فأصابه ما لم يخف عليكم ، ولسنا مع ذلك بالذين نقاتل معكم محمداً حتى تعطونا رُهُناً من رجالكم ، يكونون بأيدينا ثقة لنا ، حتى نناجز محمداً ، فإنا نخشى إن ضرستكم الحرب ، واشتد عليكم القتال أن تنشمروا إلى بلادكم وتتركونا ، والرجل فى بلدنا ، ولا طاقة لنا بذلك منه ، فلما رجعت إليهم الرسل بما قالت بنو قريظة ، قالت قريش وغطفان : واللّه إن الذى حدثكم نعيم بن مسعود لحق ، فأرسلوا إلى بنى قريظة ، إنا والله لا ندفع إليكم رجلاً واحداً من رجالنا ، فإن كنتم تريدون القتال فاخرجوا فقاتلوا ؛ فقالت بنو قريظة حين انتهت الرسل إليهم بهذا: إن الذى ذكر لكم نعيم بن مسعود لحق ، ما يريد القوم إلا أن يقاتلوا ، فإن رأوا فرصة انتهزوها ، وإن كان غير ذلك انشمروا إلى بلادهم ، وخلّوا بينكم وبين الرجل فى بلدكم، فأرسلوا إلى قريش وغطفان : إنا واللّه لا نقاتل معكم محمداً حتى تعطونا رهناً ، فأبوا عليهم وخذل اللّه بينهم [1] .

الريح التى بعثها اللّه على الأحزاب والجنود التى لم يرها المؤمنون :

وبعث اللّه عليهم الريح فى ليال شاتية باردة شديدة البرد ، فجعلت تكفأ قدورهم ، وتطرح أبنيتهم، فلما انتهى إلى رسول اللّه ﷺ ما اختلف من أمرهم، وما فرق اللّه من جماعتهم دعا حذيفة بن اليمان ، فبعثه إليهم ، لينظر ما فعل القوم ليلاً .

قال ابن إسحاق : فحدثنى يزيد بن زياد عن محمد بن كعب القرظى قال :

قال رجل من أهل الكوفة لحذيفة بن اليمان: يا أبا عبد الله، أرأيتم رسول اللّه وصحبتموه ؟ قال : نعم ؛ قال : فكيف كنتم تصنعون ؟ قال : واللّه لقد كنا نجهد ؛ قال: واللّه لو أدركناه ما تركناه يمشى على الأرض ، ولحملناه على أعناقنا. قال : فقال حذيفة : يا بن أخى ، واللّه لقد رأيتنا مع رسول اللّه ﷺ بالخندق ،

(١) السيرة لابن هشام ٢/ ٢٢٩ ـ ٢٣١ .

وصلى رسول الله ﷺ هويا من الليل ثم التفت إلينا فقال :

« من رجل يقوم فينظر لنا ما فعل القوم ثم يرجع ـ يشرط له رسول الله ﷺ الرجعة ـ أسأل الله تعالى أن يكون رفيقى فى الجنة ؟ » فما قام رجل من القوم ، من شدة الخوف ، وشدة الجوع ، وشدة البرد ؛ فلما لم يقم أحد ، دعانى رسول الله ﷺ ، فلم يكن لى بد من القيام حين دعانى ؛ فقال: « يا حذيفة ، اذهب فادخل فى القوم، فانظر ماذا يصنعون، ولا تحدثن شيئاً حتى تأتينا ». قال :

فذهبت فدخلت فى القوم والريح وجنود الله تفعل بهم ما تفعل، لا تقر لهم قدراً ولا ناراً ولا بناءً. فقام أبو سفيان، فقال : يا معشر قريش ، لينظر امرؤ من جليسه ؟ قال حذيفة : فأخذت بيد الرجل الذى كان إلى جنبى ، فقلت : من أنت ؟ قال : فلان بن فلان .

ثم قال أبو سفيان : يا معشر قريش ، إنكم والله ما أصبحتم بدار مقام ، لقد هلك الكراع [1] والخف ، وأخلفتنا بنو قريظة ، وبلغنا عنهم الذى نكره ، ولقينا من شدة الريح ما ترون ، ما تطمئن لنا قدر ، ولا تقوم لنا نار ، ولا يستمسك لنا بناء ، فارتحلوا فإنى مرتحل ، ثم قام إلى جمله وهو معقول فجلس عليه ، ثم ضربه فوثب به على ثلاث ، فوالله ما أطلق عقاله إلا وهو قائم ، ولولا عهد رسول الله ﷺ إلى وألا تحدث شيئًا حتى تأتينى ، ثم شئت لقتلته بسهم .

قال حذيفة : فرجعت إلى رسول الله ﷺ وهو قائم يصلى فى مرط [2] لبعض نسائه، مراجل . فلما رآنى أدخلنى إلى رجليه وطرح على طرف المرط ، ثم ركع وسجد وإنى لفيه ، فلما سلم أخبرته الخبر ، وسمعت غطفان بما فعلت قريش، فانشمروا راجعين إلى بلادهم . ولما أصبح رسول الله ﷺ انصرف عن الخندق راجعًا إلى المدينة والمسلمون ، ووضعنا السلاح [3] .

---

(١) الكراع : الخيل .
(٢) المرط : الكساء .
(٣) السيرة النبوية لابن هشام ٢ / ٢٣١ ــ ٢٣٣ .

السمة الخامسة والعشرون

التربية الإلهية للنفوس عقب المعارك

لقد كانت التربية الإلهية فى الحقيقة مستمرة لا تنقطع أبدًا فى الحضر والسفر، فى الجهاد والإقامة ، فى الغزو وفى المرابطة. كان القرآن يتنزل ليبنى هذه الأمة ويصنعها على عين الله سبحانه ، وكان النبى ﷺ - إمام المربين - يعالج هذه النفوس البشرية حتى تستوى على منهج الله ، وهو الخط الذى لم ينقطع أبدًا خلال حياة الرسول ﷺ .

وحيث إنه من الصعب التفصيل بكل معالم هذه التربية خلال هذه المرحلة ، فيكفى أن نقف مع كتاب الله تعالى ، وهو يعالج هذه النفوس البشرية بعد كل معركة ، فيأتى البيان مختلفا فى أحيان كثيرة عن العرض البشرى للمعركة .

بدر وسورة الأنفال

ونترك للشهيد سيد قطب رحمه الله أن يقدم لنا معالم هذا البيان الربانى بعد المعركة :

(فى هذه الغزوة . . . نزلت سورة الأنفال . . . نزلت تعرض وقائع الغزوة الظاهرة وتعرض وراءها فعل القدرة المدبرة ، تكشف عن قدر الله وتدبيره فى وقائع الغزوة ، وفيما وراءها من خط سير التاريخ البشرى كله ، وتحدث عن هذا كله بلغة القرآن الفريدة ، وبأسلوب القرآن المعجز .

إن هنالك حادثا بعينه فى الغزوة يلقى ضوءًا على خط سيرها . ذلك هو ما رواه ابن إسحاق عن عبادة بن الصامت رضي الله عنه قال : (فينا أصحاب بدر نزلت حين اختلفنا فى النفل وساءت فيه أخلاقنا، فنزعه الله من أيدينا، فجعله إلى رسول الله ﷺ فقسمه عن بواء - يقول : على السواء) .

هذا الحادث يلقى ضوءًا على افتتاح السورة ، وعلى خط سيرها كذلك :

لقد اختلفوا على الغنائم القليلة فى الوقعة التى جعلها الله فرقانًا فى مجرى التاريخ البشرى إلى يوم القيامة !

ولقد أراد الله سبحانه أن يعلمهم ، وأن يعلم البشر كلهم من بعدهم أمورًا عظامًا .

أراد أن يعلمهم ابتداءً أن أمر هذه الوقعة أكبر كثيرًا من أمر الغنائم التى يختلفون عليها فسمى يومها يوم الفرقان ، يوم التقى الجمعان .

وأراد أن يعلمهم أن هذا الأمر العظيم إنما تم بتدبير الله وقدره ، فى كل خطوة وفى كل حركة ليقضى من ورائه أمرًا يريده ، فلم يكن لهم فى هذا النصر وما وراءه من عظائم الأمور يد ولا تدبير ، وسواء غنائمه الصغيرة وآثاره الكبيرة ، فكلها من فعل الله وتدبيره ، إنما أبلاهم فيه بلاءً حسنًا من فضله !

وأراد أن يريهم مدى الفرق بين ما أرادوه هم لأنفسهم من الظفر بالعير ، وما أراده الله لهم وللبشرية كلها من ورائهم من إفلات العير ، ولقاء النفير ، ليروا على مد البصر مدى ما بين إرادتهم بأنفسهم وإرادة الله بهم من فرق كبير !

ولأن المعركة ـ كل معركة يخوضها المؤمنون ـ من صنع الله وتدبيره، بقيادته وتوجيهه، بعونه ومدده ، بفعله وقدره ، له وفى سبيله ، تكرر الدعوة فى السورة إلى الثبات فيها، والمضى معها ، والاستعداد لها ، والاطمئنان إلى تولى الله فيها، والحذر من المعوقات عنها من فتنة الأموال والأولاد ، والاستمساك بآدابها ، وعدم الخروج لها بطرًا ورئاء الناس ، ويؤمر رسول الله ﷺ بتحريض المؤمنين عليها .

وفى ذات الوقت الذى تتكرر الأوامر بالتثبيت فى المعركة يتجه السياق إلى توضيح معالم العقيدة وتعميقها ، ورد كل أمر وكل حكم وكل توجيه إليها ، فلا تبقى الأوامر معلقة فى الفراغ إنما ترتكز على ذلك الأصل الواضح الثابت العميق .

ويبرز فى سياق السورة بصفة خاصة ـ إلى جانب خط العقيدة ـ خط آخر هو خط الجهاد وبيان قيمته الإيمانية والحركية ، وتجريده كذلك من كل شائبة شخصية؛ وإعطائه مبرراته الذاتية العليا التى ينطلق بها المجاهدون فى ثقة وطمأنينة واستعلاء إلى آخر الزمان .

وأخيرًا ، فإن السورة تنظم ارتباطات الجماعة المسلمة على أساس العقيدة كما أسلفنا، وبيان الأحكام التى تتعامل بها مع غيرها من الجماعات الأخرى فى الحرب والسلم ـ إلى هذه الفترة التى نزلت فيها السورة ـ وأحكام الغنائم والمعاهدات وتضع خطوطا أصيلة فى تنظيم تلك الروابط وهذه الأحكام .

هذا مجمل لخطوط السورة الرئيسة . . . فإذا كانت السورة بجملتها إنما نزلت فى غزوة بدر وفى التعقيب عليها، فإننا ندرك من هذا طرفا من منهج القرآن فى تربية الجماعة المسلمة، وإعدادها لقيادة البشرية ، وجانبا من نظرة هذا الدين إلى حقيقة ما يجرى فى الأرض وفى حياة البشر مما يقوم منه تصور صحيح لهذه الحقيقة .

لقد كانت هذه الغزوة هى أول وقعة كبيرة لقى فيها المسلمون أعداءهم من المشركين . فهزموهم تلك الهزيمة الكبيرة . . . ولكن المسلمين لم يكونوا قد خرجوا لهذه الغاية ، لقد كانوا إنما خرجوا ليقطعوا الطريق على قافلة قريش الذين أخرجوا المؤمنين من ديارهم وأموالهم، فأراد الله للعصبة المؤمنة غير ما أرادت لنفسها من الغنيمة . . . أراد لها أن تنفلت منها القافلة وأن تلقى عدوها من عتاة قريش الذين جمدوا الدعوة فى مكة ، ومكروا مكرهم لقتل رسول الله ﷺ بعدما بلغوا بأصحابه الذين تابعوه على الهدى غاية التعذيب والتنكيل والأذى .

لقد أراد الله سبحانه أن تكون هذه الوقعة فرقانًا بين الحق والباطل ؛ وفرقانًا فى خط سير التاريخ الإسلامى ، ومن ثم فرقانا فى خط سير التاريخ الإنسانى ، وأراد أن يظهر فيها الآماد البعيدة بين تدبير البشر لأنفسهم فيما يحسبونه الخير لهم، وتدبير رب البشر لهم ولو كرهوه فى أول الأمر ، كما أراد أن تتعلم العصبة المؤمنة عوامل النصر ، وعوامل الهزيمة ، تتلقاها مباشرة من مدربها ووليها ، وهى فى ميدان المعركة وأمام مشاهدها .

وتضمنت السورة التوجيهات الموحية إلى هذه المعانى الكبيرة ؛ وإلى هذه الحقائق الضخمة الخطيرة ، كما تضمنت الكثير من دستور السلم والحرب ، والغنائم والأسرى ، والمعاهدات والمواثيق ، وعوامل النصر وعوامل الهزيمة ، كلها مصوغة فى أسلوب التوجيه المربى ، الذى ينشئ التصور الاعتقادى ، ويجعله هو المحرك الأول والأكبر فى النشاط الإنسانى ، وهذه هى سمة المنهج القرآنى فى عرض الأحداث وتوجيهها.

ثم إنها تضمنت مشاهد من الموقعة ، ومشاهد من حركات النفوس قبل المعركة وفى ثناياها وبعدها ، مشاهد حية تعيد إلى المشاعر وقع المعركة وصورها وسماتها؛ كأن قارئ القرآن يراها فيتجاوب معها تجاوبا عميقًا .

واستطرد السياق أحيانًا إلى صور من حياة الرسول ﷺ وحياة أصحابه فى مكة ، وهم قلة مستضعفون فى الأرض ، يخافون أن يتخطفهم الناس ، ذلك ليذكروا فضل الله عليهم فى ساعة النصر ، ويعلموا أنهم إنما سينصرون بنصر الله وبهذا الدين الذى آثروه على المال والحياة ، وإلى صور من حياة المشركين قبل هجرة رسول الله ﷺ وبعدها وإلى أمثلة من مصائر الكافرين من قبل ، كدأب آل فرعون والذين من قبلهم لتقرير سنة الله التى لا تتخلف فى الانتصار لأوليائه والتدمير على أعدائه) (١) .

وإن كان الشهيد سيد قد قدم لنا وصفا حيا عن السورة ، فسأكتفى بعرض هذه الخطرات من خلال السورة الكريمة ومن وحيها :

١ ـ لكل أمة نشيد ، ونشيدنا نحن الأمة المسلمة سورة الأنفال ، فلقد تجاوزت هذه السورة الزمان والمكان ، وصارت نشيد المسلمين قبل أية معركة يخوضونها ، يتلوها الجيش المسلم كله بصوت واحد ، يجأر فيها بالدعاء إلى الله ، أن ينزل نصره المؤزر كما أنزل فى بدر ، وتعلن كتائب الإيمان قبل خوضها المعركة براءتها من حولها وقوتها وضعفها وعجزها ، وإيواءها إلى الركن الشديد إلى الله رب العالمين : ﴿ **فَآوَاكُمْ وَأَيَّدَكُم بِنَصْرِهِ وَرَزَقَكُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ** ﴾

[الأنفال : ٢٦]

٢ ـ لقد افتتحت السورة الكريمة بعتاب لصفوة الله من خلقه . لخير أهل الأرض ، للذين قال الله تعالى فيهم كما فى الحديث القدسى : « اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم » ، وبلغ العتاب من الشدة والعنف ما جعلهم يخافون على إيمانهم :

﴿ **يَسْأَلُونَكَ عَنِ الأَنفَالِ قُلِ الأَنفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ . إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ . الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلاَةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ . أُوْلَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَّهُمْ دَرَجَاتٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ** ﴾

[الأنفال : ١ ـ ٤]

---

(١) فى ظلال القرآن ، مقتطفات من ص ٧٨٤ ــ ٧٩٤ . ط دار إحياء التراث العربى .

٣ ـ وبعد أن يرتفع بقلوبهم الوجلة ، ويجردهم من ذواتهم وأشخاصهم ، يعود بهم بعد هذا التطواف العنيف ليقول لهم فى آخر السورة : إنكم أنتم المؤمنون حقا ، وبالذات :

﴿ والذين آمنُوا وهاجرُوا وجاهدُوا في سبيل الله والذين آووا ونَصرُوا أُولئك هُمُ المؤمنون حقًا لهُم مَغفرةٌ ورزقٌ كريم ﴾ [الأنفال : ٧٤] .

٤ ـ الملائكة عاجزة عن تحقيق النصر ، وهى مفتقرة إلى معية الله سبحانه ، والذى يحقق النصر هو رب العالمين وحده :

﴿ إذ تستغيثُونَ ربَّكُمْ فاستجاب لكُمْ أنّي مُمدُّكُم بألفٍ مِّن المَلائكة مُردفين . وما جعلهُ اللهُ إلاّ بُشْرى ولتطْمئنّ به قُلُوبُكُمْ وما النَصرُ إلاّ من عند الله إنّ اللهَ عزيزٌ حكيمٌ ﴾

[الأنفال : ٩ ، ١٠]

﴿ إذ يُوحي ربُّك إلى الملائكة أنّي معكُم ﴾ فالملائكة تحتاج إلى تثبيت من الله سبحانه .

٥ ـ الله تعالى هو الذى يدير المعركة بجنده من البشر والملائكة ضد المحادين لله ورسوله :

﴿ إذ يُوحي ربُّك إلى المَلائكة أنّي معكُمْ فثبّتُوا الّذين آمنُوا سأُلْقي في قُلُوب الّذين كفرُوا الرُّعب فاضربُوا فوق الأعناق واضْربُوا منهُمْ كُلَّ بنان ﴾ [الأنفال : ١٢] .

٦ ـ كانت المعالجة من الضخامة على قدر ضخامة النصر ، وإلا لاستخفهم النصر حتى طاروا فيه ، فكما قال الأنصارى سلمة بن سلامة ﷺ حين رأى المسلمين الذين لم يشهدوا المعركة يهنئون الظافرين :

ما الذى تهنئوننا به ؟ فوالله إن لقينا إلا عجائز صلعا كالبدن .

فتبسم رسول الله ﷺ ، ثم قال : « يا بن أخى ، أولئك الملأ » .

هذا بيان للناس (بعد أحد)

١ ـ اهتداؤنا بالبيان يعنى أننا مؤمنون : ﴿ هذا بيانٌ للنّاس وهُدى وموعظةٌ للمتّقين ﴾

[آل عمران : ١٣٨]

٢ ـ المؤمنون هم الأعلون ، وتلك أولى فقرات البيان : ﴿ ولا تهنوا ولا تحزنوا وأنتم الأعلون إن كنتم مؤمنين ﴾ [آل عمران : ١٣٩] .

٣ ـ لا عبرة بالخسائر المادية : ﴿ إن يمسسكم قرح فقد مس القوم قرح مثله وتلك الأيام نداولها بين الناس ... ﴾ .

٤ ـ المحنة ضرورة ، لماذا ؟

أ ـ ﴿ وليعلم الله الذين آمنوا ﴾ .

ب ـ ﴿ ويتخذ منكم شهداء ﴾ .

جـ ـ ﴿ والله لا يحب الظالمين ﴾ [آل عمران : ١٤٠] . فلو أحبهم الله لاتخذ منهم شهداء . إنها محنة الحب للمؤمنين الصادقين .

د ـ ﴿ وليمحص الله الذين آمنوا ﴾ .

هـ ـ ﴿ ويمحق الكافرين ﴾ [آل عمران : ١٤١] . فلابد أن يتميز المحبون المخلصون من الأدعياء ، وشتان شتان بين التمحيص وبين المحق والإبادة .

٥ ـ لا جنة بلا جهاد : ﴿ أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يعلم الله الذين جاهدوا منكم ويعلم الصابرين ﴾ [آل عمران : ١٤٢] .

٦ ـ بين الحقيقة والادعاء : ﴿ ولقد كنتم تمنون الموت من قبل أن تلقوه فقد رأيتموه وأنتم تنظرون ﴾ [آل عمران : ١٤٣] .

٧ ـ الارتباط بالرسالة لا بشخص الرسول : ﴿ وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل أفإن مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم ومن ينقلب على عقبيه فلن يضر الله شيئا وسيجزي الله الشاكرين ﴾ [آل عمران : ١٤٤] .

٨ ـ النصر ثواب الدنيا ، والمغفرة ثواب الآخرة : ﴿ وما كان لنفس أن تموت إلا بإذن الله كتابا مؤجلا ومن يرد ثواب الدنيا نؤته منها ومن يرد ثواب الآخرة نؤته منها وسنجزي الشاكرين ﴾ [آل عمران : ١٤٥] .

٩ ـ الربانى لا يعرف الوهن والضعف : ﴿ وكأين من نبي قاتل معه ربيون كثير فما وهنوا لما أصابهم في سبيل الله وما ضعفوا وما استكانوا والله يحب الصابرين ﴾

[آل عمران : ١٤٦]

١٠ ـ غاية الربانى المغفرة فالثبات فالنصر : ﴿ وما كان قولهم إلا أن قالوا ربنا اغفر لنا ذنوبنا وإسرافنا في أمرنا وثبت أقدامنا وانصرنا على القوم الكافرين . فآتاهم الله ثواب الدنيا وحسن ثواب الآخرة والله يحب المحسنين ﴾ [آل عمران : ١٤٧، ١٤٨] .

١١ ـ الخسارة بطاعة الكافرين : ﴿ يا أيها الذين آمنوا إن تطيعوا الذين كفروا يردوكم على أعقابكم فتنقلبوا خاسرين ﴾ [آل عمران : ١٤٩] .

١٢ ـ الله خير الناصرين ، وخير من كل أهل الأرض : ﴿ بل الله مولاكم وهو خير الناصرين ﴾ [آل عمران : ١٥٠] .

١٣ ـ الرعب من الله يلقى على الكافرين : ﴿ سنلقي في قلوب الذين كفروا الرعب بما أشركوا بالله ما لم ينزل به سلطانا ومأواهم النار وبئس مثوى الظالمين ﴾

[آل عمران : ١٥١]

١٤ ـ النصر تم: ﴿ ولقد صدقكم الله وعده إذ تحسونهم بإذنه . . . ﴾

[آل عمران : ١٥٢]

١٥ ـ أسباب فقدان النصر : الفشل والتنازع فى الأمر وحب الدنيا : ﴿حتى إذا فشلتم وتنازعتم في الأمر وعصيتم من بعد ما أراكم ما تحبون منكم من يريد الدنيا ومنكم من يريد الآخرة . . . ﴾ .

١٦ ـ الابتلاء عفو وفضل : ﴿ ثم صرفكم عنهم ليبتليكم ولقد عفا عنكم والله ذو فضل على المؤمنين ﴾ ولولا عفو الله لانتهى المسلمون ، ولأبيدوا ، لكن عين الله ترعاهم حتى فى الابتلاء والعقوبة ، فالمؤمن يفشل ، والمؤمن يعصى ، والمؤمن يحب الدنيا ، فإن عوقب فيها فذلك فضل من الله كبير .

١٧ ـ لا حزن على عقوبة الخطيئة : ﴿ إذ تصعدون ولا تلوون على أحد والرسول يدعوكم في أخراكم فأثابكم غما بغم لكيلا تحزنوا على ما فاتكم ولا ما أصابكم والله خبير بما تعملون ﴾ [آل عمران : ١٥٣] .

١٨ ـ الصامدون كوفئوا بالأمن النفسى : ﴿ ثم أنزل عليكم من بعد الغم أمنة نعاسا يغشى طائفة منكم . . . ﴾ [آل عمران : ١٥٤] ، ثم فزعوا من نومهم وكأنهم لم يصبهم من قبل نكبة .

١٩ ـ المؤمن الضعيف يتزلزل : ﴿ وَطَائِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ يَقُولُونَ هَل لَّنَا مِنَ الأَمْرِ مِن شَيْءٍ قُلْ إِنَّ الأَمْرَ كُلَّهُ لِلَّهِ يُخْفُونَ فِي أَنفُسِهِم مَّا لا يُبْدُونَ لَكَ يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الأَمْرِ شَيْءٌ مَّا قُتِلْنَا هَاهُنَا قُل لَّوْ كُنتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمْ ﴾ [آل عمران : ١٥٤] .

٢٠ ـ المعركة تكشف مستويات الإيمان : ﴿... وَلِيَبْتَلِيَ اللَّهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴾ [آل عمران : ١٥٤] .

٢١ ـ الخطيئة تورث الفرار : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ تَوَلَّوْا مِنكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ إِنَّمَا اسْتَزَلَّهُمُ الشَّيْطَانُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا وَلَقَدْ عَفَا اللَّهُ عَنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴾ [آل عمران : ١٥٥] . فلقد كان التولى نتيجة استدراج من الشيطان ، ونتيجة خطأ أو معصية أورثت وهناً فى القلب ، وضعفاً فى الإيمان ، أدى إلى التولى يوم الزحف ، ومن فضل اللّه عليهم أنه عفا عنهم . وكفاهم من العقوبة الجزع النفسى والندم الداخلى العميق .

٢٢ ـ الأخوة بين الكافرين والمنافقين : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَكُونُوا كَالَّذِينَ كَفَرُوا وَقَالُوا لإِخْوَانِهِمْ إِذَا ضَرَبُوا فِي الأَرْضِ أَوْ كَانُوا غُزًّى لَّوْ كَانُوا عِندَنَا مَا مَاتُوا وَمَا قُتِلُوا لِيَجْعَلَ اللَّهُ ذَٰلِكَ حَسْرَةً فِي قُلُوبِهِمْ وَاللَّهُ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ [آل عمران : ١٥٦] . فالحسرة تأكل قلب المنافق من الخوف، وتأكل قلبه جزعاً من الموت ، ويثاقل إلى الحياة ، بل يهيم فى حبها ، وترتعد فرائصه من الموت .

٢٣ ـ المغفرة ولقاء اللّه : ﴿ وَلَئِن قُتِلْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ مُتُّمْ لَمَغْفِرَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرَحْمَةٌ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ .وَلَئِن مُّتُّمْ أَوْ قُتِلْتُمْ لإِلَى اللَّهِ تُحْشَرُونَ ﴾ [آل عمران : ١٥٧ ، ١٥٨] . وشتان ما بين من يرى الموت حسرة على ملذاته ، وحرقاً لفؤاده على شهواته ، وبين من يراه زغرودة النصر وربيع الأمانى بالمغفرة والرحمة ولقاء اللّه على المؤمنين .

٢٤ ـ حدود الرسالة : رحمة ولين ، عفو واستغفار وشورى ، عزيمة وتوكل : ﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ ﴾ [آل عمران : ١٥٩] . وكما يقول الشهيد سيد قطب رحمه اللّه : (ثم يجىء الأمر الإلهى بالشورى بعد المعركة كذلك ، تثبيتاً للمبدأ فى مواجهة نتائجه

المريرة . إن الإسلام لا يؤجل مزاولة المبدأ حتى تستعد الأمة لمزاولته ، وإن الأخطاء فى مزاولته مهما بلغت من الجسامة لا تبرر إلغاءه . . كما أن المزاولة العملية للمبادئ تتجلى فى تصرف الرسول ﷺ عندما رفض أن يعود إلى الشورى ، بعد العزم ، واعتباره هذا تردداً وأرجحة وذلك لصيانة مبدأ الشورى ، من أن يصبح وسيلة للتأرجح و الشلل الحركى) (١) .

٢٥ ـ لا نصر إلا من الله : ﴿ **إن ينصُرْكُمُ اللهُ فلا غالبَ لكُمْ وإن يخذُلْكُمْ فمن ذا الذي ينصُرُكُم مِنْ بعده وعلَى الله فلْيتوكَّل المُؤمنون** ﴾ [آل عمران : ١٦٠] . ونحن أمام شيئين : إما أن نكون كافرين فنبحث عن غير الله ، وإما أن نكون مؤمنين، فيجب أن نعتقد اعتقاداً جازماً أن الذى ينصر هو الله، وأن الذى يخذل هو الله ، ولا قبل لأحد بحرب الله ولا طاقة.

٢٦ ـ ﴿ **وما كان لنبيٍّ أن يغُلَّ** ﴾ [آل عمران : ١٦١] : فالقائد لابد أن يكون القدوة لجنده، فكيف إذا كان نبياً ، القائد الذى يتعب ليستريح جنده ، ويفتقر ليغنوا ، ويحرم نفسه ليعطيهم ، ويجهد ليسعدوا ، فما يمكن للرسول القدوة أن يغل ، إنما يمكن للملأ ، للقادة المترفين ، لطغاة الأرض : ﴿ **ومن يغْلُلْ يأت بما غل يوم القيامة ثُم توفَّى كُلُّ نفسٍ مَا كسبت وهُمْ لا يُظْلمُون** ﴾ [آل عمران : ١٦١] .

٢٧ ـ نعم ليسوا سواء : ﴿ **أفَمَنِ اتَّبعَ رضْوَانَ اللهِ كمَنْ بَاءَ بسخطٍ من الله ومأواهُ جهنَّمُ وبئْسَ المَصيرُ . هُم درجاتٌ عند الله واللهُ بَصيرٌ بما يعْملُون** ﴾ [آل عمران: ١٦٢، ١٦٣] .

٢٨ ـ من الظلمات إلى النور : ﴿ **لقدْ منَّ اللهُ على المُؤمنين إذْ بعث فيهم رسولاً من أنفُسهم يتلُو عليْهم آياته ويُزكّيهم ويُعلّمُهُم الكتاب والحكْمة وإن كانُوا من قبلُ لفي ضلال مبين** ﴾ [آل عمران: ١٦٤] . إنها منة الرسالة من الله تعالى لخلقه ، وكم الفرق شاسع ، وكم النقلة بعيدة بين الضياع فى التيه والانبثاق من القرآن ؟!

٢٩ ـ عودة إلى المعركة ، فلماذا المصيبة ؟ لماذا الانتكاسة ؟ إنها من النفس ، إنها من الأعماق . إن الضعف فى الداخل ، ليس من السلاح ، وليس من تكالب الأعداء ، إنها من النفس : ﴿ **أوَ لمَّا أصابتْكُم مُصيبةٌ قدْ أصبْتُم مثْليْها قلْتُم أنَّى هذا قُلْ هو من عند أنفُسكُم إنَّ اللهَ على كُلِّ شيءٍ قديرٌ** ﴾ [آل عمران : ١٦٥] .

---

(١) فى ظلال القرآن ص ٥٣١ ، ٥٣٢ ط دار الشروق .

٣٠ ـ المصيبة للتميز والتطهير : إنها بإذن الله ، وعلمه وإرادته ، لابد من تميز الصف، لابد من كشف المؤمن من المنافق ، لابد من تطهير الصف الداخلى ، لابد من صدق التعاقد مع الله : ﴿ **وما أصابكم يوم التقى الجمعان فبإذن الله وليعلم المؤمنين . وليعلم الذين نافقوا وقيل لهم تعالوا قاتلوا في سبيل الله أو ادفعوا قالوا لو نعلم قتالا لاتبعناكم هم للكفر يومئذ أقرب منهم للإيمان يقولون بأفواههم ما ليس في قلوبهم والله أعلم بما يكتمون . الذين قالوا لإخوانهم وقعدوا لو أطاعونا ما قتلوا قل فادرءوا عن أنفسكم الموت إن كنتم صادقين** ﴾ [آل عمران : ١٦٦، ١٦٧] .

كيف يمكن أن يكون هؤلاء المتخاذلون الخائرون المنافقون مثل من قدَّموا دمهم وحياتهم ولحمهم دون رسول الله ، ولو تم النصر وانتهت المعركة فى الجولة الأولى لبقى كثير من النوعيات الخائرة المتخاذلة التى همت أن تفشل فى جانب الادعاء والتبجح .

٣١ ـ أما مقام الشهداء فياله من مقام: (لقى رسول الله ﷺ جابر بن عبد الله فقال : « يا جابر ، ألا أحدثك عن أبيك ؟ » قلت : بلى يا رسول الله . قال : « إن الله لم يكلم أحداً شفاهاً وكلم أباك فقال : تمنَّ يا عبدى ، فقال : يا رب ، أتمنى أن تعيدنى إلى الدنيا فأقتل ثانية فى سبيلك . فقال الله له : أما هذه فقد سبق القول منى أنهم إليها لا يرجعون . تمنَّ غير ذلك . فقال : يا رب ، أخبر إذن إخواننا الذين فى الدنيا أننا أحياء فى الجنة نأكل ونتنعم حتى لا ينكلوا عن الجهاد ، ولا يتخلفوا عن رسول الله [١] . فأنزل الله عز وجل: ﴿ **ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله أمواتا بل أحياء عند ربهم يرزقون . فرحين بما آتاهم الله من فضله ويستبشرون بالذين لم يلحقوا بهم من خلفهم ألا خوف عليهم ولا هم يحزنون. يستبشرون بنعمة من الله وفضل وأن الله لا يضيع أجر المؤمنين** ﴾ [آل عمران : ١٦٩، ١٧١])[٢].

٣٢ ـ تحدى الطاغوت: وبالرغم من الجراحات التى أثقلت جند الله، كان الجيش يخرج مع إطلالة الفجر لملاحقة المشركين ومطاردتهم ، نستمع إلى مشاعر الجيش وآلامه على لسان أحد جنوده الذى يقول : شهدت أحداً مع رسول الله ﷺ أنا وأخ لى . فرجعنا جريحين . فلما أذن مؤذن رسول الله ﷺ بالخروج فى

---

(١) أورده الإمام أحمد مختصرا ، الفتح الربانى ٢٢/ ٣٠٦ .

(٢) السيرة النبوية لابن هشام ٢/ ١٢٠ .

طلب العدو قلت لأخى : أتفوتنا غزوة مع رسول الله ﷺ ؟ والله ما لنا من دابة نركبها ، وما منا إلا جريح ثقيل . فخرجنا مع رسول الله ﷺ وكنت أيسر جرحاً، فكان أخى إذا غلب حملته عقبة ، ومشى عقبة حتى انتهينا إلى ما انتهى إليه المسلمون (١) . أما بيان الله تعالى عن الحملة فكان : ﴿ **الَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِلَّهِ وَالرَّسُولِ مِنْ بَعْدِ مَا أَصَابَهُمُ الْقَرْحُ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا مِنْهُمْ وَاتَّقَوْا أَجْرٌ عَظِيمٌ** ﴾ [آل عمران : ١٧٢] .

٣٣ ـ حسبنا الله ونعم الوكيل : أبو سفيان تحتقن روحه فى حلقه يوم عاد مع جيشه دون أن يستأصل شأفة المسلمين ، وقلبه يخفق رعباً من أن يلحق به جيش محمد، فحاول تحقيق نصر مزعوم بأن قال لوفد بنى عبد القيس : (إذا وافيتموه ـ أى رسول الله ـ فأخبروه أنا قد أجمعنا السير إليه وإلى أصحابه لنستأصل بقيتهم) . فجاءت شهادة الله تعالى بجنده المؤمنين : ﴿ **الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ . فَانقَلَبُوا بِنِعْمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ لَمْ يَمْسَسْهُمْ سُوءٌ وَاتَّبَعُوا رِضْوَانَ اللَّهِ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ. إِنَّمَا ذَلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ** ﴾ [آل عمران:١٧٣ ـ ١٧٥] .

٣٤ ـ الفئة المسلمة صفوة الله من خلقه : وقد تكون مثخنة بالجراح ، وقد تكون عبقة بالآلام ، وقد تكون مثقلة بالتضحيات ، ولكنها تبقى صفوة الله من خلقه ولو تبجح الكفر وتمرد فتبجحه فى ميزان الله خواء . فالمواساة إذن من الله يوم تطبق الأرض على المؤمنين فيقول الله تعالى لنبيه الكريم : ﴿ **وَلَا يَحْزُنكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لَن يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئًا يُرِيدُ اللَّهُ أَلَّا يَجْعَلَ لَهُمْ حَظًّا فِي الْآخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ . إِنَّ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الْكُفْرَ بِالْإِيمَانِ لَن يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئًا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ . وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ خَيْرٌ لِّأَنفُسِهِمْ إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوا إِثْمًا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ** ﴾ [آل عمران : ١٧٦ ـ ١٧٨] .

٣٥ ـ ليميز الخبيث من الطيب: هذه سنة الله تعالى مع جنده المؤمنين ، وهذه خلاصة المحنة وهذه زبدة الدرس التربوى الخالد المستمر على مر العصور .

﴿ **مَا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَا أَنتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى الْغَيْبِ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَجْتَبِي مِن رُّسُلِهِ مَن يَشَاءُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَإِن تُؤْمِنُوا وَتَتَّقُوا**

---

(١) السيرة النبوية لابن هشام ٢/ ١٠١ .

فلكم أجرٌ عظيم ﴾ [آل عمران : ١٧٩] . وما كانت محنة أحد إلا تطبيقاً عملياً لهذا الدرس ولهذه السنة ، السنة الثابتة المستمرة على مر العصور ابتدأت : ﴿ قد خلت من قبلكم سُنَنٌ فسيروا في الأرض فانظروا كيف كان عاقبة المكذبين ﴾ ، وانتهت : ﴿ ما كان الله ليذر المؤمنين على ما أنتم عليه حتى يميز الخبيث من الطيب وما كان الله ليطلعكم على الغيب ﴾ [آل عمران : ١٣٧ ـ ١٧٩] .

مع سورة بنى النضير

كان لهذه الغزوة صدى طيب عظيم فى نفوس المسلمين ، فهى أول نصر تحقق بعد المحن المتتابعة : أحد والرجيع وبئر معونة ، والغيظ من اليهود قد بلغ ذروته حيث إنهم أظهروا الشماته للمسلمين بعد محنتهم ، وأظهروا العداوة ، وحاولوا اغتيال الرسول ﷺ ، فكانت شفاء للصدور المؤمنة ، وبلسماً للجراح الراعفة ، وفضيحة للمنافقين المتواطئين مع اليهود ، وذلك فى معالم واضحة :

١ ـ الله تعالى أخرج اليهود من حصونهم : فلم يكن يتصور المؤمنون أنهم قادرون على إخراجهم ، وإذا بالنصر المؤزر يتحقق بأن البيوت تخرب بأيدى المؤمنين ، وبأيدى اليهود أنفسهم ، وهذه سنة الله تعالى فى دحر المشاقين والمصادين له : ﴿ هو الذي أخرج الذين كفروا من أهل الكتاب من ديارهم لأول الحشر ما ظننتم أن يخرجوا وظنوا أنهم مانعتهم حصونهم من الله فأتاهم الله من حيث لم يحتسبوا وقذف في قلوبهم الرعب يخربون بيوتهم بأيديهم وأيدي المؤمنين فاعتبروا يا أولي الأبصار ﴾

[الحشر : ٢]

٢ ـ واستغل اليهود حادثة قطع نخيلهم ، وراحوا يتحدثون عن الفساد فيه ، ومحمد ينهى عن الفساد ، وكاد الأمر يلبَّس على بعض المؤمنين ، فنفى الله تعالى الحرج عنهم ، ثم أكد لهم بعد ذلك أن النصر الذى تحقق لم يتحقق بجهد المؤمنين، إنما تحقق بقذف الرعب فى قلوب الكافرين . ومن أجل هذا كان الفىء كله لرسول الله ﷺ ، مع ربط هذه الأمور جميعاً بالعبودية لله وطاعة رسوله : ﴿ ... وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا واتقوا الله إن الله شديد العقاب ﴾

[الحشر : ٧]

٣ ـ ولئن حرم المؤمنون الفيء فلم يحرموا الثناء من رب العباد ، المهاجرون والأنصار والتابعون لهم بإحسان إلى يوم القيامة ، إنما بقى الفيء للفقراء المؤمنين، ولعل هذه الصورة تعطينا الحكمة من هذا الثناء على هذا الجيل الفريد .

لما غنم رسول الله ﷺ بنى النضير بعث ثابت بن قيس فدعا الأنصار كلها ـ الأوس والخزرج ـ فحمد الله وأثنى عليه،وذكر الأنصار وما صنعوا بالمهاجرين ، وإنزالهم إياهم فى منازلهم ، وآثرتهم على أنفسهم ، ثم قال :

« إن أحببتم قسمت بينكم وبين المهاجرين ما أفاء الله علىَّ من بنى النضير ؛ وكان المهاجرون على ما هم عليه من السكنى فى مساكنكم وأموالكم ، وإن أحببتم أعطيتهم وخرجوا من دياركم » ، فقال سعد بن عبادة وسعد بن معاذ : يا رسول الله ، بل نقسمه للمهاجرين ويكونون فى دورنا كما كانوا . ونادته الأنصار: رضينا وسلمنا يا رسول الله . فقال رسول الله ﷺ :

« اللهم ارحم الأنصار وأبناء الأنصار » ، وقسم ما أفاء الله عليه على المهاجرين دون الأنصار إلا رجلين كانا محتاجين سهل ابن حنيف ، وأبى دجانة سماك بن خرشة ، وأعطى سعد بن معاذ سيف ابن أبى الحقيق وكان سيفاً له ذكر (١) .

٤ ـ ثم كانت فضيحة المنافقين ، وكشف خيانتهم وتواطئهم مع بنى النضير على حرب المسلمين ، وكشف جبنهم وغدرهم ، إنهم أحقر من أن يواجهوا المسلمين وجهاً لوجه ، وإن اليهود مثل المنافقين لا يقابلون المسلمين إلا وهم خلف حصونهم: ﴿ **بأسهم بينهم شديد تحسبهم جميعا وقلوبهم شتى ذلك بأنهم قوم لا يعقلون** ﴾ [الحشر : ١٤]

٥ ـ ثم تأتى الفقرة الأخيرة من السورة عقيدة خالصة ، وتسبيحاً وتنزيها لله تعالى رب السموات والأرض،مع تذكير المؤمنين بحسن الإنابة،ودعوة المنافقين إلى التوبة . إنها آيات تبنى عقيدة وتصورا ، كما تبنى نفوساً صادقة محضة الولاء لله .

---

(١) إمتاع الأسماع ١/ ١٨٢ ـ ١٨٣ .

مع آيات الأحزاب فى سورة الأحزاب

١ ـ لئن كانت المعركة قد استمر الحصار فيها للمسلمين بضعاً وعشرين ليلة ، فشتان ما بين الحصارين ؛ لقد انتهى حصار اليهود باستسلامهم وجلائهم أذلاء صاغرين عن المدينة ، مخلفين وراءهم بيوتهم وأرضهم غنيمة للمؤمنين ، بينما انتهى حصار قريش وغطفان لرسول الله ﷺ وللمؤمنين بالفشل الذريع لقريش وغطفان ، ولخص القرآن الكريم المعركة كلها بآية واحدة : ﴿ **يا أيها الذين آمنوا اذكروا نعمة الله عليكم إذ جاءتكم جنود فأرسلنا عليهم ريحا وجنودا لم تروها وكان الله بما تعملون بصيرا** ﴾ [الأحزاب : ٩] .

٢ ـ ومع ذكر النعمة فلابد من استعادة ذلك الجو الصعب ، والظرف الدقيق ، والخطر الداهم الذى نزل بالمسلمين ، وكيف وصلوا إلى حالة قريبة من اليأس : ﴿ **إذ جاءوكم من فوقكم ومن أسفل منكم وإذ زاغت الأبصار وبلغت القلوب الحناجر وتظنون بالله الظنونا . هنالك ابتلي المؤمنون وزلزلوا زلزالا شديدا** ﴾ [الأحزاب : ١٠، ١١] .

٣ ـ ثم التميز المطلوب بعد كل محنة ، وفضيحة المنافقين وحصرهم ، وفرارهم من المعركة بحجة : ﴿ **إن بيوتنا عورة وما هي بعورة إن يريدون إلا فرارا** ﴾ [الأحزاب : ١٣]

٤ ـ ثم الثناء العطر على المؤمنين بثباتهم على الحق وإخلاصهم لله : ﴿ **من المؤمنين رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه فمنهم من قضى نحبه ومنهم من ينتظر وما بدلوا تبديلا** ﴾ [الأحزاب : ٢٣] .

٥ ـ ثم فضل الله تعالى على المؤمنين ، من مرحلة ﴿ **إذ جاءوكم من فوقكم ومن أسفل منكم وإذ زاغت الأبصار وبلغت القلوب الحناجر وتظنون بالله الظنونا . هنالك ابتلي المؤمنون وزلزلوا زلزالا شديدا** ﴾ أقول : من هذه المرحلة إلى مرحلة : ﴿ **ورد الله الذين كفروا بغيظهم لم ينالوا خيرا وكفى الله المؤمنين القتال وكان الله قويا عزيزا . وأنزل الذين ظاهروهم من أهل الكتاب من صياصيهم وقذف في قلوبهم الرعب فريقا تقتلون وتأسرون فريقا . وأورثكم أرضهم وديارهم وأموالهم وأرضا لم تطئوها وكان الله على كل شيء قديرا** ﴾ [الأحزاب : ٢٥ ـ ٢٧] .

لقد كانت آيات سورة الأحزاب تشيع الجو النفسى الجديد ، بارتفاع المحنة ، وكشف الغمة ، وتضع معالم المرحلة القادمة من النصر المؤزر الذى افتتح بالقضاء على يهود بنى قريظة قضاءً تاماً ، ووراثة أرضهم وديارهم وأموالهم ، وشتان ما بين حصار وحصار . حصار بنى قريظة الذى انتهى: ﴿ **فريقًا تقتلون وتأسرون فريقا** ﴾ وحصار المؤمنين الذى انتهى: ﴿ **وردَّ اللَّهُ الَّذين كفروا بغيْظهمْ لمْ ينالُوا خيْرًا وكفى اللَّه الْمُؤْمنين الْقتال . . .** ﴾.

لقد انتهت مرحلة الدفاع ، وابتدأت مرحلة الهجوم ، مرحلة انتشار الإسلام فى الأرض، وانسياح هذا الدين فى الوجود : « الآن نغزوهم ولا يغزوننا ، نحن نسير إليهم » (١) .

وما أحوجنا إلى فقه سمات كل مرحلة لنكون على بينة منها ، ونحن نشق طريقنا الجديد لإقامة دولة الإسلام فى الأرض ، ونعرف موطن القدوة والأسوة ، ونتمثل السمات نفسها لكل مرحلة ، دون أن نعتسف الطريق ، ونتعجل الخطا ، فإن المُنبتَّ لا أرضاً قطع ولا ظَهْراً أبقى .

وإلى معالم المرحلة الجديدة وسماتها فى القسم الثالث القادم إن شاء الله، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين .

---

(١) فتح البارى بشرح صحيح البخارى ٧/ ٤٠٥ ح ٤١١٠ .